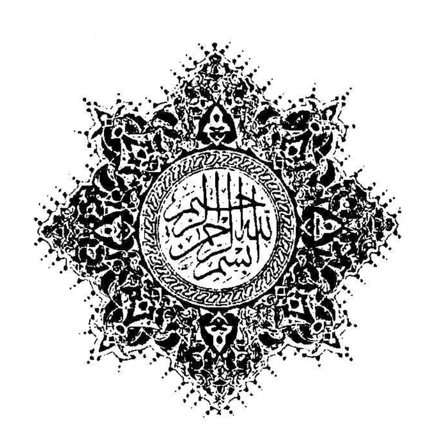


مسار الفلسفة

في إيران والعالم

خلال عشرين قرناً

الاستاذ السيّد محمّد الخامنئي


بسم الله الرحمن الرحيم



مَسارُ الفَلسَفَة

في إيران والعالم

خِلال عِشرين قرناً

آيت الله السيّد محمد الخامنئي

خامنه‌ای، محمد، ۱۳۱۴ -
مسار الفلسفة في ايران والعالم خلال عشرين قرناً/ تأليف محمد خامنئي؛ تعريف حيدر نجف. -- تهران: بنياد حكمت اسلامى صدرا، ۱۳۸۵.
ISBN 964-7472-61-7
۳۰۰ ص.
فهرستنويسى بر اساس اطلاعات فيپا عرب.
عنوان اصلى: سير حكمت در ايران و جهان.
عربى
۱. فلسفه -- تاريخ. ۲. فلسفهٔ اسلامى -- ۳. فلسفه -- ايران -- تاريخ. الف. نجف، حيدر، مترجم. ب. بنياد حكمت اسلامى صدرا، ج. عنوان.
۲۴۰۴۳ خ ۲۲ ف / ۹۹ B ۱۹۰
۱۳۸۴
كتابخانه ملى ايران ۲۳۶۱۳ - ۸۴ م



مَسار الفلسفة في ايران و العالم خلال عشرين قرناً

تأليف

الاستاذ السيد محمد خامنئي

تعريب

حيدر نجف

الطبعة الاولى، ۲۰۰۶ م، ۲۰۰۰ نسخة

العنوان: طهران، شارع رسالت، مقابل الضلع الشمالي لمصلى طهران، مجمّع الامام الخميني، مؤسسة صدرا للحكمة الاسلامية
ص ب: ۱۵۸۷۵/٦٩١٩، هاتف: ۸۸۱۵۳۵۹٤ ـ ۸۸۱۵۳۲۱۰، فاكس: ۸۸۸۳۱۸۱۷

الرقم العالمي: ۷ ـ ۶۱ ـ ۷۴۷۲ ـ ۹۶۴
ISBN: 964-7472-61-7

الفهرس

مَسار الفلسفة في ايران و العالم

خلال عشرين قرناً

مدخل

اذا جاز تشبيه الحكمة والفلسفة بالانسان، كان تاريخ الفلسفة بمثابة مشجرة نسب هذا الانسان التي تستعرض انحداره وتسلسل آبائه واجداده، والصحيفة التي تروي سِيَرهم وحياتهم منذ البداية حتى التألق، ومن النقص صعوداً الى الكمال.

تاريخ الفلسفة هو علم انساب الفلسفة، وعلى من اراد الخوض في الفلسفة ان يطلع على تاريخها، بل ويضطلع فيه حتى قبل دراستها.

يؤكد علماء المنطق على ضرورة اتقان ثمانية امور لاجل البدء في دراسة اي علم، وهي امور عرفت بـ«الرؤوس الثمانية» ومنها: معرفة موضوع العلم، وتعريفه، وفائدته، ومنهج البحث فيه. وذلك من اجل ان يدخل طالب العلم في ذلك العلم متسلحاً بمعرفة صحيحة حوله، الأمر الذي يضاعف شوقه لاتقانه والتمرّس فيه.

بناء على هذا، ينبغي اعتبار تاريخ كل العلوم، ولاسيما الفلسفة، أحد رؤوسه الاصلية ومبادئه الاساسية الاولى، ويتوجب على كل طالب فلسفة مبتدئ أن يتعرف الى جانب دراسته لها على تاريخها وماضيها واصولها.

وللأسف، لا نجد تدريس الفلسفة اليوم مصحوباً بالاهتمام اللازم والمناسب بتاريخها، وليس هذا وحسب، بل وثمة اخطاء تاريخية في ثنايا كتب الفلسفة تشي بأضرار ومساوئ حتى هذا القليل الذي يُدرس.

وقد تضاءل البحث في تاريخ الفلسفة والكتابة حوله خلال العقود الأخيرة في اروقتنا الفلسفية بنحو ملحوظ، اذ لم تظهر اعمال مميّزة من قبل الباحثين تتسم بالدقة وتحاشي الاخطاء.

وربما كان من اسباب ضمور الاهتمام بالفلسفة، وهم باطل يفيد أنّ وضع كتاب في تاريخ الفلسفة لايليق بالعالم او الفيلسوف، فالمكبُّ على معالجة قضايا الفلسفة المعقدة الراقية، ينبغي ان لايشغل نفسه بقصص المؤرخين الصغيرة وتفاصيل سير العلماء الماضين.

وكان من نتائج هذا الخطأ الذي وقع فيه الماضون ان استأثر الغربيون بمهمة تدوين التاريخ الفلسفي، ما افضى الى تحريفات اشتمل عليها تاريخ الفلسفة اضرت بالفلسفات الشرقية والفلسفة الاسلامية على وجه التحديد، حيث نسجت اكاذيب حول عظمة اليونان القديمة وكأن الفلسفة لا منبت ولا مهد لها سوى اليونان، فليست الفلسفة اليوم سوى الفلسفة الغربية الحديثة، وماعدا ذلك محض اوهام واباطيل.

والأنكى من ذلك ان كثيراً من ابناء بلداننا وبسبب اعتمادهم كتب الغربيين كمصادر ومراجع، صدقوا تلك الاكاذيب والتزييفات، بل وتفوّقوا حتى على الغربيين احياناً في شرح عظمة الغرب وتفوقه الازلي الابدي على سكان المشرق. وهذا ما يتسنّى رصده بوضوح في مدونات الخمسين سنة الاخيرة في ايران.

عند دراسة المؤلفين الغربيين وتصنيفهم، يلاحظ ان بعض تلك الكتب وضعت من قبل مؤلفين غربيين لا دينيين او من عبدة اصنام العلم. فقد عالج هؤلاء المسائل الفلسفية من منظارهم الخاص وجادوا علينا بما توصلوا اليه من نتائج وكأنها وصفات شافية لامجال للشك فيها! فريق آخر من هؤلاء المؤلفين كانوا قساوسة متعصبين لهم مواقفهم المعادية للاسلام والشرق، مضافاً الى انهم يفتقرون لبعض المعلومات

والمعارف الضرورية حول الفلسفة، لاسيما الاسلامية منها.

والغريب ان حبر بعض هذه المؤلفات لم يكن قد جف بعد، حينما هب فريق من السذج والمغفلين وربما ممن يعانون من عقدة الدونية أو فلول المتغربين، الى ترجمتها للفارسية لتغذية جماهيرنا وجيلنا الصاعد من طلاب الفلسفة بها، من دون اي تمييز لغثها وسمينها، وصالحها وطالحها، ومفيدها وضارها. وهذا ظلم كبير لشبابنا وباحثينا وثقافة بلادنا، إنْ لم نقل انه خيانة عمدية او غير عمدية للشعب والبلاد والدين والتاريخ في هذه الارض، ومساعدة للاعداء في تمرير مخططاتهم... الاعداء الذين مافتئوا يتربصون بنا الدوائر ويتكتمون على تاريخنا الشامخ، محاولين ابعاد «العالم الثالث» كما يسمى عن ذاته وثقافته وتاريخه.

فمن ذا الذي يجهل ياترى ان البلدان الغربية وضمن سياق مخططاتها الاستغلالية، فكرت وعملت دائماً بسياسة خبيثة ركزت على افراغ وابعاد الشعوب المستعمَرة عن ثقافتها وتاريخها وماضيها، وعملت على استقطاب شباب البلدان الاخرى الى احضانها بكل صنوف المكر والحيلة عبر تعظيم ذاتها والاستهانة بماضي الآخرين الشامخ.

وقد كان شعبنا في غضون القرن الماضي احد ضحايا هذه المؤامرة دائماً. فمنذ بواكير ثورة الدستور (المشروطة) وهيمنة تلك الدول بصفة علنية على مقدرات السياسة والحكم في ايران، انطلقت محاولات التصدي للتراث العلمي الثر وتاريخ العلم الذي يتمتع به هذا الشعب. وينبغي ان لايدهشنا القول بأن تأسيس الجامعات كان بدوره لمواجهة الحوزات والمدارس القديمة وربما للقضاء عليها، هذا مع ان كبريات الجامعات الغربية كالسوربون واوكسفورد وكمبردج، كانت جميعها حوزات ومدارس تقليدية تطورت بطريقة طبيعية مع تيار التطور الغربي، الى أن اضحت «الجامعات» التي

نشاهدها اليوم.

السياسة المشؤومة الاخرى التي طبقها اعداؤنا الثقافيون هي ترجمة كتب واعمال حول شتى ضروب الفلسفات والافكار المتشحة برداء الحداثة والتجديد، ومن ذلك كتابات في تاريخ الفلسفة، وخصوصاً الفلسفة الديكارتية وماشاكلها. مثال ذلك تأليف كتاب «مسار الحكمة في اوربا» لمحمد علي فروغي ونشره والدعاية له. هذا بالرغم من أن هذا الكتاب قدّم بعض الخدمة للحوزات العلمية، إذ لايزال مرجعاً نافعاً لها بخلاف ارادة مؤلفه ونواياه الاصلية، أو من دون ارادته وقصده على الأقل.

والجامعات هي الاخرى خلافاً لنوايا مؤسسيها ومطامحهم كانت مفيدة الى حدما، وقد تجنّب شعبنا اليقظ اضرارها ومساوئها قدر الامكان.

لم يهدف مؤسسو الجامعات في ايران والبلدان المماثلة الى خدمة الحياة العلمية ورفع مستوى العلوم والمعرفة أو مساعدة شباب هذا الوطن. وانما راموا فضلاً عن اغلاق المدارس القديمة وتهميش العلوم والفلسفة والحقوق الاسلامية، ان يدسوا مرتكزات اللادين (العلمانية) بل حتى مناهضة الدين، في ثنايا مواد التعليم العالي الرسمي، وهذا ما كان يرمي اليه شاه ايران ونظامه، وان ينشئوا جماهير شعب يحملون الجنسية الايرانية لكن قلوبهم خاضعة للغرب مفعمة بحب الغربيين ومودتهم، وعقولهم زاخرة بالثقافة والرؤى الغربية... جماهير يأكلون خبز يومهم ويُسدون الخدمات سخية غامرة للمستثمرين القابعين في الغرب. وكانت النتيجة ما رأيناه من ان بعض هؤلاء المتعلمين اضحوا من الذين قال عنهم الدكتور شريعتي: تلاحظ تواقيعهم اسفل كل المعاهدات الخيانية المناهضة لهذا الشعب.

تم تنفيذ هذا الهدف ـ القضاء على الاسس العلمية والثقافية التقليدية والدينية ـ على مستويي العلوم الانسانية والعلوم الاخرى. الطب وهو ذروة العلوم التطبيقية في

ايران، تلخص في معظم الاحيان ببيع الادوية من قبل الصيادلة. اما الطب التقليدي الذي كانت حسناته تربو على سيئاته فقد تم القضاء عليه بالقوة والضغوط المتوالية. والصناعات والعلوم الأم هي الاخرى لم تعرض الّا ضمن اطار محدود عقيم. وقد جربنا في غضون نصف القرن الاخير الذي بلغ فيه تطور العلوم والصناعات الايرانية القمة، ان جامعاتنا عجزت عن تقديم شيء يذكر قبال نتاجات الغرب، ولم يوضع رقم ملحوظ امام الصفر ليبعث فيه الروح.

اما على مستوى العلوم الانسانية التي تعرضت لهجمات اعنف من قبل الاعداء بسبب دورها المميز في صناعة الثقافة، فقد جرت الامور على منوال آخر. اسّسوا كلية الحقوق مقابل علمي الفقه والاصول في الحوزات العلمية، ولم تكن هذه الكلية سوى جهازاً مهمته الدعاية للحقوق الغربية (لاسيما الفرنسية) واعداد منبهرين بها. واذا ما شع قبس خافت من العلم في تلك الكلية، فلم يكن الا بفضل خريجي الحوزات القديمة ودروسها.

ومقابل الحكمة الايرانية والاسلامية الاصيلة ـ التي ادهشت انظار العالم وسنرى في هذا الكتاب كيف انتقلت عن طريق الاندلس وطرق اخرى الى بلاد الغرب، حتى ان الفلسفة الغربية الحديثة رغم كل فوارقها تعد ولدها غير البار ـ شيدوا كليات مهمتها الرئيسة تدريس الفلسفة الغربية الحديثة بعد عصر النهضة، والدعاية لها ولانبياء تلك المعجزة السماوية ... شخصيات طارئة من قبيل ديكارت واسبينوزا وهيغل وكانط وهيوم والعشرات غيرهم.

طبعاً، لابد من التنبه الى ان هذا القول لايعني عبثية الفكر الغربي وخطئه على نحو الاطلاق، وليس الاسلوب الاسلامي المحبذ هو صم الآذان عن آراء الآخرين، بل على العكس، فالفكر الفلسفي الغربي جدير بالتأمل والانتفاع منه، والاسلام والقرآن

علّمانا ان المؤمنين يستمعون القول فيتبعون احسنه. بيد أن ثمة فارقاً بين «ما هي الهدية؟» وما هي غاية العدو من تقديمها؟

المطلعون على الفلسفة الغربية يعرفون جيداً ان الخوض في تلك الغمرات من دون التسلح ببوصلة الفلسفة التقليدية، والتوفر على مرتكزات الفلسفة الاسلامية، ليس بأقل من الضياع في وديان التيه التي يتعذر على فيلسوفها (بعد اربعين عاماً من الانشغال والضياع) الانفتاح الى رحاب المبدأ والمعاد وفلسفة الحياة ـ وهي القضايا الثلاث الاولى والاهم بالنسبة للانسان ـ فهو لايدري من اين جاء؟ والى اين سيذهب؟ وكيف يحسن به ان يعيش حياته؟

* * *

في مثل هذه الاحوال، استدعت سياسة القضاء على الاسلام مواجهة الفلسفة الاسلامية. ولهذا نلاحظ اليوم ان الفلسفة التي تدرس في كل مكان هي الفلسفة الغربية، فيما عدا النزر اليسير من كليات الفلسفة الاسلامية، ولولا ثبات الحوزات العلمية وهمم وصمود الاساتذة والفلاسفة فيها ربما حلّ بايران ما حلّ بمصر والعراق والشام من انعدام اي اثر للفلسفة الاسلامية الاصيلة، ولما بقيت باقية للحكمة الاشراقية القديمة، ولطمست واندثرت كل اتعاب حكمائنا الماضين وجهودهم المضنية.

لنعد الى مطلع الحديث، وكان بشأن ضرورة العمل الجاد في نطاق تاريخ الفلسفة، حيث قلنا اننا تركنا هذا الركن الركين من الفلسفة فريسة بين انياب الاعداء ومخالبهم، فغيروا ملامحه وقلبوا حقائقه، وجعلوا اليونان كعبة الحكمة والفكر الفلسفي، وعرضوا الفلسفة الشرقية والاسلامية كمجرد أوهام وأخيلة، فغدت الفلسفة الحقة ما تتفتّق عنه عقول المفكرين الغربيين ليس الّا.

على ان الثورة الاسلامية للشعب الايراني الواعي، كانت ثورة استوعبت كافة

الابعاد والنواحي الحياتية، وعودةً الى الهوية الحقيقية والتاريخ القديم الشامخ والدين الاسلامي الزاخر المتعالي. فقد هبَّ باحثو هذا الشعب الواعي وصنّاع المجتمع فيه الى اعادة النظر في الذات شأنهم شأن ساستهم، ونظروا بطريقة جديدة الى تاريخ الحكمة والعلوم في بلادهم، وراحوا ينفضون الغبار عن هذا الصرح العلمي السامق. وكان من المناسب في خضم هذا التحول المبارك، ان يشهد اسلوب قراءة الفلسفة وتدوينها بعض التغييرات هو الآخر، وان يبادر باحثونا الى انجاز مشاريع جديدة في تاريخ الفلسفة لاسيما الفلسفة في ايران قبل سقراط، وينافحوا الى جانب ذلك عن الفلسفة الاسلامية وما لها من حقوق في عنق العلوم والافكار العالمية الراهنة، ويفصحوا عن دور الشيعة في هذا المضمار، فيدوّنوا الكتب حول هذه المحاور ويؤشروا الى الاخطاء المتعمدة وغير المتعمدة للغربيين، ويعملوا على ابطال هذا السحر الذي استمر عدة قرون من الزمن.

* * *

اذا تجاوزنا اشكالية الحاجة الحقيقية الى تاريخ الفلسفة، وما حل بهذا الحقل العلمي جراء السياسات الدولية المتآمرة، كان من المناسب ان نتطرق ولو بايجاز لضرورات عملية تدوين التاريخ بما في ذلك تاريخ الفلسفة، إذ أن المناهج الاحادية الخاطئة لتدوين تاريخ الفلسفة تغص بالاضرار والمساوئ هي الاخرى، أما المنهج السليم النافع فلابد له من مقدمات واصول ينبغي اخذها بنظر الاعتبار.

الاصل الأول: اضطلاع مؤرخ الفلسفة في التاريخ والفلسفة وقضاياها والآراء والقواعد المطروحة في المدارس والمؤلفات الفلسفية. فتدوين التاريخ الذي ينتهج التقليد ويعتمد النقل من هذا الكتاب وذاك، ليس بتاريخ فلسفة، بل هو خليط لايعرف صاحبُه مكوناته وخصائصه ومنافعه من مضاره، انما يلقّنه اذهان القراء بطريقة تعتمد

الجهل والتقليد.

تشخيص السليم من السقيم في آراء المؤرخين هي احدى المقدمات الضرورية في هذا المضمار، ومعرفة النسيج الاولي للفلسفة هي من المرتكزات الاصلية لعملية تدوين التاريخ الفلسفي. لقد كانت للمدارس الفلسفية المختلفة منذ القدم وشائجها وروابطها الباطنية غير المرئية ببعضها، فالفكر البشري استلهم دوماً نتاجات السلف، رغم انه نزع في الوقت ذاته الى المعارضة والتجديد، بيد انه استقى غذاءه لاشعورياً من جذور تلك الاشجار المعمرة، وهذه نقطة اخرى ينبغي ان تؤخذ بنظر الاعتبار كواحد من الاصول الموضوعة والمسلم بها في هذا العلم.

الكثير من المعتقدات والآراء التي ظهرت في القرون الاخيرة، بالامكان رصد جذورها في المدارس والتيارات الماضية وحتى السحيقة القدم. وللمثال يمكن ملاحظة الاشعرية الاسلامية بنحو مدهش في العديد من آراء الغربيين المعاصرين والذين سبقوهم.

فما لم يتبحر المؤرخ في كافة هذه المدارس والآراء، لن يستطيع النهوض بمهمته على وجه سليم، وسيكون عرضة لاخطاء وهفوات ومزالق غير قليلة، وسيخلص الى نتائج غير صائبة ينقلها الى الآخرين.

الاصـــل الثـــاني: مراعاة الحياد واجتناب العصبية وعدم الابتعاد عن جادة الحقائق التاريخية، والصبر على مرِّ الحقيقة والواقع. هذا على الرغم من ان طائفة من الغربيين وفريقاً من الكُتاب العرب لايعملون بهذه القاعدة.

وكما سنرى في هذا الكتاب على نحو الاجمال، فإن اوربا الفتية المبتدئة، وتعويضاً عن هشاشة جذورها وتضعضع ثقافتها في الماضي، حاولت ان تطرح اليونان (ومدينة اثينا الصغيرة تحديداً) بوصفها الماضي الثقافي للغرب، لهذا جعلت منها

حضارة مفترضة خيالية اكثر مما هي في واقعها، فنسجت تاريخاً اسطورياً وزعمت لنفسها معجزة مذهلة في تلك البلاد تفجرت إثرها بشكل مفاجئ ينابيع الفلسفة والحكمة والعلوم الاخرى، فغمرت سيولها كل انحاء العالم يومذاك. وطبعاً لم يكن لا لايران ولا للهند ولا لبابل ولا لمصر أي إسهام أو حق في تلك المعجزة، لأن أهل تلك البلدان لم يتحفوا العالم بغير السحر والشعوذة والخرافات.

وكانت حصيلة هذه العصبية السخيفة، مسخاً لتاريخ الفلسفة في القرون الاربعة الاخيرة على الاقل، واختلاقَ كرامات «وفتوحات» للقوم الذين اعتبرهم سقراط الحكيم اناساً بلاتفكير ولا اكتراثٍ للحكمة والفكر، وانما يتعشقون رشاقة اجسامهم والرياضة والمسرح، والشعر والخطابة احياناً، وكانوا الى ذلك يتقلبون في داء الشهوات المنحطّة، ويرون الحروب وسفك الدماء والبطولات، ارقى واكمل ما يمكن ان يبلغه البشر. ومن الآثار السيئة لعصبيات المؤرخين الغربيين أن راحت الاجيال الغربية التالية تعبد المادة، وتتهرب من النزعات الروحية والمعنوية، لتتعلم أدب الحياة من آلهة الاولمپ.

الأصـــــل الثـــالث: ضرورة اعتماد التحليل الدقيق في النقل التاريخي، دون الارتكاز الى المدونات أو الكتّاب مهما كانوا وأياً كانوا. يعود السبب في هذا «الشك المنهجي» في روايات مؤرخي الفلسفة الى انهم قلّما خاضوا في أصل الواقع و تحرروا من العصبيات العرقية والاقليمية، فدسوا اموراً غير حقيقية بين الحين والحين لاسباب عدة لاتخفى، الى درجة جعلت المؤرخين الاجانب القدماء نظير هيرودوت واكسينوفون صادقين امناء بالمقارنة اليهم.

المسوغ الآخر لهذه الحيطة في التعامل مع الروايات والنقل، هو النظرة السطحية والرؤية التجزيئية للحقائق الخارجية، والاسراف في التوكأ على اقوال ارسطو في النقل

عن القدماء، وقد كان ارسطو اما عاجزاً عن وعي جوهر اقوالهم بسبب بساطة في الرؤية لديه، أو أنه تعمد مغرضاً طرح اقوالهم بشكل غير قويم.

هذه السمة لدى الباحثين الغربيين دفعتهم الى تجاهل احد الاصول الخطيرة في تاريخ العلم والحكمة، وهو الترابط الشبكي بين الآراء والمدارس والاتصال بين الظواهر والاحداث التاريخية. فباتوا يأخذون كل حدث أو عقيدة أو قول بنحو منفرد، ليضعوه تحت مجهر البحث والتحقيق.

الأصل الرابع: معرفة الاكاذيب، والالتفات الى محفزات المؤرخين وثقافاتهم وخلفياتهم الذهنية. وهذه حاجة حقيقية بالنسبة لمحلل التاريخ (بما في ذلك تاريخ الفلسفة). ان لمعرفة الاكاذيب، أو قل علم الاكاذيب، مقدمات وأدوات منها التوافر على اصول ثابتة في تاريخ الشعوب وثقافاتهم وخصائصهم النفسية، والاستناد الى حقائق مسلم لها كمرتكزات اصلية لدراسة المؤرخين و معرفتهم والاطلال على ثقافاتهم ومحفزاتهم وميولهم السياسية.

ذكرنا أن أحد الدوافع للوضع والتزييف في تاريخ الفلسفة هو افتقار المؤرخ وأمته الى ماضٍ متألق في الحضارة والثقافة والاخلاق، والخلو من عناصر العلم والحكمة والفضيلة. البعض من الاقوام الغربية التي كانت حتى الى ما قبل قرن من الزمان تعيش حياة نصف وحشية، لا مندوحة أمامها اليوم في خضم مزايدات التحضر والثقافة، غير اختلاق تاريخ لنفسها. ومن الطبيعي يالنسبة للشعوب التي كانت في الماضي تستلهم دوماً مايجود به الآخرون من فنون وعلوم وابتكارات ـ وحتى لغات بعض الامم وآدابها تطورت وخلدت بفضل جهود الامم الاخرى ـ بغية التظاهر بالحضارة وعدم التخلف عن الآخرين، أن يقدموا انجازات الآخرين على انها انجازاتهم. وعليه، ينبغي لمعرفة الاكاذيب التاريخية، الاطلاع على حقيقة المؤرخ

وخلفيته وثقافته وتاريخه.

الأصل الخامس: التعرف على مصادر التاريخ ومراجعه. فالتاريخ ممكن الحيازة اما عن طريق ما ورد في التواريخ، أو عن طريق الآثار التاريخية المكتشفة نتيجة التنقيبات والحفريات، أو بواسطة الابنية والآثار القائمة. بيد ان المصدر الاهم هو روايات الماضين والنقل التاريخي.

وقد دلت التجربة في علم تاريخ الفلسفة، أن المصادر والاقوال ستكون أقرب الى الحقيقة كلما كانت أقدم وأعرق، وأن اعتماد المصادر المتأخرة والمعاصرة، خصوصاً اذا اتصفت بالاوصاف المارة الذكر، قد يؤدي الى الوقوع في شراك الاكاذيب ومجانبة الصواب. كلما كانت مصادر التاريخ الفلسفي قريبة الى اصولها ـ حتى مع وجود خصومات قومية ـ فهي أقرب الى الحقيقة. ومثال ذلك اعمال مؤرخين نظير هيرودوت واكسينوفون وثوقيديدس واضرابهم.

وللأسف فإن المصادر الاسلامية هي الاخرى ليست جديرة بالثقة تماماً، ولا تساعد الباحث بنحو رئيس، اذ أن كتب المتقدمين كالقفطي وابن النديم و ابن الاثير والطبري، أو المتأخرين ك«محبوب القلوب» للاشكوري وغيره، لاتتمتع بالدقة والسلامة الكافية، وهي أقرب الى الاساطير. كما ان اشارات حكماء من قبيل الميرداماد وصدر المتألهين والسبزواري لاتخلو ايضاً من مزالق. فمثلاً لانزال نقرأ في منظومة السبزواري ان علم المنطق تراث القديس ذي القرنين!

أما الكُتاب الايرانيون المعاصرون، فقد اقاموا مشاريعهم على اساس التقليد الاعمى لآثار الغربيين، وخصوصاً المعاصرين منهم في اوربا وامريكا، لهذا نراهم يترسمون نفس منهجهم الفكري، فيقعون في مصيدة أكاذيبهم، ويوقعون الآخرين فيها ايضاً.

والأصـل الآخـر، والاهم من كل الاصول السابقة، هو عدم الحياد عن جادة الاخلاق والحكمة، ورعاية أدب الكتابة وتكريم العظماء الذين ذاع صيتهم، على كل حال، في تاريخ العلم والفكر سواء كانوا من الصالحين أو الطالحين، وكان لهم حقهم بدرجات متباينة على العلم والعلماء.

❊ ❊ ❊

الكتاب الذي بين يدي القارئ الكريم كان في الاصل مقدمةً وجدتُها ضرورية بعد تصحيحٍ نقديٍّ لكتاب «المظاهر الالهية»، وهو من الكتب القيمة لصدرالمتألهين. وحينما شرعت بكتابتها لم أكن أحسب أنها ستمتد الى كل هذه التفاصيل أو أن تصبح تاريخاً للفلسفة. كان في نيتي تدوين خلاصة تاريخية حول ظهور الفلسفة وتطوراتها، من أجل أن تتبيّن للقارئ منزلة الحكمة المتعالية وقيمتها وكمالها، بيد أن القلم تمرد على صاحبه، وأعان مشعلُ الهدي الالهي والنفس القدسية لصدر الحكماء والمتألهين، فأضحت تلك المقدمة القصيرة في هذا الحجم، وظهرت الآن تلبيةً لرجاء محبّي الحكمة في صورة كتاب مستقل. وبذا إن كان فيه حسن وخير فهو من فيض الإله وفضله، وإنْ اشتمل على قصور أو نقص فهو من عندي.

والحمدلله والسلام عليكم ورحمة الله

❊ ❊ ❊

الحكمَة وَالفلسَفة

يمكن القول ان الفلسفة (والتي تسمى الحكمة ايضاً) هي ذاتها المعرفة البشرية بالاشياء. وقد ورد في كل تعاريف الفلسفة أو الحكمة عنصر «العلم بأعيان الموجودات» أو «المعرفة بالموجود» رغم انها تختلف في العناصر الاخرى. ذلك ان الفلسفة والحكمة ليست سوى نفاذ الفكر الانساني لمعرفة عالم الوجود، وما الفرق هنا الّا بين عمق الرؤى. فواحد يريد بها أعيان الموجودات «على ما هي عليه في نفس الأمر بقدر الطاقة البشرية»، وآخر يعتبرها «معرفة وجود الحق تعالى» ويتحرى الاشياء والاعيان الاخرى ـ وهي ظلال وجود الحق ـ في ظل الذات الالهية وصفاتها.

وفي رؤية ارقى، لاتعد الفلسفة والحكمة مجرد معرفة بالله الحق المتعال أو الوجود أو موجودات هذا العالم، بل هي «كمال ثانٍ» للفيلسوف متمم للكمال الطبيعي. انها كماله الروحي والفكري الناجم عن المعرفة بحقائق الموجودات، والذي يشيد في داخله نظاماً يشبه نظام الخلقة، ويقيم «عالماً صغيراً» في داخل «العالم الكبير» يجاريه ويصاحبه ويتناغم معه على مسرح الوجود. لهذا، يجوز القول ان تعريف الفلسفة وكباقي قضايا العالم الانساني، مغلّف بالغموض والالغاز، ولكل فرد أن ينعتها بشيء حسب ظنونه وتصوراته.

يستخدم صدرالمتألهين كلمة الحكمة بدل الفلسفة، ويعرفها بأنها «معرفة ذات الحق الاول ومرتبة وجوده ومعرفة صفاته وافعاله وانها كيف صدرت منه الموجودات في البدو والعود».[١] ومنه تتأتى معرفة كيفية الوجود وصدور الموجودات الاخرى عنه، على انه أورد تعريف الحكمة والفلسفة في مؤلفاته الاخرى على نحو مختلف، فهو يعرفها في موضع من المواضع بأنها: «استكمال النفس الانسانية بمعرفة حقائق الموجودات على ما هي عليها والحكم بوجودها تحقيقاً بالبراهين... بقدر الوسع الانساني»[٢] وفي موضع آخر: «نظم العالم نظاماً عقلياً على حسب الطاقة البشرية يحصل التشبه بالبارى تعالى»،[٣] وفي موضع آخر يراها «العلم الالهي» ليس الّا، والذي لايتطرق الّا لمعرفة أصل الوجود أو «الموجود المطلق» وعوارضه الذاتية.[٤]

وكما لاحظنا فإن مفردتي الفلسفة والحكمة تستخدمان تسامحاً كمترادفتين لهما نفس المعنى، وصدرالمتألهين بدوره يستخدم كلمة الفلسفة احياناً، وكلمة الحكمة في احيان اخرى. ولكن بالتدبر والتدقيق يمكن ملاحظة بعض الفوارق بينهما. لفظ «الفلسفة» مصدر مصطنع، أو اسم مشتق من الكلمة اليونانية «فيلوسوفيا» بمعنى محب الحكمة، و«الحكمة» في اللغة العربية بمعنى الاتقان في العمل والعصمة من الانحراف، وهي اصطلاحاً علم خاص ـ الفلسفة ـ يُجنِّب الانسان ظلمة الجهل والضلال

---

١) المظاهر الالهية. ٢) الاسفار الاربعة، ج ١، ص ٢٠.

٣) م س.

٤) م س، ص ٢٤، وتعريف الفلسفة يختلف ايضاً بين الاشراقيين والمشائين، حكماء الاشراق اعتبروها انطباق العالم الصغير على العالم الكبير: «صيرورة الانسان عالَماً عقلياً مضاهياً للعالم العيني» وينقل عن فيثاغورس قوله ان الفيلسوف الذي يتأمل في الكوسموس (Cosmos) يغدو كوسموساً في روحه. واحياناً عرفوا الحكمة بأنها التشبه بالله. (راجع: تاريخ الفلسفة اليونانية، غاتري، ج ٢، ص ١١٨، بالفارسية).

والانحراف.[١]

بحسب هذه الرؤية، تشتمل الحكمة على عنصري العلم والعمل (أو التصور والسلوك)، العلم مطلوب من أجل العمل والحياة الانسانية، والعمل مطلوب لتنقية القلب والروح والتعرف على الذات والعالم والخالق بصورة أفضل.

وحيث ان الاتقان والرصانة كامنان في الحكمة، لايصح اطلاق الفلسفة على أية فكرة أو معرفة عابرة، أو أي تصور ورؤية مهزوزة لا أساس لها، أو تسمية أي سلوك ملئ بالاخطاء والاخطار أنه سلوك حكيم، وهذا هو الفرق بين مفردتي الحكمة والفلسفة. بناء على هذا، نرجح نحن ايضاً كلمة الحكمة على الفلسفة، ونعتقد أن الايرانيين في العهود القديمة كانوا يطلقون على هذا العلم تسمية معادلة للفظ الحكمة، وهي التي ترجمت الى اليونانية لاحقاً فكانت «سوفيا».[٢]

منبت الحكمة

ثمة مجموعتان من المصادر لمعرفة الجذور التاريخية للحكمة ـ أو تاريخ الفلسفة ـ اولاً: المصادر الدينية كالكتب السماوية وأقوال عظماء الدين والحكمة. وثانياً: التواريخ المعروفة ومعطيات علم الآثار والمصادر العلمية الاخرى.

اذا استثنينا بعض الكتابات المتعصبة التي دونت في العالم الغربي خلال القرنين أو الثلاثة الماضية، وحاولت تكريس الفكرة القائلة أن الفلسفة ولدت في اليونان، وتصوير تلك الحادثة على أنها انبثاق معجز أو حتى معجزة تاريخية، فإن كافة الوثائق

---

١) للاطلاع على تعاريف الحكمة، انظر: الاسفار الاربعة، ج٣، ص ٥١٤؛ ج ٤، ص ١١٦.

٢) ربما كان اسمها الفارسي «جاويدان خرد» [العقل الخالد] أو ما شاكل، بيد أن شيخ الاشراق يسميها «الخميرة الازلية» وصدرالمتألهين «الشعلة الملكوتية» والمراد بها الحكمة الايرانية القديمة.

المعتبرة ونصف المعتبرة تدل على أن الحكمة والفلسفة، حتى بمعناها العام (الذي يشمل كل العلوم الرئيسة كالرياضيات والنجوم والطب والعلوم الطبيعية) لها ماض قديم جداً، وجذور عميقة في التاريخ الانساني.

تحدثنا الكتب السماوية والاديان والادبيات الدينية أن الحكمة والعلوم والصناعات، نقلت للبشر على ايدي الانبياء ضمن حدود الحاجات الانسانية آنذاك. وتفيد الروايات الدينية ان المعلم الاول هو آدم واحفاده، كإدريس وغيره، وما هرمس الذي يسمى رائد الفلسفة واباها الّا النبي ادريس ذاته.

يصور القرآن الكريم ابا البشر آدم تلميذاً تعلم درس «الاسماء» من المعلم الاول الخالق المتعال جل وعلا. والآية الكريمة «وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة...»[1] تصرح ان آدم تعلم من ربه في مستهل الخلقة رموز المعرفة الاصلية أو مفتاح العلم والحكمة (أو شيئاً على درجة عالية جداً من الاهمية والخطر)، ولعلمه هذا تفوق وساد على الملائكة، وخرج مرفوع الرأس من الاختبار.

هذه حقيقة كانت معروفة دائماً بين الحكماء والعلماء والمؤرخين المسلمين، وقد دون البعض كتباً لاثباتها، منهم ابوحاتم الرازي في كتابه «أعلام النبوة». يقول شيخ الاشراق حول هذا في مقدمة كتابه «حكمة الاشراق»:

> ولا تظن ان الحكمة في هذه المدة القريبة كانت، لاغير؛ بل العالم ما خلا قط من الحكمة وعن شخص قائم بها عنده الحجج والبينات، وهو خليفة الله في أرضه، وهكذا يكون، ما دامت السماوات والارض. والاختلاف بين متقدمي الحكماء ومتأخريهم انما هو في الالفاظ واختلاف عاداتهم

---

۱) سورة البقرة، الآية ۳۱.

في التصريح والتعريض... .[١]

ويقول مؤرخ مشهور في هذا الصدد ايضاً:

اختلف علماء الامم في أول من تكلم في الحكمة واركانها من الرياضة والمنطق والطبيعي والالهي؛ وكل فرقة ذكرت الاول عندها، وليس ذلك هو الاول في الحقيقة. ولما أمعن الناظرون النظر، رأوا أن ذلك كان «نبوة» انزلت على ادريس، وكل الاوائل المذكورة عند العالم نوّعاهم من قول تلاميذه، أو تلاميذ تلاميذه... .[٢]

تأييداً لهذا المنحى واجتناباً للاطالة، نكتفي بهذا القول لصدرالمتألهين:

اعلم ان الحكمة نشأت اولاً من آدم صفي الله، وعن ذريته شيث وهرمس ـ أعني ادريس ـ وعن نوح، لأن العالَم ما خلا قط عن شخص يقوم به علم التوحيد والمعاد، وأن هرمس الاعظم هو الذي نشرها في الاقاليم والبلاد، واظهرها وافاضها على العباد، وهو ابو الحكماء، وعلّامة العلماء، اشركنا الله في صالح دعائه. وأما الروم ويونان، فلم يكن الحكمة فيهم قديمة، وانما كانت علومهم اولاً الخطب والرسائل والنجوم والاشعار... .[٣]

ويقول في موضع آخر:

واما الروم ويونان، فلم يكن الحكمة فيهم قديمة... حتى بعث ابراهيم عليه السلام وعلّمهم علم التوحيد. وذكر في التاريخ ان اول من تفلسف منهم [اي

---

١) حكمة الاشراق، شهاب الدين السهروردي، ص ١١، تصحيح هنري كوربان.

٢) تاريخ الحكماء، القفطي، ص ١.

٣) رسالة في الحدوث، الملاصدرا، ص ١٥٣.

اليونانيين] ثالس الملطي ولهم سميت الفلسفة [فلسفة]؛ وكان قد تفلسف بمصر وقدم الى ملطية وهو شيخ كبير نشر حكمته ... و كان بعده انكساغورس الملطي وانكسيمانس الملطي، ثم نشأ بعد هؤلاء انباذقلس وفيثاغورس وسقراط وافلاطن.

فإن اولئك الاساطين من اعاظم الحكماء الاولين، المقتبسين أنوار علومهم من مشكاة نبوة الانبياء الماضين وأهل السفارة الالهيين كهرمس ـ المسمى بـ «والد الحكماء» ـ وثالس وانكسيمانس وآغاثاذيمون وانباذقلس وفيثاغورس وسقراط... .[۱]

وبهذا فالحكمة ولدت مع البشر، وعمرها يمتد الى عمر الانسانية. والنقطة المهمة هي ان تعريف الانسان غير منفصل عن تعريف الحكمة. فالانسان لايستطيع ولا ينبغي أن يعيش بدون الحكمة.

* * *

المجموعة الثانية من مصادر الفلسفة القديمة وتاريخها، هي كتب التاريخ والوثائق العلمية والاثرية. ويمكن توزيع هذه المصادر الى فئتين: الاولى التواريخ التي دونت قبل المسيح او بعده بقرون، نظير هيرودوت، واكسينوفون، وثوقيديدس و... والثانية كتب الغربيين المعاصرين او القريبين من هذا القرن التي دونوها في تاريخ الفلسفة أو تاريخ الفلاسفة.

الوثائق القديمة، وحتى كتابات بعض الباحثين الغربيين المعاصرين المتحررين من عقدهم واغراضهم السلبية، تتحدث كلها بانصاف عن الحقائق التاريخية، وتثبت انه

---

۱) م س، ص ۱۵۳ ـ ۱۵٤.

قبل ظهور شيء في اليونان اسمه الفلسفة والعلوم الاخرى، كان ثمة في المشرق (ايران وبابل) ومصر ولبنان (فينيقية) وحتى جزيرة صقلية وكريت، حضارات تشع بالانوار، وتزدهر فيها الفلسفة والعلوم الاخرى كالنجوم والرياضيات والفيزياء.

ولكن هناك ايضاً جماعة من مؤرخي الفلسفة والعلوم، يحاول كل منهم ان يمسخ حقائق التاريخ بنحو من الانحاء، ليؤكد ان العالم قضى حقباً طويلة في ظلمات الجهل ومستنقعات التوحش الى ان وقعت المعجزة، فظهر في رقعة من الارض هي اليونان (أو قل اوربا) عدد من النوابغ غيّروا وجه العالم تغييراً كلياً، وارسوا لاول مرة مرتكزات الفلسفة والعلوم الاخرى وشيدوا صرحاً عظيماً للحكمة والعلم، واهدوا الحضارة للانسانية.

لهذا كله، نرى من المناسب أن نخصص جزءاً من دراستنا واطلالتنا هنا لهذه الظاهرة في كتابة التاريخ، ونتطرق لمشاريع الذين يغضّون الطرف عن حقائق التاريخ ليرجّحوا إملاءات أمزجتهم ونزعاتهم النفسية على حقائق العالم ووقائعه.

وكما ذكرنا، فإن هؤلاء ورغم كل معطيات الوثائق التاريخية الغزيرة، يصرون على ان منبت الحكمة والعلوم كلها هو اليونان، وان اليونان غير مدين لشعب أو حضارة اخرى بما انتجه. ويقولون في معرض الاجابة عن الإشكال «كيف يمكن ان يحدث هذا الانفجار المفاجئ للعلم والحكمة بكل هذه السعة والعمق في مدينة اثينا أو بلاد اليونان الصغيرة وبين عدد قليل من الناس؟» ان النبوغ والمواهب المميزة لليونانيين هي التي اثمرت كل هذا؟

هذه التصورات، وهذه الطريقة في تدوين التاريخ، التي يمكن اعتبارها حركة مسخ للتاريخ، انطلقت غالباً من العالم الغربي في غضون القرن الاخير. فالسياسات الاستعمارية والاستثمارية لبعض الدول الغربية وتواجدها في الشرق الاقصى والادنى

والاوسط، حينما عرفت الغربيين بحضارات وثقافات قديمة وعميقة كايران والهند والصين ومصر وبابل، ولمّا كان الاعتراف بهذه الحضارات القديمة من قبل الشعوب الحديثة على التحضر، بمعنى الهزيمة في مضمار الثقافة والحضارة، لذا تنكروا لكتابات واقوال المؤرخين الاوربيين القدماء وبعض المستشرقين والباحثين المتحررين من العصبيات. ولكن، حيث ان انكار تلك الحضارات الشرقية القديمة لم يكن بالامر اليسير، حاولوا اثبات ان اليونان مهد كل الحضارات الشرقية، فالكل ورثة الفلاسفة والعلماء اليونانيين في الحكمة والعلوم.

يسجل احد هؤلاء المؤرخين في كتاب له حول فلسفة اليونان:

> في عهد ازدهار المدنية في الاسكندرية... ذاعت بين الناس فكرة أن الشرق هو أساس الفلسفة اليونانية. وقد عبر نومينيوس (القرن الثاني المسيحي) أحد رواد الحكمة الافلاطونية المحدثة عن تلك الفكرة بالقول ان افلاطون هو موسى اليوناني اللسان.
>
> ولم يتقبل مؤرخو العهود الحديثة هذه الفكرة، وقلائل فقط نظير غلاديش (Gladisch) وروث (Roth) وافقوا فكرة الاصل الشرقي للفلسفة اليونانية... على أن هذه الفكرة نسخت كلياً. من كانت لهم حكمة كما كانت لليونانيين حكمتهم، هم أهل الهند فقط (...) ويمكن الاعتقاد ان فلسفة الهند نابعة من الحكمة اليونانية.

عامداً أو غير عامد، لم يذكر المؤلف هاهنا ايران وبابل ومصر لعدم اطلاعه على التاريخ. بل ونراه يستهين بأصل فلسفتهم وهي «الحكمة المشرقية» فيقول:

> عموماً، متى ما حاول الفكر الشرقي أن يعبر عن حقيقة العالم، يلجأ الى الاساطير و(...) وقد حدث في اليونان لاول مرة أن أعرضت شخصيات

كبرى عن أسلوب التفكير الدارج، وحوّلوا المراكز الدينية الى مدارس ومعاهد لطلب العلم.

هنا يمكن السؤال: هل كانت معرفة الله لدى اليونان متأثرة بمعرفة الله في الشرق أم لا؟ يعتقد غلاديش ان الالهيات اليونانية تأثرت بمعطيات العالم الشرقي منذ البداية، وعن هذا الطريق تأثرت الفلسفة اليونانية ايضاً بالعالم الشرقي. غير ان هذه الفكرة نسخت اليوم هي الاخرى.

أما الفكرة السائدة حالياً فهي ان الفكر اليوناني مستقل تماماً عن الفكر الشرقي، وهو اساساً من صناعة اذهان اهل تلك البلاد. وقد استقى غمبرتس خلاصة هذه الفكرة من كتاب لباحث بريطاني وهي «إن مفخرة اكتشاف مبدأ الرقي والتقدم، كانت من نصيب قوم قليلي العدد هم اليونانيون. وباستثناء قوى الطبيعة غير الواعية، لاتجدون شيئاً في العالم لم ينبثق عن اليونان» (!)

يضيف هذا الكاتب:

مع اننا نوافق هذه العقيدة تماماً، لكننا نخال في الوقت ذاته انه يمكن التعبير عنها بحزم أقل، وذلك خلافاً لآراء بعض المؤرخين. فمن دون ان نريد التشكيك في اصالة الفكر اليوناني وعمقه، او نحاول ترتيب علاقات تأثير وتأثر بينه وبين مدارس فلسفية معينة، نرانا مضطرين للاعتراف بحقيقة ان الفكر الشرقي ترك تأثيرات عامة على الفلسفة اليونانية. ولايضاح تأثيرات الشرق على اليونان باختصار، نكتفي بذكر النقاط التالية:

كان اليونانيون يرون انفسهم مدينين للشرق، وكانوا واعين لهذا المعنى،

وكلما تحدثوا عن علوم الشرق وحضارتهم، ذكروها باحترام وتقدير.
ولندع جانباً حقبة الحضارة الاسكندرانية، لأننا نتوفر في هذا المجال على وثائق ترجع للحقبة التى سبقتها، ورأي هيرودوت معروف في هذا الشأن. فقد كان يرى ان الديانة والحضارة في بلاد اليونان وفدت عليها من أرض مصر. يروي افلاطون في رسالته المشهورة الى تيماوس مقولة كاهن مصري خاطب الحكيم اليوناني سولون (Solon) بمايلي: (لستم ايها اليونانيون اكثر من اطفال). ويقول ارسطو ان العلوم الرياضية ظهرت في مصر (...).
كذلك يعتقد اليونانيون ان طالس وفيثاغورس تعلما الرياضيات من المصريين. فهذا ما ذكره أودموس (Eudemos) عن طالس، وايسوقراط (Isocrate) عن فيثاغورس بكل صراحة. وكان لديمقريطس (Democritus) علم جم كثير، وقد قال معاصروه انه سافر الى الهند وباقي مناطق العالم فاكتسب كل هذه الكمالات العلمية من هناك.[١]

بعد ذلك الانكار، وهذا الاعتراف، يكتب هذا المؤرخ الحائر:

من الثابت ان الفلسفة اليونانية نشأت في المناطق الشرقية من هذه البلاد، في سواحل آسيا الصغرى أو مستوطنات ناحية يونيا (ايونيا Ionia)... (...) مهد الفلسفة هو مدينة مالطه (Malt)... وحينما هجم الايرانيون على اليونان تغيرت ساحة الفلسفة وانتقلت الى الغرب فاستقرت في نواحي جنوب ايطاليا وصقلية...

---

١) حكمة اليونان، شارل وارنر، ص ٥ ـ ٦ (بالفارسية).

انطلق فيثاغورس من كروتونا (ايطاليا) واكسانوفان من إيليا (Elee) وانبادوقليس (Empedoclus) من صقلية...

ويذكر ايضاً أن ليوسيبوس (Leucippus) مؤسس المدرسة الذرية كان من مالطه، وانكساغوراس (Anaxagoras) من كلازوميني، وذيوجانس (...) من اهالي ابولونيا (جزيرة كريت) وديمقريطس من تركيا، وحتى ارسطو كان من مقدونيا. ثم يقول في موضع آخر:

اول ثمرة لاختلاط النبوغ اليوناني بالنبوغ الشرقي يمكن ان نطالعه في اسم فيثاغورس الرفيع. فنظرية فيثاغورس حول الروح لها بصماتها الشرقية. فهي نظرية تضرب بجذورها في الديانة الاورفية (Orphisme) وهي ليست بالديانة اليونانية المحضة.

وقد جاء في التواريخ ان فيثاغورس سافر الى مصر وبابل واتصل هناك برجال الدين الايرانيين (موبدان) وخلفاء زرادشت...

ولو لم ينهل الفكر اليوناني من معين الحكمة الشرقية، لما ترعرعت ونمت فلسفة فيثاغورس واول المدارس الفلسفية اليونانية بكل هذه العظمة والازدهار.[١]

وبعد شيء من الحيرة والاضطراب، يصل هذا المؤرخ في اختياره بين الحقائق التاريخية أو العصبيات الاقليمية، الى حد وسط، ويخرج بالنتيجة التالية:

الآن وقد سلّمنا للتأثير العام الذي تركه الشرق في الفكر اليوناني، ينبغي الاعتراف بأن الفكر اليوناني اضاف عنصراً جديداً واساسياً للفكر

---

١) م س، ص ٥ ـ ٧.

الشرقي كان من ابداع الدماغ اليوناني حصرياً... .[١]

وسنبيّن في ثنايا دراستنا ان اليونان (بالمعنى الخاص للكلمة) لم يمد يد العون للحكمة وسائر العلوم ولم يضف اليها شيئاً، وليس هذا وحسب، بل يتسنى القول انه هبط بها عن مدارجها السابقة وابعدها عن اصولها. ومع ان هذا القول قد يبدو جد مدهش وغريب بالنسبة للبعض، الا انه حقيقة تاريخية ظلت خافية وراء استار العصبيات العرقية والاقليمية لقرون طويلة من الزمن.

وثمة نماذج اخرى لمثل هذه الاحكام التاريخية العاجّة بالاخطاء، نكتفي بواحد منها، إذ يكتب احد مؤلفي تاريخ الفلسفة في مطلع كتابه:

> ما من شيء على امتداد التاريخ اكثر إدهاشاً واصعب تفسيراً من الظهور المفاجئ للحضارة في اليونان. الكثير من العوامل الصانعة للحضارة، كانت قائمة في مصر وما بين النهرين قبل آلاف السنين من ظهور الحضارة اليونانية، وقد انتقلت من تلك المناطق الى النواحي المجاورة، ولكن كان لابد من عناصر خاصة حتى تظهر «الحضارة» [!] واخيراً ملأ اليونانيون هذه الفجوة... فقد ولدت الرياضيات والعلوم والفلسفة من رحم اليونان... .[٢]

لأجل ان لانتهم هؤلاء المرموقين بالتحيّز والعصبية الاقليمية، يتوجب القول انهم بادروا لكتابة تاريخ الفلسفة من دون تمحيص دقيق، بل اعتماداً على ماتعلموه في مدارسهم الابتدائية. ومن الغريب جداً بالنسبة لباحث مطلع تقريباً على تاريخ الشرق

---

١) م س.

٢) تاريخ الفلسفة الغربية، برتراند راسل، ص ٢٧ (بالفارسية)

(الذي يعده الغربيون انفسهم «مهد الحضارة» احياناً) وعلى الحضارة الواسعة الباهرة لايران في عهد الميديين وخصوصاً الاخمينيين، وكذلك على حضارات بابل والهند ومصر، أن نسمع منه قوله بعدم وجود حضارة سبقت اليونان.

مثل هذه الاحكام الكاذبة ـ والتي يجترها على غير هدى حتى الباحثون الشرقيون احياناً ـ لاتصمد لمواجهة الوثائق التاريخية المعتبرة المتوفرة، ولا تنال من الباحثين سوى الرفض والانكار. ولحسن الحظ فإن الوثائق التاريخية الاثرية المكتشفة مؤخراً، والتي تقع احياناً في ايدي العلماء والباحثين الغربيين، تكشف بجلاء عن منابت الحضارة والثقافة والفلسفة والعلوم.

يسجل احد الباحثين الغربيين في كتاب له بعنوان «الديانة الايرانية طبقاً للنصوص اليونانية القديمة» مانصه:

يقول اسطرابون Strabo (٦٤ ق م ـ ٢١ م): «الايرانيون اشهر واعظم الاجانب من وجهة نظر اليونانيين». وحينما لاينبهر اليونانيون (لضرورات سياسية) بالقدرات والقوة الايرانية، فإنهم لايعدمون الدوافع الحسنة الاخرى التي تفرض عليهم نظرة ايجابية لأرض ايران.

لقد كانت ايران ـ سواء من حيث اصالتها الثقافية أو الشكل الخاص لحكومتها، أو من حيث عظمة بلاطها وماضيها الملحمي الكامن في عدة دول وسلالات، أو من حيث المنهج الخاص للتعليم (مغان) ومن حيث سائر جوانبها وابعادها الحضارية ـ بؤرةً للعجائب والغرائب بالنسبة لليونانيين الذين لم يجدوا نظيراً لها في اي بلد شرقي آخر.

ومع هذا، لم تكن المظاهر المادية للحضارة الايرانية وحدها هي التي شغفت قلوب اليونانيين، فقد انتقلت من ايران الى اليونان تيارات فكرية

وعلمية حافلة بالاسرار، ولم يكن للاذهان والعقول اليونانية حيالها من محيص سوى التأثر والاستلهام...

لقد استهوت الاديان الايرانية نفوس اليونانيين دوماً، ما حداهم الى اهتمام اكبر بهذه الاديان التي كان بوسعهم مشاهدة مراسيمها بسهولة في آسيا الصغرى. وقد انتقلت مشاهدات اليونانيين بعد ذلك الى الرومان.[١]

ويقول غيمن في هذا الباب:

سرعان ما ابدى اليونانيون ميلهم لأن يطرحوا انفسهم كخلفاء لحكماء الشرق. ولا مراء ان ثمة تطابقات كبيرة بين الافكار الايرانية واليونانية. وحتى لو أسقطنا من الحساب العهد الهيليني أو زمن النزعة اليونانية الذي ظهرت فيه الافكار «الغنوصية»، فيمكن رصد نماذج للثنوية وعبادة الزمان وتقسيم تاريخ العالم الى دورات محددة، وفكرة «روح العالم»، واعتبار النار علامة للقوانين الكونية، ووجود نماذج الاشياء قبل ظهورها الى الوجود.... .

كيف يمكن تفسير هذه التشابهات؟ يختلف العلماء في تفسيرها اختلافاً كبيراً.

فريق منهم نظير آيزلر (Eisler) يشددون على التأثيرات الايرانية، ويعتبرون ايران المعين الذي اغترفت منه اليونان الفلسفة والاورفية. ويأتي رايتزنشتاين (Reitzenstein) الذي يرى افلاطون مديناً لزرادشت، ليؤكد رؤية آيزلر ويؤازرها.

---

١) الديانة الايرانية طبقاً للنصوص اليونانية القديمة، اميل بنونيست، ص ٧ ـ ٨.

وقد استرعت نظر بيده (Bedez) و ييغر (Yaeger) العلاقة التاريخية بين ال(مغان)[١] وأكاديمية افلاطون، فأشارا الى أن فلاسفة اليونان متأثرون بالافكار الايرانية.

ويقول كونفورد (Conford): «سواء وافقنا فرضية النفوذ المباشر لايران في الفكر اليوناني خلال القرن السادس قبل الميلاد، أم لم نوافقها، فما من باحث في الافكار الاورفية والفيثاغورية بمستطاعه غضّ الطرف عن مواطن الشبه العديدة بينهما، وأن لايعتبرهما مظاهر وتجليات لرؤية كونية واحدة، أثّرت إحداهما في الاخرى.

وينبغي التذكير بأن ارسطو هو الآخر كان يرى وجود اواصر بين ثنوية المغان وفلسفة افلاطون.[٢]

ورغم عصبيته الاقليمية ضد الشرق، الا انه يشير في موضع آخر من كتابه نقلاً عن مختصين في الايرانيات والاوستا والكتب الدينية القديمة، الى الشبه الكبير بين الرؤية الكونية الزرادشتية في كتاب «بُندَهِش» والمدرسة الفيثاغورية التحريفية (أو الاورفية) وعبادة الزمان (أو زروان)، وهو مايثبت التأثر اليوناني الشديد بالحكمة والدين في ايران، ثم يقول:

لكننا حيال اشكالية كان غوتز جديراً باثارتها، وهي التناظر الفكري بين الوثائق اليونانية وماجاء في «بندهش»...

ذهب اولرود الى ان «علم الكون الاورفي» تمت استعارته من ايران،

---

١) رجال الدين الايرانيون القدماء.

٢) زرادشت والعالم الغربي، غيمان، ص ١١٩ ـ ١٢١.

وتحدث ايضاً عن احتمال استلهام ديانة «ديونيزوس» للافكار الشرقية...

احتل «خرونوس» أو الزمان، مكانة إلهية مشهودة في الاورفية. ومن النقاط التي يمكن ان تذكّر بالتأثيرات الايرانية هي معادل زروان الايراني وترجمته. وقد عدوا افكار هيراقليطس ـ القائمة على اساس صراع دائم بين ضدين في العالم ـ مستقاةً من مصادر ايرانية. ولهذا يستعرض استلا (Stella) شذرات من افكار هذا الفيلسوف اليوناني لها صبغة ايرانية.

ومنها على سبيل المثال الاستهزاء بفكرة آلهة في صورة انسان، أو سفك الدماء في الطقوس الدينية.[١] وقد نقل عن كتاب بعنوان «هيراقليطس» وضعه لاسال، أن هيراقليطس سافر الى ايران وتعلم الفلسفة عند المغان، واستقى نظريته المشهورة التي يعتبر فيها النار بداية خلق الاشياء، من مزديسنا ومدرسة المغان.

كما روي عن المؤرخ اليوناني الشهير في العصر القديم پلوتارخُس ان عدداً من اليونانيين كانوا يعيشون خلال القرنين السادس والخامس قبل الميلاد في ايران ومصر وبابل والصين بهدف حيازة الفلسفة وغيرها من العلوم. واشير تحديداً الى سفر طالس المالطي الى مصر، وفيثاغورس الى ايران ومصر، وديمقريطس الى بابل.[٢]

ويقول عالم الايرانيات أميل بنونيست في هذا الصدد:

---

١) م س، ص ١٢٩ ـ ١٣٤.

٢) تاريخ ايران، كمبردج، ج ١، ص ١٥٤.

ثمة بين الروايات اليونانية، نصوص عديدة تدل على القدم الغابر للديانة الزروانية. ومن ذلك قول بروسوس (القرن الرابع الميلادى): يسمون المؤمنين الزروانيين مغوسوس (Maguseaus المجوس) احياناً، وقد توافدوا على آسيا الصغرى وازداد عددهم فيها. وقد كان اليونانيون منذ القدم ينسبون ديانة «زمان اكران» (الزروانية) الى زرادشت والمغان.[١]

ويكتب اميل بريبه استاذ تاريخ الفلسفة في فرنسا نقلاً عن المؤرخ اليوناني القديم ديوجينس:

تحدث ديوجينس اللايرتي (Diogene Laerce) في كتابه عن ماضي الفلسفة لدى الايرانيين والمصريين... و يبدو أن المستشرقين راحوا تدريجياً يكشفون النقاب عن حضارات ما قبل العهد الهيليني، كحضارات ما بين النهرين ومصر، التي كانت ايونيا وهي مهد الفلسفة اليونانية على صلة بها، ويؤازرون النظرة الثانية (اي ان اليونانيين ورثوا الفلسفة عن غير اليونانيين)... .

فمثلاً لايمكن تجاهل الشبه بين النظرية المشهورة لطالس المالطي ـ أول فلاسفة اليونان ـ التي يعتبر فيها الماء أصل كل الاشياء، وبين نشيد الخلق الذي نظم قبل ذلك بقرون في بلاد ما بين النهرين (...)، كما يتسنى القول أن فلسفة علماء الطبيعة الايونيين الاوائل إنْ هي الّا صورة جديدة لافكار [ايرانية] قديمة.

وقد توصلت احدث الابحاث حول تاريخ الرياضيات الى نتائج مماثلة

---

١) الديانة الايرانية، اميل بنونيست، ص ٦٩ ـ ٧٠ و ١٠٧.

لما ذكرناه. فقد صرح ميلو (Milhaud) في عام ۱۹۱۰ بهذا الرأي: «إن نتاجات الشرقيين والمصريين في الرياضيات من الاهمية والغزارة الى درجة لم نكن نتصورها الى ما قبل عشر سنوات».[١] قليلاً ما بادر اليونانيون الى الكشف والابداع، بل صبوا جل طاقتهم على ايضاح الآراء المتداولة وترجيح بعضها على بعض.

ويضيف في موضع آخر: «نشر المالطيون في بلاد اليونان ما انتقل اليهم عن حضارات ما بين النهرين ومصر[٢]... وفي عام ٤٩٤ حينما هدمت مالطه وزال المنحى المالطي، انتقلت الحاضرة العلمية من ايطاليا الجنوبية الى صقلية».[٣]

ويكتب باحث آخر:

> حذا فيثاغورس وامبادوقليس وفيثاغورس المتأخر حذو زرادشت في تحريم قتل الانعام والاغنام. وبذلك فقد ظهرت في ايران واليونان نزعات دينية متشابهة في زمن واحد تقريباً (سنة ٥٠٠ قبل الميلاد)... الاحتكام الى النار الذي نادى به هيراقليطس ذو جذور ايرانية (...) فالنار العاقلة العادلة من المفاهيم الرئيسة في الزرادشتية (...) وعلى ذلك، ينبغي افتراض ان الفكرة الايرانية القائلة بتحكيم النار قد هاجرت قبل نهاية القرن السادس ق.م الى بابل، وتسربت من هناك (...) الى اليونان.[٤]

---

١) تاريخ الفلسفة، اميل بربيه، ج ١، ص ٣ ـ ٤.

٢) م س، ص ٥٩.

٣) م س، ص ٦١.

٤) الاستنباط الآخر هو انها انتقلت من جهة الى بابل والامم المجاورة، وهاجرت من جهة ثانية الى اليونان عن طريق شخصيات نظير فيثاغورس.

وتحدثنا الروايات اليونانية آنذاك (القرن السادس ق.م) عن سياحة رجل الى مصر وبابل، اصبح بعد ذلك زعيماً دينياً وعلماً من اعلام العقلاء في اليونان وجنوب ايطاليا، هو فيثاغورس.

واذا كان فيثاغورس قد لعب دور الوسيط في نقل الافكار من الشرق الى الغرب، جاز لنا ان نتحرى بصمات هذه الافكار في تعاليمه وآرائه. انه تطلّعٌ تحقق فعلاً لثلاث مرات على الاقل.[1]

والانتشار المفاجىء لعلم النجوم والهيئة في اليونان الى جانب الرياضيات، وكما يصرح الباحثون الغربيون، يعد احدى القرائن الدالة على انتقاله من ايران والشرق الى تلك البلاد.

ومن هؤلاء الباحثين غيمن (في كتاب زرادشت...) حيث يقول:

ظهرت نظرية الاجرام السبعة بشكل مفاجىء في اليونان... ربما جاءت بها مدرسة كنيدوس (Cnidus) ورجالها الذين تواصلوا مع ايران عن طريق الاطباء اليونانيين العاملين في البلاط الاخميني.

ويرى ميلز (Mills) ان الثنوية المزدكية أثّرت ايضاً في ديالكتيك هيغل عن طريق غنوصيين من قبيل يعقوب بوهمه وفيخته. والواقع أن «بور» يبرهن في أحد أعماله على ان المثالية الالمانية، ولاسيما لدى هيغل، كانت في زمانه كالظاهرة الغنوصية في الازمان الغابرة.[2]

البعض أشار بنحو مباشر الى تأثير المغان الايرانيين في اليونان، ومنهم اميل

---

١) ظهور علم النجوم، واندر وردن، ص ١٩١ ـ ١٩٣.

٢) زرادشت والعالم الغربي، غيمان، ص ١٢٥ و ١٥٨.

بنونيست الذي يقول:

اليونانيون (...) وحسب ماتعلموه من المغان، قسموا السنة الكونية الى اثني عشر ألف سنة تتوزع الى دورتين في كل واحدة ستة آلاف سنة، وتتحدد الدورة الاولى بظهور زرادشت. ومن اجل أن يعتبر تلامذة افلاطون استاذهم مجدّد الدورة الثانية ورأسها جعلوا الزمن بين افلاطون وزرادشت ستة آلاف سنة.[١]

احدى تصورات الاورفية ـ الفيثاغورية الايمان بالمعاد وعودة الاشياء بعد حدوث انفجار كوني (القيامة) حيث يتجدد الخلق. يؤكد ثيوپومپوس (Theopompus) في المجلد الثامن من كتابه (Philipics) ان تعاليم المغان كانت هكذا هي الاخرى (...) لقد ترك زرادشت شخصياً وتعاليم المغان عموماً، تأثيراً حقيقياً على الافكار اليونانية (...) وفي ازمنة لاحقة كان التصور اليوناني حول «العصور الازلية» يشي باحتكاك روحي قديم مع المعتقدات الايرانية... .[٢]

ويكتب المؤرخ الروسي دياكونوف بشأن علاقة افلاطون بالمغان الزرادشتيين:

يبدو ان افلاطون كان اول يوناني يهتم اهتماماً جاداً بتعاليم المغان ـ المجوسيين.[٣]

باحث آخر في تاريخ ظهور علم الفلك، يقول حول مرتكزات اليونانيين في تحديد بداية السنة وصورة «الحمل» الفلكية، واستخدام نقطة الاعتدال الطبيعية الربيعية (وهو اسلوب ايراني):

---

١) الدين الايراني، اميل بنونيست، ص ١١.

٢) م س، ص ٩ و ١١١.

٣) تاريخ الميديين، دياكونوف، ص ٣٤٦.

يدل هذا ان الفلك انتقل من ايران وبابل (الى اليونان ولكن) لاشك ان الاعتدال الربيعي هو ذاته النوروز الايراني وبداية السنة الجديدة الحالية التي كانت مشهودة لقرون طويلة في الثقافة والفلسفة الايرانية.[١]

* * *

وقد لخص غريشمان حصيلة كل هذه الاعترافات والعشرات من امثالها (والتي تلاحظ في كتب اليونانيين القدماء والباحثين المعاصرين في الغرب) في ثلاثة سطور حيث قال:

كانت ايران ـ كما شاهدنا ـ جادةً الى نهضة الشعوب وانتقال الافكار من عهود ما قبل التاريخ فما بعد. وقد حافظت على هذا الواقع المهم كوسيط بين الشرق والغرب لأكثر من ألف عام.[٢]

من اسباب ارتباط اليونان بالشعوب المجاورة وحتى ايران وبابل، هو الحركة الطبيعية للثقافات، وتحرك الناس الى اطراف العالم، وسوف يمر بنا القول ان الناس لم تكن تعيش في مجتمعات مغلقة حتى في الازمنة الغابرة، إذ كانت الثقافة الاضعف تتجه دوماً صوب الثقافة الاقوى والارقى، وكانت القوة والعظمة السياسية تكرس هذا التحرك الطبيعي.

الواقع ان فتوحات الاخمينيين ـ من امثال كورش (الذي يعد نفسه ذوالقرنين المذكور في القرآن) وداريوش وخشايار ـ وفتح اراضي اليونان وجزر البحر الابيض المتوسط مثل مالطه وصقليه وايونان (ايونيا) والاقتراب من اثينا ـ التي كانت قطب الشرك والجاهلية الغربية وعبادة آلهة متعددة تفرضها الاساطير الاوربية ـ وفتحها

---

١) ظهور علم النجوم، واندر وردن.

٢) غريشمان، ايران من البداية الى الاسلام، ص ٣٨.

والقضاء على معابد الاوثان والاكروبولس، استطاع فضلاً عن نشر العلوم والحكمة والفلسفة والحضارة الشرقية الزاهرة والثقافة الايرانية المتقدمة وتصديرها الى القارة الاوربية آنذاك، أن يفتح الطريق لعلاقات متبادلة بين شعوب تلك القارة والايرانيين، ما جعل ايران مركزاً للعلاقات الثقافية والتجارية بين الشعوب المختلفة.

كان بمستطاع الشعوب التواصل بسهولة عن طريق بيزنطة وسورية ومصر، مع الهند و حتى مع الصين، فتتصل الهند والصين بايلام وبابل وفنيقية (سورية ولبنان). وربما لهذا السبب اطلق اليونانيون على عاصمة ايران اسم (اكباتان) أو (هگمتانه)[1] بالفارسي والتي تعني تقاطع الطرق أو مفترق الطرق أو المحل العام لاجتماع الناس، وتسمىٰ هذه المدينة اليوم همدان، أي (همه‌دان) [العالِم بكل شيء] يقول رادا كريشنا:

اكباتان تعني تقاطع الطرق، ذلك ان همدان كانت محل التقاء طريقي الشرق و الغرب، والذي ربط بين الافكار الفلسفية في الشرق والغرب.[2]

كتب بعض المؤرخين اليونانيين ان الملك الاخميني كمبوجيه حينما فتح مصراً في سنة ٥٢٥ ق م، جاء معه فيثاغورس الى بابل فانتهل من علوم الرياضيات والموسيقى واسرار الطبيعة وعاد الى ساموس.

كان السفر الى الشرق والى ايران تقليداً شائعاً بين الطلاب والعلماء والفلاسفة، وحتى التجار والسياح، وكل من ينشد العلم والحكمة، فقد كان مضطراً لمثل هذه الاسفار. الاثينيون وسكان المناطق المحيطة باثينا كانوا يتوجهون اولاً الى جزر كريت ومالطه وسائر الجزر المتوسطية، ثم الى مصر وفنيقية وسورية، وبعد ذلك الى بابل التي كانت وسيطاً بين ايران والمناطق الغربية، وكانوا يدخلون ايران احياناً عن طريق الجزر

---

١) تاريخ الميديين، دياكونوف،ص ٢٥٤.

٢) تاريخ الفلسفة الشرقية والغربية، رادا كريشنا، ج ٢، ص ٥٤. قصة الحضارة، ويل ديورانت، ج ١، ص ١٤١.

الايونية وآسيا الصغرى وسواحل بحر مازندران (المعروف بغاسبيان او بحر قزوين)، وما دفع فيثاغورس وطالس وآخرين الى التوجه نحو مصر اولاً هو انها كانت الطريق المألوف الذي تمر به القوافل.

ربما تصور البعض ان الشعوب والحضارات القديمة كانت تعيش داخل مجتمعات مغلقة، وكان لكل منها حضارة منفصلة بعيدة عن باقي الشعوب والمجتمعات والحضارات. الا ان هذا تصور غيرصحيح ولا يطابق الوثائق والادلة التاريخية، فالتاريخ يشير الى ان الشعوب والحضارات القديمة وبمقتضى الطبيعة البشرية، كانت تعيش كما هي اليوم نوعاً من الترابط والعلاقة، لهذا كانت العلوم والفنون والصناعات، وكذلك العقائد والديانات والحضارة، تنتقل دائماً من الشعب ذي الثقافة والحضارة الارقى والاقوى الى سائر الشعوب المجاورة والدانية والقاصية، وتهاجر من مجتمع الى آخر فتؤثر في الثقافات والحضارات الاضعف.

وقد لاحظنا ان من الاسباب والعوامل القهرية لهذه العلاقات، هي الحروب والفتوحات التي قادها الملوك، وكانت تكتنف في ثناياها بشكل طبيعي تلاقحاً بين الحضارات، فتتأثر الحضارة الادنى من الحضارة الارقى بحكم القوانين الطبيعية والاجتماعية، واحياناً قد تترك الاولى دينها ولغتها وثقافتها لصالح دين الثانية ولغتها وثقافتها، سواء كانت غالبة في الحرب أو مغلوبة.

العامل المؤثر الثاني ـ الذي كان يعمل احياناً بموازاة التحولات السياسية والعسكرية ـ هو التحرك والمساعي الطبيعية وتبادلات التجار ورجال الاعمال من الشعوب المختلفة فيما بينهم، الامر الذي يستتبع تلاقحاً بين الحضارات والثقافات عن طريق بيع البضائع والاعمال اليدوية والفنون والصناعات، وحتى العلوم واللغة والدين. وثمة عوامل اخرى ساهمت في هذا التمازج والتبادل الثقافي منها السياح والرحالة وكذلك المرتزقة العسكريون (الجنود والمقاتلون المرتزقة) واسرى الحروب والعبيد

احياناً.

يقول احد علماء الحضارة في هذا الصدد:

ثمة مناطق مختلفة من آسيا الغربية قديماً كانت على اتصال دائم، وكانت التجارة تتم في الشرق بنفس الطريقة التي كانت قائمة قبل اربعين سنة تقريباً (...) انعدام الامن في الطرق آنذاك لم يكن أشد منه في القرونِ المتأخرة... واكتشاف مخازن المراكز التجارية المهمة ـ سواء في كبدوكيا أو في آشور الشرقية وبابل ـ يدل على حجم التبادل في الشرق الادنى خلال العصور القديمة.[١]

وهو يعدد انواع التجارة والمؤسسات الواسعة والرساميل التجارية ـ المؤسسات التي كانت تضطلع بمهمات مصرفية وضمانات تجارية واعطاء قروض وادارة القوافل، وتسهِّل التجارة وتداول الرساميل ـ ثم يقول ان الحوالات والمعاملات المالية والمصرفية وعمليات الصيرفة كانت شائعة بينهم في الالف الثاني قبل الميلاد أي قبل نحو اربعة آلاف سنة.

يضيف هذا الباحث تتمةً لكلامه:

من هذه الزاوية، يبدو أن آسيا القديمة ـ التي شاع عنها منذ أمد انها خاملة تعاني من الجمود ـ لم تكن قبل هذا منفصلةً. فحينما تبدأ الحياة، تنطلق في ساحة واسعة. ولايمكن لجزء واحد ـ يتمتع بمنجزات الحضارة ـ أن يحتكرها لزمن طويل. فالفلز حينما يكتشف، سيكون هذا الاكتشاف مشاعاً للجميع، وكذلك الحال بالنسبة للخط والعمارة و... وبهذا لايتسنى انكار ان بلاد ما بين النهرين (...) يجب ان تكون الرائدة

---

١) الحضارةالقديمة (في الشرق الادنى)، جورج كنتنو، ص ٨٤ ـ ٨٥ (بالفارسية).

والموجّهة... .[١]

نظراً لهذه الميزة وهي التلاقح الحتمي بين الحضارات والثقافات، فاننا حينما نطل على التاريخ قبل زهاء ٥٠٠ عام من ولادة المسيح، حيث استطاعت الامبراطورية المقتدرة الكبرى لكورش الكبير وخلفائه أن تستولي بقوتها العسكرية على العالم المتحضر آنذاك ـ اي الهند وآسيا الشرقية من جانب، وبابل ومصر وسورية وبيزنطة (تركيا الحالية) من جانب آخر، وكذلك من مياه الخليج الفارسي حتى بحر ايجه وجزر البلقان وجزر البحر الابيض وموانئه، وأن توحد معظم الشعوب آنذاك تحت راية واحدة، وتحقق الوحدة السياسية والامن والاستقرار الذي قال عنه هذا الباحث نفسه: أن مثل هذا الأمن لم يتحقق في العالم قبل هذا ولا بعده، وأفضى الى تطوير كبير للاعمال والتجارة، حينما نطلُّ على كل هذا نلفي أن رحلة الثقافة والعلوم والفلسفة والدين من نقطة معينة الى نقاط اخرى في العالم، كانت ظاهرة جد عادية وطبيعية.[٢]

يكتب هذا الباحث ان الملوك الايرانيين عملوا على مد الطرق بين كافة اقاليم امبراطوريتهم وبلدانها، وكان يطلق على الواحد من هذه الطرق اسم «شاهراه» أي الطريق الذي اقامه الشاه. وهذا ماجعل كافة المستعمرات الاوربية والشرقية لايران

---

١) م س، ص ٩٠.

٢) راجع ايضاً «تاريخ آسيا» لرينيه غروسيه، ص ٤٠ (بالفارسية): «حينما استولى الايرانيون الاخمينيون (٥٢٩ ـ ٣٣٠ ق م) وحدوا آسيا الشرقية تحت راية واحدة. فكما لوحظ، كانت ايران وبلاد ما بين النهرين، وآسيا الصغرى، وسورية ومصر تشكل امبراطورية واحدة كبيرة يُدعى كافه اتباعها رغم اختلاف عناصرهم ودياناتهم بالايرانيين، حيث كانوا يتعاونون جميعاً فيما بينهم بسلام» «مثل هذا الاستقرار الذي ساد الشرق القديم ـ من نهر السند حتى البسفور، ومن سرداريا حتى مصر ـ لم يشهد له التاريخ مثيلاً على امتداده، وحتى اخفاقات داريوش وابنه لم تضعضع هذا الاستقرار» ص ٢٣، ص ٤٠ «تاريخ آسيا».

تتصل مع بعضها، الأمر الذي يسهل من جهة عمليات زحف الجيوش وسفر الرسل والمكلفين الحكوميين، ويذلل من جهة اخرى صعوبات التجارة واسفار القوافل، ويوفر لهم الأمن.[1]

وكان من ثمرات هذه الوسائل والتسهيلات المتطورة في السفر والتنقل، قيام علاقات ايجابية ومتواصلة بين شعوب آسيا وآسيا الصغرى مع سواحل المتوسط وبحر ايجه وايطاليا واليونان، حيث انتقلت العناصر الثقافية والعلمية والدينية المتطورة للآريين الايرانيين الى كل العالم يومذاك، وهذا ما سنأتي على شرحه في صفحات تالية.

تشي دراسات الباحثين الغربيين خلال القرن الاخير ـ اولئك الذين قاربوا حقائق التاريخ بمنأىً عن العصبيات القومية والعنصرية ـ ان العلوم بما في ذلك الفلسفة والحضارة المتقدمة، لم تفد على ايران من انحاء اخرى، انما كانت ايران (او الشرق كما يعبر البعض) هي التي اهدت هذه المنجزات الحضارية الى شعوب اخرى في سالف الايام. وحتى مصر والصين وبابل القديمة ـ وهي بلدان ذات سوابق قديمة في التحضر ـ استلهمت كل أو بعض هذه المنجزات من الجيران، ويعتقد البعض انهم اقتبسوها من المنطقة التي تعتبر ايران القديمة.

يقول مؤلف كتاب «الحضارات القديمة» حول مصر:

> يتصور البعض ان الحضارة المصرية ـ وهي جديرة بالاكبار والاجلال على غرار ما تستحقه حضارة الشرق الاوسط ـ هي الاقدم. ونحن اليوم نعلم ان الأمر ليس كذلك، ولو اعطي هذا الأمر حقه من التدقيق لبدا من المسلمات... توصلنا عن طريق التنقيبات الى التعرف على حقبة ترجع

---

١) الحضارات القديمة، جورج كنتنو، ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

الى الالف الرابع قبل الميلاد، وقد كانت مصر وآسيا آنذاك مشتركتين الى حد ما في حضارة واحدة... كانت فنون المنطقتين طوال هذه الفترة متشابة الى حد مذهل (...) وكانت التطورات في الاقليمين تتحقق بنحو متواز... ففي بعض المناطق، من سورية الى شرق ايران ،ومن سورية الشمالية حتى شمال ايران، كانت ثمة عناصر تشابه عائلي بين بعض المنتجات على امتداد عدة اطوار تاريخية... التنقيبات التي اجريت في سيستان وبلوشستان وفي الشمال الغربي للسند، عرفتنا على ارض لايمكن الاختلاف حول علاقاتها مع الشرق الادنى وخصوصاً جنوب ما بين النهرين. لقد عثر في كل مكان من سيستان وبلوشستان (ايران الاصلية) على قطع سيراميكية تدل على حضارة ممتدة كبرى... ان حضارة الغرب مدينة بشكل كبير لحضارات الشرق القديمة، واكثر بلاريب مما هي مدينة للحضارة المصرية، ذلك ان الثقافة المصرية لم يكن لها من تأثير او نفوذ في الغرب الى ما قبل تأثير الاسكندر في الغرب... .[1]

وكنتيجة للوشائج بين هذه الحضارة التي كانت قائمة في ايران الشرقية مع بابل وما بين النهرين في غرب ايران، يخلص هذا الباحث الى أن أياً من هاتين لم تأخذ الحضارة والصناعة عن الاخرى، انما اخذت كلاهما التحضر عن شعب يسميه هو «الجد» أو «الأم» بالنسبة لهما، ونعلم اليوم انه لايوجد غير ايران القديمة مصداقاً يتسع لهذا الأمكان والاحتمال بنحو مقبول، ويُصدِّر المكتسبات الحضارية الى الصين والهند شرقاً، والى بلاد ما بين النهرين ومصر وسورية وآسيا الصغرى غرباً وشمالاً.

---

١) الحضارات القديمة، كنتنو، ص ٨٦، ٨٨، ١٣٢.

ومما يدل على هذه الرؤية ايضاً القرابة الملحوظة بين اللغة الفارسية القديمة واللغة السنسكريتية، وكذلك بين الخطين المسماريين الايراني والبابلي.

ويخلص هذا الباحث من مقارنة اخرى بين القطع السيراميكية في شوش والصين، وكذلك من الشبه بين قبور العهد الفرعوني الثاني عشر في مصر وما يوجد في تخت جمشيد (أو پرسپوليس) وألواحها المحفورة، الى عمق وسعة هذه القرابة والشبه الثقافي بين ايران والشعوب المجاورة. وكل هذه دراسات وابحاث يمكن ان تؤثر في تصوراتنا التاريخية بشأن مركزية الحكمة والعلوم في ايران.

باحث ايراني عالج هذه العلاقات الثقافية بين الشعوب المعروفة آنذاك من زاوية اخرى، واثبت المركزية الايرانية ثقافياً وحضارياً وحكمياً، يقول في هذا الصدد:

> بسبب فتح سردينية ـ عاصمة ليديا ـ على يد كورش الكبير عام ٥٤٦ أو ٥٤٧ قبل الميلاد، فقد استولى هذا الملك على الجزء الغربي من آسيا الصغرى ـ الذي كان يسكنه اليونانيون ـ وبعد ذلك صار يونانيو تلك المناطق تابعين لايران، وتوثقت تدريجياً علاقات الايرانيين بشتى الاقوام اليونانية. الحروب التي نشبت بين ايران واليونان وعرفت في التاريخ باسم الحروب الميدية (Mediques) وذلك على عهد داريوش الكبير (٥٢١ ـ ٤٨٦ ق م) وابنه خشايارشا (٤٨٦ ـ ٤٦٦ ق م) ضاعفت من معارف هذين الشعبين ببعضهما في المجالات القومية والدينية.[١]

والواقع ان حسن صيت ايران في بلاد اليونان والمناطق الحضارية القريبة منها حتى اراضي مصر، لم يكن بسبب فتوحات كورش واخلافه فحسب، رغم ما كان لهؤلاء الملوك واجهزتهم وجيوشهم الجبارة من تأثير في هذا المجال، انما كانت ايران

---

١) مجموعة بحوث، محمد معين، ١/٤٧.

منذ القرن السادس قبل الميلاد على الأقل، معروفةً لدى المناطق الغربية من آسيا الصغرى التي تعد اليونان جزءاً صغيراً منها، بل لقد كانت ايران كعبة آمال طلاب العلم والتجار وحتى الجنود اليونانيين الذين طمحوا الى احراز الثروة والجاه والنفوذ عن طريق الانخراط في الجيوش الايرانية.

يقول هذا الباحث:

> ترددُ السياحِ اليونانيين، وقبول بعضهم الخدمة في البلاط الاخميني نظير ديموكدوس (طبيب داريوش الاول) وكتسياس (طبيب اردشير الثاني) ولجوء بعض الشخصيات اليونانية المشهورة مثل القائد المشهور تميستوكلس الى البلاط الايراني في زمان «اردشير درازدست» واستخدام المقاتلين اليونانيين من قبل الملوك الايرانيين، مضافاً الى الاسفار الحربية كرحلة ثلاثة عشر ألف يوناني عام ٤٠١ ق م لمساعدة كورش الثاني حيث عادوا بعد مقتله بزعامة اكسينوفون، ووجود مؤرخين من قبيل هيرودوت، وثوقيديدس، واكسينوفون، ودينون، وپوليبيوس، وديودورس، وپلوتارخُس وسواهم ممن عرّفوا ايران لأبناء وطنهم... أوجب كل هذا استكمال العلاقات بنحو جعل الكثير من الاعراف والتقاليد الايرانية تتغلغل داخل نسيج المجتمع اليوناني.[1]

من جملة ذلك حكمة المغان المتوغلة في الفلسفة الفيثاغورية والمقتبسة من حكمة «مزديسنا».[2] كما اغترف افلاطون وارسطو بدورهما من فلسفة المغان، ومن ذلك أن المثل الافلاطونية تعيد الى الذهن «الفروهرات» في عقيدة «مزديسنا». أضف

---

١) كان الاسكندر يرتدي ثياب الملوك الايرانيين، وكان قادة جيشه يلتزمون الاعراف الايرانية.

2. Porphyrius Vhita pytagorae 12,14.

الى ذلك أن حكماء الاسكندرية مثل فيلون وافلوطين وفورفوريوس انتهلوا هم ايضاً من عقيدة المغان».[١]

ويقول احد الباحثين الهنود وهو (كريشنا) في هذا الباب:

> اول لقاء بين الشرق والغرب كان في زمن كورش عام ٦٠٠ ق م الذي فتح جزيرة ايونيا، وقد احتك اليونانيون منذ زمن طالس بالمشرق. يقول نومينيوس (Numenius) من اهالي آپاميا: قام فيثاغورس وافلاطون بتعريف اليونانيين حكمة المغان الايرانيين القديمة، وكذلك حكمة البراهميين الهنود التي انتقلت الى ايران [؟].[٢]

اعتبر البعض أن المثل الافلاطونية مستقاة من «الفروهر» او «الفروشي»، ذلك أن الفروشي كانت في الفلسفة الايرانية القديمة حقائق لاهوتية يعد العالم المادي ظلالاً لها، وهي حقيقة ازلية وابدية خالدة تمثل الغاية من حركة البشر التكاملية نحو السعادة، الا ان حالات قصور النظر والنزعات العامية لاحقاً جعلت من هذه الحقيقة المجردة المحضة، ملاكاً أو روحاً للانسان في بعض الاحيان.

أورد المؤرخ اليونانيالمعروف پلوتارخُس في كتابه، وهو الاقرب الى الحقيقة والابعد عن المركزية الاوربية مقارنة بكتب الاوربيين خلال القرنين المنصرمين، مانصه:

> توجه فريق من الفلاسفة اليونانيين الى ارض المشرق لاكتساب العلم، ومنهم ثاليس [طالس] المالطي الذي قصد مصراً، وفيثاغورس الذي سافر الى مصر وايران، وديمقريطس الذي هاجر الى بابل.

---

١) مزديسنا وتأثيره في الادب الفارسي، د. محمد معين، ص ١٤٧.

٢) تاريخ فلسفة الشرق والغرب، كريشنا، ج ١، ص ٣.

وقد وضع لاسال كتاباً بعنوان «هيراقليطس» ذكر فيه رحلته الى ايران واقتباسه من معارف المغان الايرانيين فقال: «هيراقليطس الذي يعد النار مبدأ الاشياء، استلهم هذه الفكرة من مزديسنا».

لم تقتصر المركزية الايرانية على العهد الاخميني، انما تمتعت ايران بمركزية العلم والحكمة والفنون حتى في العصر الميدي. يقول المؤرخ المشهور دياكونوف المختص بالعصر الميدي (Madi) في ايران: «علينا التنبه الى هذه النقطة الدقيقة وهي أن اقليم الميديين كان في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد مركزاً تنتشر منه المفاهيم الدينية والفلسفية».[١]

ثم يذكر وجود بعض المفردات والمفاهيم الفارسية الميدية حول السلام والسعادة والقَسَم والقوى السحرية والشجاعة والنصر (وهي في كلمات من قبيل فرن، وأرد، وأخسر ومشتقاتها) والتي تلاحظ لدى الجيران القدماء للايرانيين اي الآشوريين أو السُّكَّيت (على ساحل البحر الاسود)، ويقول: «اذن، فقد كانت ارض الميديين في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد مركزاً لاشاعة انشطة معينة في ميادين الثقافة والدين».

ويسجل بخصوص الروابط الثقافية والدينية بين ايران واليونان:

> تفطن ارسطو وباقي تلامذة افلاطون (ويبدو انه كان اول يوناني يعكف بجد على تعاليم المغان أو المجوسيين) الى اهمية تعاليم المغان، وربما كان كتسياس ايضاً قد ذكر زرادشت. في الروايات القديمة أن تعاليم فيثاغورس منتهلة من زرادشت، الا ان هذا القول غير صحيح يقيناً.[٢]

---

١) تاريخ الميديين، دياكونوف، ص ٢٤٥.

٢) يقصد وجود فاصل زمني بين زرادشت النبي وفيثاغورس، وليس التنكر لعلاقة فيثاغورس بايران.

مؤرخ مشهور آخر هو ويل ديورانت، كتب يقول:

لقد مضىٰ لا أقل من ستة آلاف عام، كان الشرق الادنى في نصف هذه المدة ـ في حدود ماعلمنا به ـ مركزاً للانشطة والشؤون الانسانية (...)، كانت هناك العديد من الثقافات، والزراعة، والتجارة، والصناعات، والرياضيات، والطب، والهندسة، والنجوم، والتقويم، والساعة، ومنطقة البروج، والابجدية، والخط، والورق، والحبر، والكتب، والمكتبات والمدارس (...) والتوحيد (...) والكثير من الامور الاخرى التي تظهر لاول مرة وتنمو وتتطور، وكانت ثقافتنا الاوربية والامريكية على مر القرون مستلهمة من ثقافة الشرق الادنى عن طريق جزيرة كريت واليونان وروما.

ويكتب في موضع آخر:

لايعد اليونانيون بناة صرح الحضارة (...) فاليونان في الحقيقة اشبه بوريث استولى بغير حق على كنوز ثلاثة آلاف سنة من العلم والفنون التي انتقلت اليه من مشارق الارض مع غنائم الحرب والتجارة. وبدارسة المكانة التاريخية للشرق الادنى والاقرار له بالاحترام، نكون قد وفينا ديوننا لمؤسسي الحضارة الاوربية والامريكية الحقيقيين.[1]

مع ان هذا لم يكن الاّ جانباً يسيراً من الحقيقة التاريخية على هذا الصعيد، الا انه في كل الاحوال يدل على تقدم الشرق قياساً الى اليونان، وكما لاحظنا فإن الشرق الادنى بدوره مدين لايران وبابل في تطوره الحضاري.

❊ ❊ ❊

١) قصة الحضارة، ويل ديورانت، ج ١، ص ١٤١.

الباب الأوّل

مَسار الفلسفة قبل الإسلام



والآن، ينبغي ان نرى كيف انتقلت هذه الحضارة الواسعة المدهشة، وتلك الفلسفة والعلوم من المشرق الى الغرب وبلاد اليونان. الحضارة والاعراف الحياتية والتقاليد السائدة يمكن ان تنتقل عن طريق المقاتلين والتجار والناس العاديين وبواسطتهم، بيد ان الحكمة والفلسفة والعلوم الغامضة والمعقدة مما لايتسنى نقله على ايدي هذا الصنف من الناس الى اقاليم اخرى، فهذه مهمة لايضطلع بها الا العلماء والحكماء والمثقفون.

في هذا المضمار، يتألق أسما شخصين جد معروفين من العالم الغربي، احدهما ثاليس (طالس) المالطي، والثاني فيثاغورس من أهل ساموس. فقد نقل هذان الفيلسوفان الحكمة الايرانية والشرقية الى الغرب. الّا اننا قبل هذا لابد ان نتطرق لنقطة تاريخية على جانب كبير من الاهمية، وهي البنية والتركيبة الاجتماعية لهذه الثقافة والحكمة والعلوم في ذلك العصر، والاشخاص الذين كانوا يسهرون على حمايتها.

في مجموعة الآثار المتبقية عن الفترة التي سبقت القرن السابع قبل الميلاد، والدراسات التي انجزها المؤرخون والباحثون في تاريخ المشرق القديم، نلاحظ اسماء ايران وبابل ومصر اكثر من غيرها من الاسماء، بيد أن ذيوع اسم المغان ـ وهم ايرانيون

كانوا في الواقع حراساً واساتذة للحكمة والعلوم الاخرى كالرياضيات والنجوم والطب والعلوم الطبيعية والفيزياء ـ كان أشد وأوضح من أي شيء آخر. ولهذا يمكن اعتبار ايران القديمة مهداً للحكمة والعلم، والمغان اول اساتذتها في العالم. وهذه حقيقة لاتتعارض مع حقائق تاريخية اخرى بشأن وجود حضارات قديمة في الصين والهند وبابل وفينيقية ومصر.

وبالتالي فإن معرفة وضع الحكمة والفلسفة والعلوم في العالم القديم، و«مهدها» على حد تعبير ويل ديورانت، تقود دوماً الى دراسة المغان أي الحكماء الايرانيين، ونحن بدورنا سنخصص لهم فصلاً من فصول هذا الكتاب.

* * *

١ ـ ١. المغان

ان دراسة اوضاع و احوال الحضارة البشرية القديمة ـ وليس تاريخ الحضارة والثقافة في ايران فقط، بل حتى تاريخ الحضارة والثقافة في العالم القديم، وكذلك تاريخ الفلسفة والعلوم ـ غير متاح ولا هو ممكن أو ذوطابع علميمن دون التعرف على الدور المهم والمؤثر للمغان.[١]

مهما كان هؤلاء المغان وأياً كانوا، فقد ظلوا لعدة قرون في المشرق (وبعبارة ادق في الارض التي تسمى ايران أي أرض الآريين) حراس العلوم والفلسفة واساتذتها والمروجين لها. اي ان ما نسميه اليوم فلسفة واخلاقاً ورياضيات ونجوماً وطباً وعلوماً

---

١) جمع «مُغ» أو «مَغ» (mâg - mûg) وقد عرب احياناً الى موق وموقان.

طبيعية مثل الفيزياء والكيمياء والميكانيك، وقد كان من الدارج في العصور الماضية ان نعتبر كل هذه العلوم فروعاً للحكمة، كانت تدرس بنحو منتظم وممنهج بين المغان، وتشهد عندهم تطوراتها وتطبيقاتها.

وان مزيداً من الدراسة لتاريخ هذه الجماعة ـ التي يعتبرها معظم المؤرخين جماعة احادية العنصر ـ من قبل المؤرخين والباحثين سيوضح مستقبلاً كيف برزت هذه الظاهرة المدهشة طوال قرون في احدى مناطق آسيا، وما هي الخدمات التي قدمتها هذه الجماعة للعلم والفلسفة ولتقدم الحضارة الانسانية، وكيف كان وجه العالم اليوم والوضع الحالي للعلوم والصناعات لولم تكن هذه الفئة العجيبة المنظمة طوال القرون الماضية، ولو لم تصدِّر العلوم والصناعات للعالم المتحضر ونصف المتحضر آنذاك بما فيه بلاد اليونان؟

ورغم ما قلنا، يبقى من العجيب ان لايوفي التاريخ حقوق هذه الطبقة العظيمة من العلماء والحكماء ذوي الاسهام في تاريخ الحضارة الانسانية، حتى أنه لم يستطع أو لم يشأ أن يمسح عنهم غبار الغفلة والنسيان والغموض. ربما كان من أدق المصادر لمعرفة هذه الجماعة، التاريخ الذي كتب عن السلالة الميدية في ايران،[١] والذي اعتبرهم احدى ست طوائف شكلت بمجموعها الشعب الميدي، حيث كانوا يتولون حسب التقسيمات الطبقية الاجتماعية آنذاك (والتي استمرت حتى بعد ذلك) دور رجال الدين ومباشرة المهام العلمية والدينية، ويعملون مع ملوك الدولة في شؤون العلاقات والوساطات والطبابة والتنجيم والقضاء والتربية والتعليم وما الى ذلك.

---

١) تاريخ الميديين، دياكونوف (Diakonv) ص ٣٤٦ فما بعد.

اما مواطن الشبه العديدة بين المغان الايرانيين وابناء عنصرهم الهنود أي البراهميين، ففيها شهادة على أن ماضيهم أقدم من ذلك. وكما ان لهم قواسم مشتركة اخرى مع البراهميين كالعنصر الآري الواحد، والجذور المشتركة بين لغتهم واللغة السنسكريتية،[١] وكونهم طبقة مميزة كالبراهميين الهندوس،[٢] على شكل فئات وطبقات هندية تحتكر العلوم والحكمة والخط والكتابة، وكذلك من المحتمل أن تكون لهاتين الجماعتين سابقة تاريخية مشتركة، وعلومهم وحكمتهم ودينهم (الهندوسية والديانة ماقبل الزرادشتية) النابع من دين سماوي حقيقي آري قديم جداً.

مع ان هذه النظرية مقبولة عموماً، الا ان من العسير اثباتها في الظروف الحالية وبالوثائق المتوفرة. لذلك يتسنى بحث ودراسة الماضي الناصع لهذه الطائفة منذ ثلاثة آلاف سنة (ألف عام قبل الميلاد) وبنحو غير منفصل عن الميديين (في شمال غربي ايران وحتى المناطق الجنوبية).

---

١) الآريون الهندوربيون كان لهم قبل ٢٤٠٠ سنة قبل الميلاد لغة مشتركة (ايران القديمة ١٥٤/١) لاتزال بعض الكلمات مشتركة بين شُعَب العنصر الآري، وربما كان منها كلمة «مَن» أو «مان» التي تستخدم في الفارسية الحالية كضمير للمتكلم (أنا) وفي اللغات الجرمانية والتوتانية (كالانجليزية والالمانية و...) على شكل man أو mann بمعنى الانسان ومشتقات اخرى مثل maner و human mental... أو كلمات مثل «مادر» و «برادر» وغيرها والتي توازيها كلمات في الهندوسية مثل «برهمن، آتمن، شمن» مشتقة من نفس الجذور.

٢) «في ٢٨٠٠ حتى ٢٥٠٠ قبل الميلاد قامت في شرق ايران حضارة ارتبطت بالعالم السومري عن طريق سيستان وشوش. وفي ١٣٠٠ قبل الميلاد هاجرت جماعة من العنصر الايراني الى الشمال الغربى من ايران. السنسكريتية قريبة جداً من لغة الايرانيين القديمة (...) وطبقة رجال الدين البراهميين كانوا أعلى من سائر الطبقات شأنهم شأن المغان» (تاريخ آسيا، رينيه غروسيه، ص ٢٦).

من المصادر القديمة التي ذكرت المغان هو هيرودوت أو هيرودوتوس (Herodotus) الذي اعتبرهم كهنة ومتنبئين، وقد فسروا رؤيا آستپاك ابن هوخشتره.[١] ويري دياكونوف: «الظاهر ان الجميع في اليونان كانوا يعلمون على عهده أن المغان ـ أو المجوسيين ـ هم كهنة الميديين، وهذه الحقيقة كانت أوضح من أن يضيف هيرودوت شيئاً عليها لقرّائه آنذاك».

يكتب هذا المؤرخ حول هيرودوت:

> انه لم يعتبر المغان طائفة أو طبقة أو جماعة مهنية، انما عدهم قبيلة من الميديين. وفي حدود معرفتي لم يلتفت أحد لحد الآن الى ان كلمة المغان لم تكن تعني في لوح داريوش الاول اصحاب مهنة او طبقة من الناس، انما هم قوم أو قبيلة... .
>
> أورد هيرودوت ان المغان قبيلة لهم معتقدات ومراسم دينية خاصة، وكان الفرس والميديون يختارون كهنتهم من بين افراد هذه القبيلة. ومن المحتمل ان تكون ارض قبيلة المغان في ناحية «رغي» أو الري وهي من المدن المهمة للميديين.[٢]

اطلق على المغان احياناً اسم «أث روان». وقد وردت هذه المفردة في الاوستا بدل كلمة مغان، من هنا ذهب فريق الى أن هؤلاء كانوا مجموعتين.[٣] رئيس الكهنة او المغان كان يسمى «مسه مغان» والذي سماه المسلمون «مسمغان» أو «مصمغان».

---

١) تاريخ هيرودوت، ص ٨٣.

٢) تاريخ الميديين، دياكونوف، ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧.

٣) م س، ص ٣٤٧، اعتبرهم عالم الايرانيات الالماني هرتل فئتين متنافستين.

يستشف ان المغان كانوا لردح طويل من الزمن على الدين الزرواني المحرف ذي الطابع الشركي، وكان من شأن ظهور زرادشت وعقيدة التوحيد أن وجهتهم صوب الديانة الحسنة (بهديني) وبقي التوحيد شائعاً بينهم الى فترات طويلة بعد ذلك، رغم ان فصائل منهم انحرفوا عنه تدريجياً فيما بعد، فأضافوا آلهة اخرى مثل مهر (الشمس) والزهرة الى أهورمزدا، واختلقوا التثليث الايراني التاريخي المعروف[١] الذي انتقل بعد ذلك الى المسيحية.

بيد ان المقطوع به تاريخياً هو أن كلمة مغان أو أثروان كانت مرادفة دائماً لرجال الدين والكهنة الزرادشتيين، ويعتقد دياكونوف: «المغان، او بعبارة ادق كهنة (أثروان) قبيلة المغان، ادخلو تعاليمال «غاته»ـات الى البلاط الميدي الذي اضفى الطابع الرسمي على هذه العقيدة».[٢]

واحتفظ المغان باحترامهم ومكانتهم في الزمن الاخميني ايضاً،[٣] وتولى بعضهم مناصب في البلاط ومهمات وساطة للملوك، ولكن من المناسب ان نُسلِّم لرؤية فحواها هي أنه بالرغم من ان مقام رجال الدين أو الكهانة وحيازة الحكمة والعلوم والكتابة

---

١) يبدو ان التثليث الايراني القديم لم يكن ذا طابع شركي، انما كان له مفهوم فلسفي كان مقبولاً بعد ذلك بعنوان «الله ـ العقل ـ النفس» وطبقاً لتراتبية تنازلية وعلية، عند افلوطين وفي الفلسفة الاسلامية، غير ان العوام ورجال الدين السطحيين اعتبروا هذه الاقانيم عرضية ومستقلة وجسدوا لها مظاهر كالشمس والقمر والزهرة (عشتار ـ ايستار ـ فينوس) وراحوا يعبدونها، واعادت المسيحية صياغتها بشكل آخر.

٢) م س، ص ٣٦١.

٣) يبدو ان كورش ايضاً شأنه شأن العديد من الامراء والاكابر، تربى في صغره على ايدي المغان، وكما كتب نيكولاوس فقد تعلم العدالة والاخلاق الحسنة من المغان، وكان هو نفسه مغاً بكل معنى الكلمة وحكيماً وعالماً.

والخط والتعليم كانت محصورة بطائفة المغان، الا اننا يجب ان لانعتبرهم جميعاً من موظفي البلاط أو اصحاب المناصب في البلاد. لذلك يمكن القول ان عدداً منهم أو اغلبهم كانوا من أهل الرياضة والزهد والعزلة وتدريس العلوم النظرية والعملية، وقد كانوا ذوي اريحية واصحاب مراقبة وكشوف[1] ولم يتلوثوا بالشؤون الحكومية.

الحكمة النظرية والعملية التي انبثقت بعد ذلك بين الاشراقيين اليونانيين (افلاطون وسقراط) والافلاطونيين الجدد في الاسكندرية (اتباع افلوطين) يظهر انها كانت برمتها تركة من تركات المغان. من هنا يعد المغان في تاريخ الفلسفة اكبر حكماء الحكمة الاشراقية، وقد اطلق عليهم لاحقاً اسم الحكماء الخسروانيين أو «الخسروانيون» و «الفهلويون».

مع اتساع رقعة الدولة الاخمينية (والدول اللاحقة) اتسع ايضاً نفوذ المغان حتى وصل الى آسيا الصغرى. و«طبقاً لرواية اسطرابون: كان المغان كثيري العدد في ارض كاپادوسيه، وكانت مدينة زلا (Zela)[2] مليئة بهم. وكانوا يسمونهم «آذر مؤبدان» أي

---

١) تاريخ الميديين، دياكونوف، ص ٣٤٧: «... كان الفرس والميديون يختارون كهنتهم من بين افراد تلك القبيلة...».

٢) «الدين الايراني» بنونيست، ص ٥٢ ـ ٥٣. كاپادوسيه (Cappodocia) في شمال غرب ايران. وفي كتاب «اصول ادارة المدن في ايران» يقول المؤلف صاموئيل ادي في ص ١١١ من الترجمة الفارسية: «بعد قرن من اختتام الدورة الهيلينية ذكر بليني اسمه اكبر الاراضي التي سكنها المغان بالترتيب التالي: پارس، عربستان، اثيوبيا، ومصر». ويمكن بناءً على المصدر اليوناني اضافة سورية الجنوبية (البقاع) وبابل، وكبدوكيا، وكل اناضوليا الغربية، وافسوس، والفانيتن في مصر... و لوديا، ودمشق، وفروغيا، وبين النهرين الشمالي (العراق). وتدل معلوماتنا تحقيقاً ان المغان كانوا منتشرين في كل السواحل الشرقية للابيض المتوسط».

Puraithoi... وقد قاس الباحثون هذه الكلمة بكلمة آثروان (Athravan) وخلصوا الى وحدة عقائد آسيا الصغرى والدين الاوستائي».[١]

ويذهب بعض ذوي الاختصاص الى ان كلمة «موبد» مشتقة من كلمة «مُغبد» (مغپاد) وكانت بهذا المعنى حيث ضاعفت في اواخر العهد الساساني من هيمنتهم السياسية، ولكن يبدو ان مكانتهم العلمية قد تقوضت بعض الشيء، ويلاحظ ان الفلسفة في عصر الساسانيين كانت متجهة صوب اليونان وارسطو، ولم تبق على اصالتها السابقة.

كان نفوذ الحكومة الايرانية، وشهرة المغان ونفوذهم العلمي والاجتماعي والمذهبي في ايران والعالم حينذاك، بحيث ان كلمة مغ أو Mogos اليونانية و Moguos الرومانية و Magi و Magic في اللغات الاوربية[٢] تعني رجل الدين والقائد الديني في ايران القديمة والذي يقيم المراسم الدينية ويتولى القضاء والتحكيم وحتى السحر

---

١) كان هؤلاء الموبدون يتولون مهمات الدعوة للدين وتعليم الحكمة، ومن المحتمل ان تلميذ مدرسة المغان غير الايراني في العصر الاخميني كان يسمى مغاً هو الآخر، وربما كان بعض المغان المقيمين في آسيا الصغرى وسواحل البحر الابيض من غير الايرانيين. كما ينبغي اعتبار فيثاغورس مغاً حصل من المغان على منصب النيابة (نظير التقسيمات التي اوجدها الاسماعيليون بعد ذلك في ايران باسم الحجة والقطب والركن».

٢) كلمة magic (سحري) و magisterid (واهب العدل) و magnify ومشتقاتها الاخرى في اللغة الانجليزية التي تعني العظمة والجلال، تشتق كلها من كلمة مُغ، وكلمة «مجوس» السريانية أو معربة المگوس، مأخوذة عن المفردة السريانية والآرامية أو اليونانية المعادلة لكلمة مغ الفارسية. و Mage في الفرنسية هي نفسها مغ الايرانية و تعني احياناً عالم الفلك أو الساحر، وكلمة Magie بمعنى السحر، و Magique بمعنى السحري، و Magiome بمعنى الدين المجوسي، و Magistrat بمعنى القاضي أو صاحب المنصب الرفيع في الدولة.

والكهانة والاعمال والمعالجات الماورائية، أو أنهم كانوا يعتبرونهم منجمين ومتنبئين واصحاب كشوفات غيبية.

وربما اطلقت كلمة مغان في فترات لاحقة حتى على تلامذة مدرسة المغان الايرانيين ممن وفدوا عليها من شعوب وأمم اخرى، وكانوا يمارسون الكهانة والتنجيم والطبابة وتعليم الفلسفة والرياضيات، ذلك اننا قد نصادف احياناً كلمة مغان بابلية أو سورية أو من آسيا الصغرى. وكان فيثاغورس ـ كما سنرى ـ قد تعلم منهم الشيء الكثير، وكان مثل واحد منهم، وسنبين أنه سار على غرارهم حتى في توجهاته السياسية، وكان يرى نفسه كما في الاديان السماوية والالهية مسؤولاً عن اصلاح المجتمع على شكل قيادة سياسية وادارة حكومية بالنحو الذي صاغها سقراط وافلاطون واخلافهما، ولم يخضع أي منهم تقريباً لجبابرة اليونان (tyrani).

يمكن الاستنتاج من مجموع ماكتبه المؤرخون القدماء والجدد أن المغان هم كما اسلفنا من نفس فئة وعنصر آريٍّ ما قبل التاريخ المدون، وقد كانوا رجال دين وقادة دينيين للقبائل الآرية وتلاميذ وورثة علوم النبي أو الانبياء الذين ظهروا بينهم وجاءوهم بدين جامع قيم، وعلّموهم فضلاً عن الرؤية التوحيدية ذات الطابع الفلسفي، رموزاً واسراراً للخلقة تتضمن الخواص الطبية للمواد والنباتات، وخواص الاعداد، وخواص «القرانات» واوضاع النجوم (والذي نسميه التنجيم) وفوق كل هذا اساليب السلوك المعنوي للوصول الى حقيقة عالم الوجود. كما كانوا يوصونهم بالسرية واخفاء هذه التعاليم عن الغرباء خشية اساءة استخدامها من قبل بعض المفسدين والدخلاء.[١]

---

١) شبه احد الباحثين الغربيين عهد السرية لدى المغان بقانون لويتيكوس المقدس، وقال: «كان المغان يعيشون طبقاً لقوانينهم الخاصة، التي تضمن كما هو قانون لويتيكوس

وقد أدى مبدأ السرية والكتمان الذي التزموه الى ان يعلم المغان وعلماء الدين علومهم وتجاربهم العلمية والسلوكية لابنائهم فقط، الى درجة انهم في العصر الميدي اصبحوا طائفة أو قبيلة من عرق واحد وعشيرة واحدة، ولأن المعالجات والطبابة والتنجيم وقراءة الطالع كانت في ايديهم، فقد احرزوا سواء لدى الجماهير أو عند الملوك مكانة ومنزلة سامقة، توصلوا من خلالها الى مواقع سياسية واجتماعية مهمة، الى حد أن المؤرخين اوردوا اسمهم الى جانب القبائل الخمس الاخرى للميديين.

ان وجود مذاهب مختلفة كالزروانية، وعبادة مهر [الشمس]، وعبادة آلهتين أو ثلاث، وما الى ذلك بين المغان، مؤشر الى نوع من الانحراف الديني (الديانة السيئة مقابل الديانة الحسنة) الذي يمكن ان يعزى الى عدة امور:

الاول: الخضوع للعوام، وهو من الآفات التي قد يصاب بها علماء الدين ورجاله في كل ديانة، حيث يحتذون خطى السامري في اتباع المعتقدات والتقاليد الواهية وعبادة الاوهام لدى العامة من الناس، بغية احراز الوجاهة والمواقع الدنيوية المغرية أو للاحتفاظ بها.

الثاني: الفساد الاخلاقي الناجم عن السلطة السياسية والاجتماعية والمالية، والقرب من البلاط والملك وخدمته.

الثالث: الازدواجية في الرؤية، والاعوجاج والضعف في الفكر، وفي القدرات التنظيرية والفلسفية، والتأثر بالمدارس والمذاهب الضالة.

تلاحظ نظير هذه الانحرافات في كافة الديانات سواء الآرية منها أو السامية.

المقدس، طهارة جماعة منتخبة للقيام بشعائر دينية...» (اصول ادارة المدن في الشرق، صاموئيل. ك، ادي).

ونموذجها الآخر الدين البراهمي القديم قبالة البوذية، والذي يشبه الى حد بعيد علاقة الزروانية والتثليث بالديانة الزرادشتية. وان بعض التشابهات والتقاربات الزمانية بين بوذا وفيثاغورس تدل على تأثر كليهما بالدين الزرادشتي، وانهما كانا رسولي عقيدة التوحيد والزهد والرياضة لشعبيهما وبلاديهما، وكلاهما طرد من قبل قومه، وتابع دعوته وتعاليمه بين قوم اجانب بعيداً عن موطنه الاصلي، وهذا ما اضطر اليه زرادشت ايضاً.

الى جانب هذا الصنف من المغان، كانت ثمة جماعة اخرى منهم تنكرت للدنيا والمناصب، وأوغلت في السلوك والتكامل الروحي عبر اشواط الرياضة والتأمل والمراقبة وتهذيب النفس، وعكف كل واحد من رجالها وفي حدود مرتبته على اداء واجبات الدراسة والتربية والارشاد. ويتسنى القول انهم كانوا المغان الحقيقيين وحماة العلم والحكمة واساتذتها الاصلاء.

كلمات من قبيل «پيرمغان» [شيخ المغان] و «مغبچه گان» [صبيان المغان] و «دير مغان» [دير المغان] الواردة في الادب الفارسي ولاسيما في قصائد حافظ الشيرازي، تشير الى هذه المراتب الظاهرية، ذاك أن المغان كان لهم مرشد اعظم ربما هو نفسه «مس مغان» اما باقي المغان فلكل واحد منهم مرتبته المقررة والمنتظمة داخل سلسلة المراتب، وعليه واجبات خاصة في التعليم والتربية، حتى يصل الدور الى المتعلمين الجدد والطلاب الصغار الذين يسمى الواحد منهم مغبچه،[1] وقد كان على كل مرتبة ادنى ضمن تنظيمهم الروحي الشبيه بالدير، واجب تقديم الخدمة لجماعتها

---

١) نحتت لكلمات مثل پيرمغان و مي [الخمر] وميخانه [الحانة] في الادب الفارسي معانٍ اخرى لاتليق بالمرتبة السامية لاولئك الحكماء.

وللجماعة الاعلى منها، ليتم عن هذا الطريق جلاء صدأ الغرور ومعالجة الامراض النفسية.

أما بعد الاسلام، فقد كان الاسماعيليون المعروفون بالباطنية وهم في الواقع الشيعة السياسيون، أول من راعى الصورة الظاهرية لهذه التراتبية، ثم انتقلت الى المتصوفة فكانت الخانقاهات شبيهة بأديرة المغان والمجوس. كما انتقلت هذه الاعراف الى العالم الغربي في العصر الساساني مع العديد من التقاليد الاخرى (كالتعميد والصليب والتثليث والايمان بالأب والابن) فأهدت الى المسيحية اليافعة البلاط البابوي من ناحية، والاديرة والرهبنة من ناحية ثانية، مضافاً الى المدارس العلمية والدينية والفلسفة والعلوم. ثم جرى بعد ذلك تقليد هذه الاصول بنحو ناقص في المنظمات السرية للماسونيين الصهاينة اليهود (بعنوان حكماء اليهود) واليسوعيين (الجوزيتيين) النصارى (بعنوان حكماء المسيحيين). وقد كانت كل هذه التشكيلات المتشابهة التي تواصلت في العالم ما يقارب السبعة عشر قرناً، قد اقتبست النموذج القديم للمغان الذي كان قائماً بدرجات مختلفة حتى ظهور الاسلام وانقراض السلالة الساسانية، لا في ايران وحسب، بل وكان معروفاً ومحترماً أيضاً في مناطق أخرى من العالم المتحضر آنذاك.

من امتيازات هذه الطبقة ومن واجباتها وادوارها جمع الحقوق الشرعية او الخيرية. ويستشف من التواريخ انه كان لهم سهم من الغنائم التي يغنمها الايرانيون في الحروب، وكان يجب استخراج هذا السهم من الغنائم قبل تقسيمها، وايداعه في خزانة المغان. وقد اشير الى هذا الموضوع على وجه الاجمال في انتصارات كورش.

ان هذا الاستقلال المالي والحق القانوني في استيفاء الضرائب ـ الذي ربما شمل

العائدات الزراعية كما في الخراج ـ وفر ضرباً من السطوة السياسية تماثل تلك التي كانت للكنيسة المسيحية في اوربا، ويبدو من بعض الوثائق التاريخية ان المغان كانوا يتمتعون بموارد مالية واقتصادية كافية، وكما صرح المؤرخون، فإن هذا الاستقلال والسطوة السياسية والاجتماعية أدت الى أن تكون لهم دولة داخل الدولة وحكومة داخل حكومة الملوك الذين كانوا يمثلون في الغالب مواقع تشريفاتية، أي ان المغان كانوا يعدون أرقى قوة سياسية واجتماعية بعد الملوك الذين يعتبرون بحسب تقليد قديم من نسل الآلهة، ونوابها على الارض، فلايحق للطبقات الأخرى أن تتولى الرئاسة والملك دونهم.

ان هذا الاقتدار بحسب قرب المغان وبعدهم من الديانة الحسنة الحقة، كان يتسبب في بعض الاحداث السياسية احياناً. فمثلاً في حادثة نهضة المغ «غيومات» الذي يروي هيرودوت أن اسمه سمرديس[١] وهو نفس اسم نجل كورش (اخو كمبوجيه)، وكان كمبوجيه قبل هجومه الكاسح على مصر قد قتل أخاه (برديا) ثم هاجم مصراً، ولم يطلع أحد من الناس على قتله باستثناء المغان. لذلك حينما غادر كمبوجيه، استولى هذا المغ على العرش بحجة انه شقيق كمبوجيه المسمى برديا، وخلع كمبوجيه عن العرش. ويبدو ان هذه النهضة او الانقلاب كان ضرباً من ضروب الاصلاح الديني وديانة سيئة[٢] تطالب بالعدالة للناس في مقابل الاجحاف والجور الذي

---

١) كلمة سمرديُس هي الترجمة اليونانية لاسم «برديا» ص ٣٤٥.

٢) يقول غيمن (ص ١٠١، زرادشت والعالم الغربي): بادر داريوش بعد موت غوماتا (غيومات) الى اعادة بناء المعابد التي كانت تعبد فيها الآلهة الاخرى بعد ما هدمها غيومات، وهذا مؤشر على معارضة المغان للديانة المنحرفة والشرك.

كان يمارسه كمبوجيه، وطبعاً فإن عدداً كبيراً من المغان وربما جميعهم باركوا هذه النهضة.

وربما لهذا كتبوا في التواريخ ان غيومات: «حكم سبعة اشهر بهدوء، واحسن خلال هذه المدة احساناً كبيراً الى اتباعه، بحيث ان جميع سكان آسيا ـ باستثناء الفرس ـ أسفوا أسفاً شديداً لموته»[١] ولهذا السبب ايضاً حينما انتصر داريوش واتباعه على هذا المغ، راحوا يقتلون المغان واقاموا حفلاً عرف باسم «مذبحة المغان».

يظهر من لوح بيستون ـ الذي كتبه داريوش ـ ان المغ غيومات انجز في غضون هذه الاشهر السبعة العديد من الاعمال الثورية المهمة لصالح الناس، فبذل جهداً كبيراً على سبيل توزيع الثروات، وجمع الاموال والاملاك من الاثرياء الجائرين وتقسيمها بين الناس، وقرر اعفاء الناس (اي الطبقات المسحوقة من المجتمع) من الضرائب لثلاث سنوات، ولعل هذا ما سبب حزن الناس على رحيله ومقتله.

أو خذ على سبيل المثال نهضة مزدك ـ التي تعد نمطاً من الاصلاح الديني والاجتماعي ـ [٢] وقد كانت حركة سياسية ودينية واجتماعية، وكان مزدك نفسه من

---

١) تاريخ ايران القديمة، حسن پيرنيا، الكتاب الثاني، ج ٢، ص ٥٢٠.

٢) يبدو ان نسبة اشتراك المرأة في المجتمع كانت نوعاً من الدعاية والتهمة السياسية لها موقعها آنذاك في المعترك السياسي وبامكانها اختلاق عفريت خطير حتى من ملاك وديع. ما يبدو جديراً بالقبول انه كسر احتكار البلاط للنساء الجميلات (وقد كان الامر يصل الى وجود عدة آلاف من النساء الاصليات والفرعيات في عقد زواج الملوك) وأكد ان للجماهير ايضاً حقوقهم في امتلاك النساء، كما انه بادر الى تعديل الثروة ومصادرة المخازن المليئة بالغلال والسلع الثمينة الخاصة بالاشراف لصالح الناس، وعموماً كان مصلحاً اجتماعياً يصطدم بمصالح الارستقراطيين والمغان الاثرياء.

ابرز المغان في زمانه، وقد لاقت نهضته ترحيباً لدى الجماهير، حتى ان الملك في حينه (قباد) قبلها وتماشى معها، رغم ان جماعة من أكابر المغان عارضوه بشدة، وبالتالي عمدوا الى انقلاب عزلوا فيه قباد ونصبوا ابنه انوشيروان ملكاً، واستخدموا نفوذهم الذي كان على انوشيروان منذ طفولته، فارغموه على قتل مزدك واتباعه ومؤيديه كما ورد في كتب التاريخ.

من هنا، يظهر ان المغان كانوا يعيشون ضرباً من التباين في التوجهات والعقائد والطبقات والمنهج السياسي، مثلما كانت تظهر بينهم احياناً اختلافات في العقيدة الدينية، فبعضهم كان موحداً وبعضهم زروانياً أو من اهل التثليث (مزدا ـ مهر ـ ناهيد). وبالتالي فقد كان فريق منهم نصيراً للنبلاء وبعيداً عن الجماهير، بينما كانت طائفة اخرى منهم اتقياء مندكين بالجماهير، او ان البعض منهم يشتركون في الممارسات السياسية والحكومة، بينما البعض الآخر يتحاشون السياسة والشؤون الحكومية صابين كل جهدهم على تربية الطلاب ومزاولة التدريس والبحث والسهر على الحكمة والعلوم والمعرفة.

الا ان ما ينبغي اعتباره مبدأ نظرياً اساسياً في الحكمة الايرانية، ويبدو أنه حتى الذين لم يتلوثوا عملياً بالممارسات السياسية، قد استمرأوه في عقيدتهم، هو مبدأ «حكومة الحكماء» وهو ما لوحظ بعد ذلك في آثار سقراط وافلاطون، وقبل ذلك في طروحات فيثاغورس والحكماء الايونيين، مع فارق ان هذا المبدأ كان في ايران على الضد من مبدأ احتكار ا لسلطة لعنصر أو سلالة خاصة، الذي أوجد طبقة خاصة هي طبقة الملوك.

فمثلاً، كان زرادشت يرى ان الحكومة هي حق غشتاسب واسفنديار، اما سائر

المغان فمهمتهم العمل والخدمة الى جانب الملوك. وبهذا اصبح معنى حكومة الحكماء (وهم المغان انفسهم) هو ان تكون لهم حكومة خفية خلف الستار يتسلطون من خلالها على الملوك، وهذا ما حصل على مر التاريخ الايراني القديم قبل الاسلام باستثناء بعض الحالات الواضحة. ومع هذا فقد كان هذا التعارض يطفو الى السطح احياناً فيقلب المسرح السياسي الى ساحة صراع، كما جاء ذلك في احداث مذابح المغان في التاريخ.

ان موضوع «الحكومة الحقة» او حكومة الحكماء، لم يكن ابداً بمعزل عن الحكمة العملية التي تبحث تحت عنوان «سياسة المُدُن» ومن الجلي انه لايتسنى اعتبار الحكمة العملية من صناعة سقراط وافلاطون وابتكارهما، بل ان هذه الشعبة من الحكمة، وكما هو الحال بالنسبة للحكمة النظرية التي تعد ضرباً من الرؤية الكونية المقاربة للحقيقة، انتقلت من الشرق ولاسيما ايران الى اليونان وغيرها من البلدان. وبالطبع فقد كان للسياسة أو سياسة المدن أي الادارة العامة للبلاد ماضيها القديم، وكانت معروفة لدى الحكماء الايرانيين القدماء الذين استلهموها بدورهم من دياناتهم وانبيائهم.[١]

* * *

والآن نعود الى محورنا الرئيس وهو العلاقة العلمية لفيثاغورس بالمغان

---

١) يبدو ان مبدأ حكومة الحكماء والعلماء أو المدينة الفاضلة (والذي تغيرت ماهيته بعد ذلك في الغرب واضحى باسم حكومة النخبة أو Elit) له جذوره الدينية، وهو نفسه مبدأ حكومة (أو ولاية) الانبياء والادارة الالهية، والذي كان مشهوداً في اديانا الاخرى بما في ذلك الديانة الزرادشتية، فمثلاً جاء في يسنا رقم ٤٨: «يكون ان يحكمنا ساسة صلحاء بدل الساسة الطلحاء».

الايرانيين ورحلته الى ايران. رأينا اولاً ان الوضع الاجتماعي والسياسي وحتى العسكري آنذاك والحروب التي نشبت ـ وخلافاً لتصورات بعض الكتاب الغربيين ـ كان بالشكل الذي جعل العلاقة بايران وسلطتها الثقافية على العالم المتحضر بأسره يومذاك (بما في ذلك سواحل المتوسط وجزره وبحر ايجه وجزر ايونيا ومالطه وصقلية وارض الروم واليونان) ظاهرة لامندوحة منها.

ثانياً: شهرة الحضارة الايرانية الاخمينية وهيمنتها الثقافية والعسكرية من ناحية، وذيوع صيت علوم المغان من ناحية اخرى، اكتسبا من الشهرة والانتشار في العالم ما استقطب كل القلوب المشتاقة، الى درجة ان الطلاب كانوا يرضون احياناً بالوقوع في أسر الايرانيين حتى يصلوا الى ارض الشمس والضياء، فيتعلموا الحكمة والعلوم والغرائب، وكان الاطباء والمقاتلون يقصدون بلاط الملوك الايرانيين واجهزتهم ليتمتعوا هناك بالثروة والدعة والحياة الهانئة.

كما لاحظنا في الوثائق التي استعرضناها فان مؤرخي اليونان القدماء والباحثين المعاصرين في الغرب اشاروا الى علاقات فيثاغورس بايران، وسنحاول بدورنا في الصفحات التالية تسليط الضوء بايجاز على علاقة فيثاغورس هذه وحياته بوصفه الجسر الرئيس لانتقال الحكمة الاشراقية الايرانية الى اليونان، وسنتطرق ايضاً الى رحلته لأرض ايران.

فيثاغورس

انه نبي الفلسفة في الغرب، وقد سمي احياناً رائد الفلسفة ومؤسسها، وهو أحد

أشهر الحكماء في الزمن القديم، وقد تسببت حياته المعقدة والخفية وتعاليمه ومدرسته وفلسفته في احاطته باستار الاساطير واكتسابه شخصية اسطورية مضببة، الى درجة أن فريقاً من الباحثين الغربيين في القرن العشرين انكروا وجوده التاريخي وشخصيته الحقيقة.

وتبلغ اهمية هذا الحكيم وحياته حداً لايتسنى معه كتابة أي تاريخ للفلسفة من دون ذكر لاسمه، لاسيما فيما يتعلق بمعرفة جذور تسرب الفلسفة الى اليونان والرومان، والى الغرب القديم عموماً، إذ يكتسب البحث التاريخي الدقيق في حياته أهمية فائقة. وللأسف فإن تعارض بعض المصادر القديمة من ناحية، والاستنباطات والاجتهادات الغاصة بالاخطاء التي وقع فيها الباحثون الغربيون المعاصرون من ناحية ثانية، وربما بسبب تلف بعض التواريخ والكتب الايرانية وغير الايرانية في الاحداث والحروب، أدت كلها الى اضطراب وتعارضات جمة في الحديث عن حياته وتاريخه ومدرسته المعروفة (بالفيثاغورية أو الفيثاغوريين) وجعلت من الصعب استخلاص قدر متيقن أو حقيقة قاطعة من بين هذا الركام.

ثمة نظرية اطلقها لفيف من الباحثين الغربيين المعاصرين تقول ان فيثاغورس من تلاميذ زرادشت النبي الايراني الطاهر. أحد هؤلاء الباحثين هو غيمن الذي يقول:

> اعتبروا زرادشت استاذ فيثاغورس في الفلسفة والفلك والكيمياء والسحر وسائر العلوم الايرانية (!) والذي كان يعرف بـ«الكلداني»... وقد بلغت هذه الافكار ذروة اقتدارها حينما نسب پليثون (plêthon) المتنبئين

الكلدانيين لزرادشت او تلامذته... .[١]

ويقول دياكونوف: «تشير الروايات القديمة الى ان فيثاغورس استقى تعاليمه من زرادشت، بيد أن هذه الفكرة خاطئة بلا شك».[٢]

ويسجل رادا كريشنا في تاريخه للفلسفة:[٣] «اعتبر ديودورُس الارتيري، وارستكسنوس أن زرادشت كان استاذاً لفيثاغورس... كان اليونانيون يتلفظون كلمة زرادشت Zoroastres ويعرف اليوم بـ Zoroaster». وهذه نظرية تتعارض مع ايضاحٍ آخر له إذ يقول: «ذكروا أن تاريخ ولادته ما بين ٦٠٠ و ٦٠٠٠ سنة قبل ميلاد المسيح. وقد قال ارسطو واوكس وهرميپوس انه عاش قبل خمسة آلاف سنة من حرب طروادة»، ذلك ان ولادة فيثاغورس وحياته كانت قبل ميلاد المسيح بـ ٦٠٠ سنة كما وردت في التواريخ، ومن المستبعد وجود زرادشت في ذلك التاريخ.[٤] لهذا ذهب بعض الغربيين الى وجود اكثر من شخص باسم زرادشت. ينقل غيمن عن آبي فوشيه أن: «العلماء يتقبلون عن طيب خاطر وجود عدة اشخاص باسم زرادشت. هذه طريقة حل بسيطة للتخلص من الصعوبات، ولكن ينبغي السعي للعثور على هؤلاء الزرادشت المتعددين في التاريخ».[٥] «يرى فوشيه ان زرادشت الثاني هو الذي عرّف زروان وكان استاذاً لفيثاغورس. وهذه فكرة استساغها بعد ذلك هردر (Herder) وزوغا (Zoega)

---

١) زرادشت والعالم الغربي، غيمن، ص ١٧ و ١٨ (بالفارسية).

٢) تاريخ الميديين، دياكونوف، ص ٣٤٦ (بالفارسية).

٣) تاريخ الفلسفة الشرقية والغربية، رادا كريشنا، ج ٢.

٤) جاء في تاريخ الميديين لدياكونوف: «الاسماء الميدية الايرانية في القرون التاسع حتى السابع قبل الميلاد تدل على الايمان بمزدا اهورا».

٥) زرادشت والعالم الغربي، غيمن، ص ٣٤.

وغينيو (Guigniaud).[١]

ويروي غيمن عن آخرين آراءً لاتعتبر فيثاغورس معاصراً لزرادشت وتلميذه فحسب، بل تعتبره النبي موسى أو ابراهيم، وبسبب هذه الاخطاء، عد البعض زرادشت وجوداً اسطورياً.

يقول في الكتاب نفسه:

قال هربلوت (Herbelot) ان الايرانيين القدماء ذهبوا الى ان زرادشت أقدم تاريخياً من موسى، وثمة مغان اعتبروه والنبي ابراهيم شخصية واحدة، وكثيراً ما اسموه «ابراهيم زرادشت»[٢]. فيما يتعلق بزرادشت يبدو ان زرادشت هو نفسه موسى، ومعظم اصول وجذور الدين الايراني تعود الى شريعة موسى. بعبارة اخرى وحسب تعبير دوروال: لقد اثبت فيلسوف هوييه ان زرادشت شخصية اسطورية نحتت في ضوء قصة موسى.

وفي رأي هايد (Hyde): لم يكن زرادشت معلماً لفيثاغورس فحسب، بل تنبأ بالمسيح ايضاً، واقتبس بعض الامور من عزرا وسائر انبياء بني اسرائيل: لماذا فضل الله شعب ايران من بين كل الشعوب الاخرى بفضيلة هذا الدين، هذا أمر يعلمه الله، ولا يمكن العثور على اي سبب لهذا الانتقاء الا اذا قلنا ان زرادشت تصرف في اصلاح الشعب الايراني بنفس

---

١) م س، ص ٢٦.

٢)م س، ص ٢٦.

اسلوب ابراهيم، اي انه استطاع هدايتهم من ديانة الصابئة الى التوحيد.[١]

ان امثال هذه المعتقدات التي وصلت المسلمين بعد ذلك عن طريق مترجمي الكتب العبرية واليونانية، تلاحظ احياناً حتى في الكتب المعروفة، فمثلاً يعتبره صدرالمتألهين لامقتبساً من معارف الانبياء وحسب حيث يقول في تفسير سورة يس: «هو من اساطين الحكماء المقتبسين من أنوار معارفهم من مشكاة علوم الانبياء عليهم السلام...»[٢] بل ويراه من التلاميذ غير المباشرين للنبي سليمان، وحتى من معاصري سليمان ومن تلاميذه و هذا هو نص عبارته:

وكان قد لقي تلاميذ سليمان بن داود (على نبينا وعليهما السلام) بمصر واستفاد منهم... وكان في زمن سليمان عليه السلام قد أخذ الحكمة من معدن النبوة... .[٣]

في حين يعتبره في موضع آخر (الاسفار، ج ٥، ص ٢١٣) استاذاً لسقراط الذي يعود تاريخ حياته الى نحو ٥٠٠ عام قبل الميلاد. وعلى ذلك، ينبغي من هذه العبارات التسليم لنقطة رئيسة هي العلاقة القريبة بين فيثاغورس والحكماء الايرانيين، وترك الافتراضات والاحتمالات الاخرى لنساجي القصص.

* * *

باجتياز هذه المرحلة نصل الى الحياة العلمية والاجتماعية لفيثاغورس وعلاقته

---

١) م س، ص ٢٨ و ٢٩، لتلاحظ في هذه الآراء الدعايات الصهيونية ايضاً.

٢) تفسير الملاصدرا، سورة يس، ج ٥، ص ٣٨.

٣) رسالة في الحدوث ص ١٥٤ ـ ١٥٥ و ١٧١. الاسفار الاربعة ج ٥، ص ١١٥. الملل والنحل، الشهرستاني، ج ٢، ص ٢٦٦.

العلمية بالمغان.

من الحقائق التاريخية التي يمكن استقاؤها عموماً من آثار مؤرخي العصور القديمة، وقبل أو بعد ميلاد المسيح، أو في الحقبة المعاصرة في الغرب أو الشرق، أن فيثاغورس قضى ردحاً من حياته في تحصيل العلم من الامم الاخرى وفي بلدان المشرق لاسيما ايران وبابل ومصر وربما الهند، وبلغ درجة الاستاذية في كافة العلوم التي كانت تدرس وتدرَّس آنذاك تحت مظلة الحكمة (أو الفلسفة)، وبعد فراغه من التعلم عاد الى موطنه ثم الى سواحل جنوب ايطاليا، وقصد مدينة تدعى كروتونا (Croton) فأسس هناك مدرسة على غرار مدارس المغان الايرانيين السرية. يكتب أحد الباحثين الايرانيين:

> تزامنت فترة نشاطه (فيثاغورس) مع عهد كورش مؤسس الدولة الاخمينية (٥٥٩ ـ ٥٣٠ ق م) وابنه وخليفته كمبوجيه (٥٢٩ ـ ٥٢٢ ق م)... كتب البعض انه كان في مصر اثناء هجوم كمبوجيه وجيوشه عليها في ربيع سنة ٥٢٥ ق م، ووقع هناك في الأسر وجاء مع جيش ايران الى بابل وعاش مدة ١٢ عاماً بين الكلدانيين والمغان، وحينما عاد الى موطنه ساموس كان له من العمر ٥٦ سنة.[١]

ويكتب عالم روماني اسمه بلينيوس من القرن الاول الميلادي: «سافر فيثاغورس وديمقريطس وامبادوقليس (Empedoclos) وافلاطون اسفاراً بعيدة لتعلم ديانة المغان».[٢]

---

١) مزديسنا والادب الفارسي، الدكتور محمد معين، ج ١، ص ١٤٦.

2. Plinius, Nanuralis Historia,12.

ويشير الخطيب الروماني المعروف شيشرون (٤٣ ـ ١٠٦ ق م) الى رحلة فيثاغورس لمصر وتعرفه على المغان هناك. ويكتب فالريوس ماكسيمُس المؤرخ الروماني المعاصر للقيصر تيبيريوس، والذي عاش في القرن الميلادي الاول:

«هاجر فيثاغورس الى ايران، وخاض في تعاليم المغان واكتساب علومهم، وتعلم منهم دوران الافلاك وحركة النجوم وخواصها الطبيعية».

ويكتب فورفوريوس الفيلسوف الاشراقي من اهالي سورية في القرن الميلادي الثالث وتلميذ افلاطون في تاريخه للفلسفة:

اوصى فيثاغورس بالصدق اكثر من أي شيء آخر، وأكد ان الانسان يستطيع التشبه بالله عن طريق الصدق فقط، ذلك أن الله ـ وكما تعلَّم من المغان الذين يسمون الله هرمزد (Oromozes) جسم من ضياء وروح من صدق... .

عايش فيثاغورس الكلدانيين، وقصد كذلك زرادشت وتطهر بفضله من الذنوب السابقة.[1]

يذكر الدكتور معين في الكتاب نفسه رسالة بعنوان «رحلة فيثاغورس» تنسب اليه (وقد تكون رحلة روحية ومشاهدات غير مألوفة) ويشير هناك الى حوار بين زرادشت وفيثاغورس يقول فيه زرادشت لصاحبه ان عقيدته ستعم العالم، وفيثاغورس قلق من الحرب وسفك الدماء ويتحدث في هذا الخصوص، لكن زرادشت يجيبه: ان العقيدة التي لاينهض صرحها على الاجساد (الجهاد والشهادة) كيف يمكن ان تبقى صامدة؟... انت لست اكثر من حكيم، والحكماء لايستطيعون ضمان حسن أحوال

---

١) مزديسنا والادب الفارسي، نقلاً عن يسنا، پورداود، ج ١، صص ٩٨ ـ ١٠٢.

الناس وسعادتهم! بل تعود مفخرة هذا الامر الى رجال السياسة... أية فوائد قدمتها اكباتان (همدان) وهؤلاء المغان العلماء. ان علومهم العميقة العظيمة لم تكن ذات فائدة حتى لانفسهم... فما هي فائدتها للعالم...؟[١]

ويكتب باحث ايراني آخر:

طبقاً للروايات القديمة التي يرويها عالم الايرانيات الامريكي البروفيسور جاكسون في كتاب (زرادشت، نبي ايران القديمة) فقد تتلمذ فيثاغورس عالم الرياضيات اليوناني الكبير على ايدي المغان. ويقول: نعلم ان افلاطون تمنى ان يكتسب العلم عند المغان في الشرق، بيد أن الحروب بين ايران واليونان حالت دون ذلك.

اتباع پروديقوس (Prodicus) المعاصر لسقراط كانوا يتفاخرون بتوفرهم على آثار زرادشت. حتى ان دارمستتر قال أن استاذ سقراط كان مغاً عالماً اسمه غوبرياس (Gobriyas) [وربما كان المراد بذلك كلمة «گبر» الفارسية القديمة التي تعني الرجل].[٢]

وجاء هناك مانصه:

وقد نقل في «محبوب القلوب» لقطب الدين الاشكوري (تلميذ الميرداماد) ان اصل علم المنطق والحكمة الذي ألفه وهذبه ارسطو، اقتبس من خزائن ايران عند غلبة الاسكندر على دارا وبلاد ايران.[٣]

ويقول أحد الكتاب الغربيين المتعصبين، وهو ممن لايعترف لتأثيرات الشرق

---

١) م س، ج ١، ص ١٥٠.

٢) سيرة القانون، علي پاشا صالح، ص ٨٤.

٣) م س.

على اليونان الّا بصعوبة:

يمكن رصد اول نتيجة لامتزاج «النبوغ اليوناني» بالنبوغ الشرقي في اسم فيثاغورس. فنظرية فيثاغورس حول الروح المتأثرة بالشرق [التناسخ] وهي نظرية لها جذورها في العقيدة الاورفية (Orphisme) والعقيدة الاورفية ليست يونانية محضة... جاء في التراث ان فيثاغورس توجه الى مصر وبابل وعايش هناك الموبدين الايرانيين(!) وخلفاء زرادشت.[١]

يضطر هذا المؤرخ المتعصب الى ارجاع سلسلة العلوم الفيثاغورية الى موبدي ايران الذين كانوا في ايران طبعاً. واذن، فهو يعترف ضمنياً ان فيثاغورس هاجر الى ايران (او الى مستعمراتها في الاقل مثل بابل ومصر) واكتسب علومه هناك.

بالنظر للوثائق الدالة على سفر فيثاغورس الى الشرق والى ارض ايران ودراسته عند المغان الايرانيين ـ والتى اكتفينا بالقليل منها رعاية للاختصار ـ يتسنى القول ان العلاقة والواسطة والجسر الرئيسي لانتقال الحكمة وعلوم الرياضيات والطبيعيات من ايران (والشرق عموماً) الى نواحي البحر الابيض وتسربها الى اثينا وباقي المدن اليونانية، هو فيثاغورس. وفيما يلي خلاصة لحياة فيثاغورس واسس فلسفته الاشراقية.

بعد ان اكتسب فيثاغورس الحكمة الايرانية وآداب المغان وتقاليدهم، عاد الى مدينته كمغ ايراني، وتوجه بعد فترة الى مدينة كروتونا (Crotona) الرومانية (التي كان يسكنها المهاجرون اليونانيون في الظاهر) وجمع حوله هناك عدداً من التلاميذ وأقام

---

١) فلسفة اليونان، شارل وارنر، ص ٨ (بالفارسية).

العقيدة الفارسية بنفس اسلوب الايرانيين.

كتب الغربيون حوله وحول مدرسته أن أساسها يقوم على الاخلاق والنسك والعبادات والرياضات الجسمية والروحية، يحاسبون انفسهم في كل يوم، وكانوا جمعية تسودهم علاقات الاخوة، ويطيعون شيخهم واستاذهم اطاعة تامة. يرتدي كل تلاميذه واتباعه ملابس بيضاء ولايلبسون احذية، وكانوا يقلّون من الطعام ومن الكلام ومن الضحك، ولايقسمون بالله، ولايأكلون لحم الحيوانات ولايقتلونها، والمعروف انهم كانوا يؤمنون بالتناسخ.

الكتابة كانت ممنوعة في هذه العقيدة، والتعليم كله يتم بشكل مباشر وشفهي، ذلك ان التعاليم العلمية والدينية والفلسفية كانت كلها سرية وينبغي اخفاؤها عن الاغيار والغرباء،[١] ويقال انهم اغرقوا في الماء تلميذاً أفشى سراً من اسرار الهندسة.

اشهر نظرية بقيت عن فيثاغورس هي نظرية اصالة الاعداد، إذ كان يعتقد أن العالم كله يقوم في اساسه على الاعداد، أو قل أن مصدر خلقة العالم هو العدد. يقول السهروردي في هذا الخصوص:

> وبين العقول وهيئاتها النورانية اللاهوتية نسب عددية، كما قال الحكيم الفاضل فيثاغورس المتأله: «ان مبادىء الموجودات العدد»؛ ولايعني به أن العدد أمر قائم بذاته فعال، بل يعني ان في الملكوت ذوات نورانية قائمة لا في جهات هي انيات قدسية فعالة لاتزيد وحداتها على ذواتها، هي ابسط ما في الموجودات واشرفها، وبينها من النسب العددية عجائب

١) يقال أن احد التلاميذ هناك واسمه فيلولاوس أو هيباسوس وضع بضغط من الفقر والحاجة كتاباً واعطاه لحاكم سراقوصة مقابل ديونه، فطرد من يومها عن جماعة فيثاغورس (تاريخ الفلسفة اليونانية، محمد مرحبا، ص ٦٤).

يحصل منها في الاجسام عجائب.[١]

تواريخ الفلسفة التي وضعها الغربيون، تعتبر هذه النظرية فكرة وهمية، لأن العالم والكرة الارضية مصنوعة من مواد واجسام لاصلة لها بالاعداد ـ التي يعدونها مجموعة ارقام وعلامات لحساب الاشياء (المعدودات) في العالم ـ ولايعلمون شيئاً عن علاقة الاعداد والاشكال الهندسية والحروف والكلمات بالظواهر والاحداث في العالم وتأثيراتها الفعالة.

عقيدتهم المشهورة الاخرى تتصل بعالم الخلقة، وتناسق (Harmoni) حركة النجوم ونظامها المدهش، والعلاقة الرياضية لهذه الاجزاء ببعضها وبالمخلوقات الارضية والانسان. ولهذا اكد القدماء وجود صلات علمية ثابتة بين الصور المركبة للنجوم والاوج والحضيض والتقابل والتأخر والقران والافتراق فيها مع ظواهر العالم والاحداث الطبيعية وطباع الانسان ومزاجه.

يرى بعض الكتاب ان كلمة كزمو أو كسموس (Cosmos) التي تعني النظام العالمي او الكوني، هي من وضع فيثاغورس، وتعني في الاصل «الجمال والزينة».[٢]

كانوا يرون السبب في كل هذا التناسق والنظام العالمي الكوني الباهر، هو ان العالم برمته شخص واحد وجسم واحد وله روح ونفس واحدة، وسلوكه سلوك عقلائي. يقول احد الباحثين الغربيين في هذا الصدد:

الفيثاغوريون كانوا يتصورون الاجرام السماوية وبسبب طبيعتها السماوية تتوفر على اكمل الحركات أي الحركات الدورانية، مضافاً الى

---

١) المطارحات، ص ٤٥٣، تصحيح كوربان.

٢) وفي توحيد المفضل يمعنن الامام الصادق عليه السلام كلمة كسموس (قسموس) بأنها الزينة والجمال.

ان كل هذه الحركات ممكنة الفهم من زاوية الاعداد والتناسب والوزن، فكل الكائنات انما هي اعداد متوازنة ومتناسبة.[١]

ويقول ايضاً:

الفيثاغوريون على حد تعبير ارسطو (مابعد الطبيعة ـ A٥) كانوا مشغولين بعلم الرياضيات دائماً، ولأن العدد في هذا العلم على جانب كبير من الاهمية، فقد توصلوا الى النتائج التالية: السماء تناسق وعدد، والعدد جوهر كل العالم، ووجود الاشياء تقليد للاعداد.

بالاضافة الى ذلك، يقول ارسطو: «لقد شيدوا السماء من الاعداد» (في السماء III ـ مابعدالطبيعة ٨٨٦).

* * *

ان جميع مؤرخي الفلسفة تقريباً، يرون اليونان محوراً ومركزاً للابداع والثقافة، سواء منهم الذين يذكرون الشرق كأحد مصادر الفلسفة والثقافة اليونانية، أو اولئك الذين يتناسون الشرق كلياً عامدين او غير عامدين رغم كل ماله من حضارة وثقافة استمرت آلاف السنين ـ ولأن زمن ظهور طالس وفيثاغورس هو برأينا نقطة عطف الثقافة والحضارة اليونانية، لذا كان لزاماً علينا التطرق بعض الشيء الى جغرافيا اليونان وتاريخه الاجتماعي والسياسي والثقافي، حتى يتاح لنا بسهولة اكبر تقييم مزاعم المؤرخين الغربيين تقييماً عادلاً.

١ـ٢. اليونان القديم

اليونان هو القسم الجنوبي من شبه جزيرة البلقان، ويقع على ساحل بحر ايجه

---

١) ظهور علم النجوم، واندر وردن، ص ٢٠١ و ٤٠٨ (بالفارسية).

وبينه وبين البحر الابيض المتوسط. وهو ارض صغيرة يقول آلبير ماليه أن مساحته لم تزد على ٥٥ ألف كيلومتر مربع،[١] فهو يشكل واحد من ثلاثين من مساحة ايران الحالية، وكان يشكل نحو واحد بالمئة من مساحة ايران في العهد الاخميني.

كان سكان اليونان في الاصل قبائل وحشية من العنصر الآري يسمون الهيلينيين، وقد انحدروا قبل زهاء ألف عام قبل الميلاد من الشرق الى تلك الارض فاستقروا فيها، وكانت لهم علاقاتهم لاحقاً بالمناطق المتحضرة في تلك الانحاء كجزيرة كريت وفينيقية، فتعلموا منهم استخدام النحاس والبرونز واعراف التحضر والتمدن، ومن ثم تعلموا منهم الخط.

يكتب آلبير ماليه حول سكان اليونان الجدد:

كانوا شديدي التوحش والضراوة، يخربون كل مايمرون به، ولهذا احرقوا المدن التي شيدها الأكيوشا (سكان اليونان قبلهم)... وعاشوا طوال عدة مئات من السنين في حالة من نصف التوحش.[٢]

وكتب مؤرخ آخر في هذا الصدد:

يظهر من الملاحم اليونانية ان اليونانيين كانوا اقواماً متوحشين غير عارفين بالحديد، وغير معتادين على السكن في المدن، انما كانوا يعيشون بجوار انقاض المدن التي يهدمونها، وبعد ذلك بادروا الى تشييد الاسوار والحياة المتمدنة.

وبسبب الطبيعة الجبلية للارض اليونانية، وكذلك الانفصال العنصري

---

١) تاريخ الشعوب الشرقية، ج ٢، ص ١٤٩ (بالفارسية).

٢) م س، ج ٢، ص ١٤٩.

وبعد المدن عن بعضها، لم يكونوا قادرين على تشكيل حكومة واحدة، ولم يكونوا يخضعون لبعضهم. كانت هناك المدن المعروفة اثينا واسبارطة، ومراكز اصغر، وكانت اعظم مدنهم اصغر من كثير من قرى بريطانيا.[١]

كانت ثقافة اليونان القديمة جد ابتدائية وجاهلية، اذ كانوا يعبدون الشمس والنجوم والعوامل الطبيعية على غرار انصاف الوحشيين من الرحالة سكان الخيام، وكانوا يرون للبحر والاشجار والرياح والبرق وما الى ذلك آلهة قاسية وذات اهواء ومفاسد في نفس الوقت، وقد نسجوا لها اساطير واوهاماً تدعى معرفتها اليوم بعلم الاساطير أو الميثالوجيا.

لقد حافظ الاقوام اليونانيون على اساطيرهم وثقافتهم وآلهتهم بشدة، وقد نظم شاعر جوال اسمه هومر (من اهالي ازمير الحالية) هذه الاساطير شعراً، وباعها للملك، وقد اضحت هذه الاشعار لاحقاً ملاحم اليونان الوطنية وسميت «الاوديسة» و«الالياذة». وثمة شاعر آخر اسمه هيسيود (Hesiode) قام بالشيء ذاته واصاب شهرة بين الناس.

ان توقع العلم والحكمة من اناس على هذا البعد من التحضر، والقرب من التوحش الى درجة انهم لم يكونوا على معرفة حتى بصهر الفلزات واعداد البرونز، توقع في غير محله. ولهذا لم تكن الحكمة والنجوم والرياضيات والفنون العملية مفقودة بينهم وحسب، بل لم يكن لهم حتى الوضع السياسي والاجتماعي الاعتيادي لسائر الشعوب، ولم يكن لهم قوانين وحقوق، ولم يكن ثمة نظام عام او قواعد ركنية لادارة المجتمع.

---

1. History of the World, H. Wells, p.93.

وهكذا، دفعت الفوضى واللاقانون و عدم وجود نظام حكومي صحيح أو سلطة مركزية، دفعت مفكريهم الى الاقتباس من الشعوب الاخرى وتقليدهم.

في حدود القرن السابع أو السادس قبل ميلاد المسيح، كلّف أحد اشراف اسبارطه واسمه ليكرجوس بهذه المهمة، واعقبه في هذا الامر أحد رجال اثينا اسمه سولون،[١] الذي توجه الى جزيرة كريت ومالطه ومصر، وحواره مع الكاهن المصري معروف.

مع استتباب حكومة الارستقراطيين على الارض اليونانية، وبسبب مجاورتها لحضارات كبرى من قبيل مصر، وفينيقية، ولاسيما الحضارة الايرانية العظمى المترامية في العهد الاخميني، ورواج التجارة بين اليونان والاراضي القريبة وسواحل المتوسط، واجهت هذه الامة الثقافات الاخرى وتعرفت على حضاراتهم. وخصوصاً «استقطب المشرق العامر والمتحضر انتباه اليونان الفقير، فهاجر العديد من اليونانيين الى بلدان الشرق، وانتشروا في بابل ومصر وسورية، وازداد عدد اليونانيين في بلدان الشرق بعد قيام الدولة الاخمينية».[٢]

يقول أحد المؤرخين الاوربيين المعروفين:

اقتبس الهيلينيون في حدود عام ٧٥٠ ق م اول ديانة لهم من سورية، وفي نحو تلك الفترة ايضاً استلهموا الابجدية الفينيقية... لو لم يتصل اليونانيون بسواحل البحر المتوسط (...) لما اتيح لهم اغتراف التأثيرات الفنية واقتباس الابجدية الفينيقية في القرن الثامن قبل الميلاد. الارجح

---

١) حدود سنة ٥٩٠ ق م.

٢) تاريخ ايران القديمة، پيرنيا، ج ١، ص ٦٧.

ان ذلك الاتصال كان بحرياً، وينبغي اعتباره ضرباً من التجارة... من القرن الثامن قبل الميلاد فما بعد كانت الحاجة الاقتصادية الرئيسة لليونانيين هي الحصول على الغذاء (...) من الطرف الآخر لتخوم العالم الهيليني (!) مقابل البضائع اليونانية.[١]

ادى هذا الفقر الاقتصادي والثقافي لسكان اثينا واسبارطة، الى ان يتوجهوا أولا نحو الاراضي المحيطة بهم مثل ايونيا ومالطه وكريت وجنوب ايطاليا وصقلية، ثم الى مناطق أبعد نظير بابل وايران، واثر ذلك غصت معظم الولايات المطلة على البحر الابيض بالمهاجرين اليونانيين وكان بالمستطاع ملاحظة جنود يونانيين في جيوش ايران والشعوب الاخرى كالبابليين والمصريين والليديين. فوجود ما يناهز العشرة الاف مقاتل يوناني في جيش كورش الثاني بقيادة اكسينوفون نموذج لحالات الهجرة هذه، وقد ورد في التاريخ اسم شقيق الشاعر اليوناني Alcaeus باعتباره جندياً مرتزقاً في جيش الملك البابلي نبوخذ نصر.[٢]

كان من العناصر الجاذبة في شعوب الشرق ما تتمتع به من علوم وعلماء. لذلك كان طلاب الحكمة و محبو علم النجوم والطب والعلوم الاخرى يقصدون مصراً ـ بوابة الشعوب الشرقية ـ ويتوجهون من هناك الى بابل وايران والهند. ولعل من اشهر من قام بهذه الرحلات هو ثاليس (طالس) من اهل مالطة وفيثاغورس من اهالي آسيا الصغرى.

* * *

ألقينا لحد الآن نظرة سريعة على حياة فيثاغورس وشخصيته ومدرسته، وفيما يلي نسلط بعض الاضواء على مسار الحكمة الاشراقية والايرانية في النواحي الغربية

---

١) تاريخ الحضارة، توينبي، صص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ (بالفارسية).
٢) م س، ص ٢٠٦.

من ايران، ونتطرق لحياة ثاليس وانبادوقليس وديمقريطس (الذي قيل انه تواجد في ايران واتصل بالمغان) وسائر الحكماء اليونانيين وغير اليونانيين في تلك المناطق.

تفيد القرائن التاريخية انه منذ هجوم كورش على الغرب وسواحل وجزر البحر الابيض والبلقان، كان المألوف ان يؤمِّر الايرانيون أحد قادتهم على الاراضي المفتوحة، ويكلفون المغان ورجال الدين باشاعة عقيدة التوحيد والتحرر من عبادة الاصنام والآلهة الجاهلية. وكان هؤلاء المغان (الذين قد تترافق اسماؤهم احياناً مع اسم الارض التي نشأوا فيها، حيث جاء في الوثائق التاريخية تعبير مغان آسيا الصغرى، أو مغان سورية) يدرِّسون الدين الالهي (الديانة الحسنة) مضافاً الى تدريسهم الشباب في مدارس تشبه الاديرة، اصول الحكمة والهندسة والحساب والنجوم وغيرها من المعارف، ويعدونهم للتوجه الى ايران.

من هنا لايستبعد ان يكون ثاليس وفيثاغورس وامثالهم من الحكماء ـ الذين عاش بعضهم في حدود هيمنة الملوك الايرانيين (الاخمينيين والميديين) ـ قد تتلمذوا على يد المغان قبل تواجدهم في البلدان الشرقية.

ثاليس المالطي

تقع جزيرة مالطة شمال افريقيا، وبسبب مجاورتها لعدة حضارات راقية نسبياً مثل فينيقية ومصر وتونس (التي كانت تسمى حينذاك قرطاجنة أو قرطاج) فقد اكتسبت في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد تحضراً وتجارة بحرية وثراء وقوة، وظهر فيها عدة حكماء مشهورين ابرزهم هو ثاليس (Thales).

اعتبر ثاليس أحد الحكماء السبعة قبل التاريخ، وعده البعض لبناني الاصل عاش في جزيرة مالطه. تاريخ ولادته غير معروف تحديداً، لكنه حسب ما كتبوا كان

قريباً من عام ٦٢٤ ق م، وكانت وفاته سنة ٥٤٦ ق م. ومن المشهور انه تنبأ بكسوف عام ٥٨٥ ق م و هذا يتناسب مع تاريخ ولادته، فقد كان له في تلك السنة اربعون عاماً، ما يؤهله لدرجة علمية مناسبة لمثل هذه التنبؤات.

مع ان الجميع يعتبرونه من اهالي مالطه أو فينيقية (لبنان)، بيد أن حوافز المؤرخين المعاصرين في الغرب والتي أشرنا اليها، جعلتهم يعتبرون كل تلك الانحاء وحتى آسيا الصغرى كما سنرى جزءاً من اوربا، حتى يستطيع مدونو تاريخ الحضارة الغربيون في خطوة لاحقة أن يزعموا أن «ثاليس كان اول فيلسوف غربي».[١]

كتب الجميع عن رحلة ثاليس الى مصر، وقال البعض ان علمه في النجوم (بما في ذلك حسابات الحدوث المنتظم للكسوف والخسوف) مقتبس من البابليين،[٢] وورد في بعض الروايات انه وفد على ايران برفقة احد القادة الليديين في واحدة من المعارك.

* * *

كان لثاليس منزلة رفيعة في الادبيات الفلسفية لدى المسلمين، واعتبره البعض ومنهم صدرالمتألهين من تلامذة الانبياء،[٣] وجعلوه في مصاف هرمس وآغاثاذيمون وفيثاغورس. ويبدو انهم كانوا ينادونه في حياته بلقب «سوفوس» أي الحكيم.

كان ثاليس يتبع اسلوب الحكماء الايرانيين والمغان في المشاركة في الشؤون السياسية والاجتماعية وتحقيق الحرية والعدالة والسعادة للناس، وكان من انصار حكومة الحكماء والعلماء، وبالتعبير المصطلح كان ينشد الحكمة العملية الى جانب الحكمة النظرية، ويطلب الحكمة النظرية والعلوم والبصيرة لأجل العمل والحياة

---

١) تاريخ الفلسفة اليونانية، غاتري، فصل طالس.
٢) م س، ص ٨٠
٣) رسالة في الحدوث، الملاصدرا، ص ١٤ ـ ١٥.

وضمان سعادة الانسانية.

ينسب اليه انه اعتبر الماء «مادة المواد» كما ترك في الرياضيات (الهندسة) قضايا مشهورة تعد اليوم من مبادئ علم الهندسة.

انكسيمينوس

في زمن ثاليس المالطي، كان هناك حكماء آخرون ذكرت اسماؤهم في كتب تاريخ الفلسفة ومنهم انكسيمينوس وانكسمندروس.

يعد انكسيمينوس تلميذاً لثاليس، مع أننا لو اعتبرنا وفاته ٥٨٠ ق م (وهو تاريخ ولادة فيثاغورس تقريباً) ووفاة ثاليس ٥٤٧ ق م، لكانت وفاة ثاليس بعد وفاته بثلاثة وثلاثين عاماً، وبالتالي سيكون احتمال هذا التتلمذ ضعيفاً.

نظريته المعروفة حول «الأرخه» ـ في اللغة اليونانية بمعنى مادة المواد أو أصل الاشياء في الخلقة ـ هي أن الهواء أصل الاشياء ومبدؤها. ذهب فريق من المتأخرين الى أن مراده من الهواء، هو النَفَس أو الشهيق والزفير (Pneuma) ويظهر انه هو ايضاً استخدم هذا التعبير المتطابق مع تعبير «النفس الرحماني» أو «الوجود المنبسط» في العرفان الاسلامي.

النقطة المهمة الخليقة بالاشارة هنا، والتي تعد ضرورية في تفسير وفهم تاريخ الفلسفة هي ان بعض التعابير والمصطلحات الفلسفية للحكماء الغربيين القدماء وكذلك الحكماء الاقدمين في ايران من ذوي المفاهيم العرفانية والاشراقية الفلسفية الراقية، تم مطابقتها منذ زمن ارسطو فما بعد مع المعاني الظاهرية المادية ومصطلحات العلوم الطبيعية، فحادوا بها عن مسارها الاصلي. وربما كان السبب في ذلك أن مفسري الفلسفة يومذاك ـ ومنهم ارسطو نفسه ـ كانوا اما طبيعيين يولون أهمية اكبر لعلم

الطبيعيات أو الفوذوس (Fysus)، أو انهم في الاصل اصحاب ذوق طبيعي ولانصيب لهم من الذوق الاشراقي والعرفاني.

ارسطو وهو من اشهر الفلاسفة القدماء ـ كما سنشير في موضعه ـ كان يفهم من المثل النورية للاشراقيين ولاستاذه المباشر افلاطون موجودات مادية، ولهذا نراه يستهزئ بها ولا يستسيغها. انه وجميع اخلافه (الذين سنشير اليهم مثل انكسمندروس، وانكساغوراس، وديمقريطس، وبرمنيدس، وهيرقليطس وسواهم) كانوا يحملون تعابير الاسلاف على انها مادة بلاروح، ومادة المواد الطبيعية، وأمور مادية فيزيقية (فوذوس)، والحال ان كافة اولئك العظماء ـ الذين يعدهم صدرالمتألهين وحكماء المسلمين من تلامذة الانبياء ـ كانوا فلاسفة وحكماء بالمعنى الحقيقي والمصطلح للكلمة، ويتمتعون بعمق فلسفي وعرفاني لاغبار عليه.

مالم يلتفت اليه مدونو تاريخ الفلسفة هو ان فهم تعابير الحكماء الماضين يتطلب معرفة بالفلسفة الاشراقية (التي كانت شائعة آنذاك بشكل كبير في ايران واقمارها) فبدون الاطلاع على العرفان والفلسفة الشرقية القديمة لن يتسنى فهم أو تفسير طروحات القدماء واقوالهم.

انكسمندروس

التلميذ أو المعاصر الآخر لثاليس حكيم يدعى انكسمندروس (انكسمندر) يظهر انه توفي نحو ٥٤٧ قبل الميلاد (تزامناً مع وفاة ثاليس).

العنصر والجوهر الاساسي للعالم من وجهة نظر هذا الحكيم هو «الحقيقة اللامتناهية» او «الوجود اللامتناهي» أو Apeiron باللغة اليونانية، وهي حقيقة تجتمع فيها كافة الاضداد والاشياء، الا ان هذه الحقيقة مقدمة على كل تلك الاشياء والاضداد.

منذ وقت مبكر، فهمت المدرسة الارسطية[١] والمدارس الغربية اللاحقة من هذا الكلام شيئاً يشبه الهيولى الارسطية والمادة اللامنتظمة (Chaos) المنتشرة في العالم،[٢] وهي نفسها ما يسمى بـ «مادة المواد».

بالنظر لانتشار المعتقدات الدينية ـ الفلسفية الايرانية في ذلك الزمان على مدى مناطق البحر الابيض واليونان (بما في ذلك جزيرة مالطة) وشياع العقيدة الزروانية، يمكن استنتاج ان رأيه هو «الزروان» الايراني نفسه، فهذه العقيدة غير الصحيحة في ظاهرها، كانت شائعة على نطاق واسع في اجزاء من العالم المتحضر لها صلاتها مع ايران، وفحواها أن الوجود الازلي والسرمدي اللامتناهي كان موجوداً قبل كل الموجودات، وهو الذي أوجد الزمان، وقد ظهر الخير والشر (هرمزد وأهريمن) من بعده، وأن لكل شيء حدود يقف عندها باستثناء زروان فهو ذات غير محدودة.[٣]

كتبوا حول هذا الحكيم انه اكتشف «ميل منطقة البروج»، على أن الباحثين المعاصرين ينسبون اكتشافه للبابليين.[٤]

* * *

بعد هؤلاء الحكماء الثلاثة المعروفين من اهل جزيرة مالطة، لم يظهر هناك حكيم مشهور آخر، وانتقلت الانظار الى جزيرة اخرى في تلك النواحي هي «ساموس» حيث سار فيثاغورس كشعاع الشمس من المشرق واضاء كل تلك الانحاء، وحلت مدرسته الفلسفية ـ التي كانت تدار بإسلوب المغان الايرانيين في مدارس

---

١) تاريخ الفلسفة اليونانية، محمد مرحبا، ص ٥٢.
٢) الفلسفات الكبرى، بيير دوكاسيه، ص ١٩ (بالفارسية).
٣) راجع، العقيدة الزروانية، د. مسعود جلالي مقدم.
٤) تاريخ علم النجوم، وردن.

صامتة ورياضات بدنية وروحية، ومشاريع تتسم بالسرية والخفاء الشديد ـ محل مدرسة ثاليس، فتهافت عليها طلاب الحكمة من كل صوب.

لقد عمت امواج الحكمة الفيثاغورية الاشراقية (ومركزها مدينة كروتونا في جنوب ايطاليا) كل منطقة البحر الابيض المتوسط. ومع أن آسيا الصغْرى (تركيا الحالية) آنذاك وهي حامية تخوم الحضارة والحكمة الايرانية، تحركت بشكل متناسق تقريباً مع انتشار الثقافة والحضارة الميدية والاخمينية، وكان لها علاقاتها المباشرة مع ايران، وتعد من مستعمرات ايران، الا انها لم تكن بمنأى عن تأثيرات المدرسة الفيثاغورية. لذلك ينبغي اعتبار آسيا الصغرى يومذاك من مراكز نشر الحكمة الاشراقية الايرانية، والى هذا يعزى ظهور حكماء عظام مثل هيراقليطس من تلك الديار.

هيراقليطس

هو من الحكماء المشاهير، ولا يزال مثار جدل بسبب آرائه الغامضة الرمزية. كان من اهالي مدينة افسوس (Ephesus) في آسيا الصغرى ومن ابناء الاشراف والارستقراطيين فيها. جاء أن تاريخ ولادته ٥٣٥ ق م[١] وتاريخ وفاته ٤٧٥ ق م، بُعيد حرب القوات الايرانية مع اهالي اثينا في سالاميس. واذن فقد عاش طيلة حياته عهد سيطرة الايرانيين (منذ هيمنة كورش على آسيا الصغرى وسواحل البحر الابيض وجزره والبحر الاسود وحتى عهد داريوش) ولهذا سادت الثقافة والحضارة والحكمة الايرانية جميع تلك الانحاء.

وعلى هذا، تبدت فلسفة هيراقليطس ومبادئه الفكرية الرئيسة مستقاةً من الحكمة الاشراقية الايرانية كما سنرى. وقد جاء في التواريخ انه كان على معرفة

---

١) تاريخ الفلسفة اليونانية، محمد مرحبا، ص ١٠١.

ومراسلات مع الملك الاخميني، وقد دعاه الملك الى البلاط، الا انه كان ذا شخصية تؤثر التوحد والعزلة، لذلك اعتذر للملك.[١] مديحه للإله الايراني الواحد (الذي ربما كان هو اول من اطلق عليه اسم زيوس)[٢] وتحامله على / واستهزائه بالعقيدة اليونانية المشركة وهوميروس الشاعر الذي نظم تلك الاساطير للناس شعراً، فأضلَّ الناس على حد تعبيره، كلها مؤشرات هذا الرباط الروحي والعقيدي والعلمي الوثيق الذي شد هيراقليطس الى الايرانيين، وقد كان يعتبر آنذاك من التابعين لايران.

ذكروا ان هيراقليطس زامن حكيماً ايطالياً آخر (من منطقة ايليا) هو برمنيدس (Parmenidus). ومعروف أن هيراقليطس كان يشغل منصب المغ والكاهن الاعظم في معبد أرتميس، ويبدو أن لقب (Basileus) الذي اطلقوه عليه كان بهذا المعنى ولهذه المناسبة.

حيث ان المبادئ الفلسفية لهيراقليطس وصلتنا عن طريق ارسطو وبعض معاصريه، فقد طالها التحريف والتغيير، ومن الشائع انه اعتبر النار مادة المواد، وان الوجود رهن بالتضاد والصراع بين الاضداد، واكد ان طبيعة الوجود سيالة وكل شيء في حال حركة مستمرة فكان يقول: «لايمكن النزول الى نهر مرتين» و «لايمكن استشمام رائحة وردة مرتين».

على ان التحليل الفلسفي الدقيق لآرائه يدل على ان افكاره لم تكن ذات قيمة علمية وفلسفية وحسب، بل انها ترجع الى الاسس المشهورة للحكمة الاشراقية الايرانية، ومراده من هذه التعابير التي كانت تطلق باسلوب المغان الايرانيين بطريقة

---

١) مسار الحكمة في اوربا، محمد علي فروغي، الفصل الاول.

٢) Zeus، تعد هذه الكلمة ترجمة يونانية لكلمة زاوش.

ملغزة رمزية ومغلفة هو النقاط الاساسية لفلسفة اشاعها افلاطون وافلوطين بعد ذلك.

يمكن تلخيص اصوله الفلسفية (أو النواميس الطبيعية) بالنقاط التالية:

۱. كل شيء في هذا العالم في حال صيرورة وتحول وتغيير. ينقل عن افلاطون ان مقصوده من هذا أن لاوجود للسكون في العالم، وأن ذات العالم وجوهره انما هو حركة دائمة ثابتة.[۱]

۲. النار حقيقة أزلية أبدية يقوم الخلق عليها. والعالم (Kosmos) نار حية ثابتة. والاشياء بكل تحولاتها المادية كالماء والتراب والعناصر منبثقة من النار[۲] وتعود الى النار. والروح ايضاً انما هي نار.

۳. يتألف العالم من أضداد، ودوام العالم منوط بصراع هذه الاضداد والموجودات، والعالم زاخر بالكون والفساد، والليل والنهار، والحرب والسلام، والموت والحياة، وحين تنعدم هذه التناقضات سيفنى العالم، فصراع الاضداد هو حقيقة العالم وذاته، وهو المحافظ على الاشياء. واضداد العالم كلها حقيقة واحدة وشيء واحد ينبع من ناموس اصلي للعالم هو اللوغوس (Logos).

اللوغوس، او القانون الواحد الشامل (بمعنى الكلمة أو العقل الفعال في اللغة) هو سبب النظام الثابت والمنطقي الذي تجري كل الحركات والصيرورات وصراعات الاضداد بحكمه ومقتضاه، وهو ضمان وجود العالم وبقائه.[۳]

---

۱) موسوعة الفلسفة، عبدالرحمن بدوي. موضوع الحركة الجوهرية من اصول الحكمة الاشراقية الايرانية، ولم تكتنس هذه الفكرة مظهراً فلسفياً برهانياً حتى زمن الملاصدرا الذي اثبتها بطريقة فلسفية.

۲) القرآن ايضاً اعتبر أصل الكون من «دخان»؛ سورة فصلت، الآية ۱۱.

۳) يصر اليهود على ان فيلون هو اول من استخدم كلمة (لوغوس)، بيد ان القرائن تفيد

اسلفنا أن استيعاب فلسفة هؤلاء الحكماء غير متاح بدون التعرف على اصول حكمة الاشراق الايرانية القديمة، إذ بالتعرف عليها يتسنى بسهولة ادراك افكار هؤلاء العظماء الذين كانوا يسجلون افكارهم كما يسجلها أبكم رأى حلماً لأناس صم.[١]

ان ما نفهمه من هذه الافكار هو ما قالوه من قبله ومن بعده. مراده من النار، ليس النار المادية المحرقة، انما هي اشارة الى هوية قدسية سامقة مجردة عن المادة، ورمز لحقيقة خلاقة دائمة حية حكيمة ازلية ابدية تستغرق العالم، وتنبثق عنها كل الموجودات الاخرى حتى الماء والتراب والروح الانسانية، ثم ترجع اليها في نهاية المطاف.

فكرة اصالة النار لدى هذا الحكيم، تناظر اصالة العدد عند فيثاغورس، وخلافاً لتصورات ارسطو وسائر الفلاسفة الطبيعيين، لايراد منها مبدأ مادياً يشير الى مادة المواد، انما هي رؤية عرفانية تعيد الى الذهن عبارة «الشعلة الملكوتية» في مدرسة الملاصدرا والميرداماد، والتي تسمى في الادب العرفاني «الحكمة الخالدة» أو «النار

ان هيراقليطس نفسه أخذها عن الايرانيين، ويرى ويل ديورانت (قصة الحضارة، ج ١، ص ٤٢٥) انها «منش پاك» أو «الطبع الطاهر» المذكور في «يسنا» والتي صارت بعد ذلك (امشاسپندان)، والمراد الاصلي منها هو الحكمة الالهية (وليس العقل) حيث غدت مع الزمن بمعنى الملائكة. ان حل المشكلة يسير على الخبراء بالعرفان الاسلامي، اذ يمكن اعتبار الصادر الاول العقل الاول والنور والطبع الطاهر والملائكة المجردين والمفارقين في آن واحد، وهو ما يُعبَّر عنه ايضاً بالفيض المقدس ومقام الاسماء والكلمات التامات وكلمة الله. وبحسب يسنا فإن الطبع الطاهر أو اللوغوس باليونانية هو وسيلة خلق الكائنات، وهذا ما استخدم لاحقاً في العرفان الاسكندراني من قبل افلوطين واوريجانوس وفيلون اليهودي، وصار بعد ذلك الاقنوم الثاني في المسيحية.

١) اشارة الى بيت الشعر الفارسي: أنا ابكم شاهَدَ حُلماً والعالم كلهم صُم، انا عاجز عن الكلام والناسُ عن السماع.

التي لاتموت» وما الى ذلك من تعابير.

ونظرية التحول والحركة الدائمة للعالم (التي اطلق عليها صدرالمتألهين اسم الحركة الجوهرية)مع انها نظام وناموس كوني، الّا أن اصل هذه الحركة والصيرورة ثابت لايتغير، وهو ما اعتبره الملاصدرا جهة ارتباط الحادثات والمتغيرات بالقديم الذاتي والثابت والابدي (واجب الوجود) و (ربط الحادث بالقديم كما في المصطلح).

طائفة من الباحثين اعتبروا نظريته معارضةً لنظرية فيثاغورس والحكماء الايليين، وقالوا ان الجميع كانوا ميالين للوحدة ويعتقدون بوجود واحد ثابت، بينما اعتبروا هيراقليطس ذا نزوع الى الكثرة، وهذا خطأ، ذلك ان الحكماء الايليين قصدوا مقام صدور الموجودات والعالم، باعتباره شيئاً واحداً اطلقوا عليه احياناً اسم الانسان الكبير او الكوسموس، ونظرية هيراقليطس حول النار ترمي الى نفس هذه المرحلة والمقام، بينما نظريته في التحول لاتشمل مبدأ الوجود والمفارقات والمجردات، انما تختص بعالم المادة والموجودات المحسوسة المتزمنة.

واذا اردنا هاهنا استخدام مصطلحات الحكيم الميرداماد،[1] وجب القول ان نظرية الحكماء الايليين تختص بـ «وعاء الدهر»، بينما نظرية الصيرورة والتحرك وعدم الثبات في عالم الوجود التي اطلقها هيراقليطس تتعلق بـ«وعاء الزمان».

نظرية التضاد الدائم بين اجزاء العالم وهي بخلاف الصيرورة الدائمة، تعد بحد

---

١) يعتقد الميرداماد بنظرية «الحدوث الدهري» المعروفة والقائمة على ثلاث مراحل من الوجود: الاولى الوعاء السرمدي وهو ازلي وخاص بالله تعالى. والثانية وعاء الزمان الخاص بالمتغيرات والاشياء والحوادث المتزمنة. والثالثة وعاء الدهر الخاص بالاشياء الثابتة غير المتزمنة. لمزيد من الاطلاع راجع بحث المؤلف في العدد السابع من مجلة «خردنامهٔ صدرا» الفلسفية.

ذاتها مبدأ ثابتاً وناموساً طبيعياً، واذ اجاز تسميتها بالديالكتيك كانت مختلفة بفوارق مهمة عن الديالكتيك المادي الصرف لماركس، وعلى حد تعبير أحد الباحثين الايرانيين:

> ... وعلى العكس، فإن هذا الديالكتيك يشبه رؤية التضاد العرفاني في المذاهب الشرقية ويتجانس معها ـ لاسيما الزرادشتية والمانوية والاديان اليهودية والمسيحية والاسلام والتصوف الشرقي ـ الى حد بعيد. فمع أن العالم والانسان يقومان في هذه الرؤية على صراع الاضداد (الخير والشر، اهورا واهريمن، النور والظلام، الانسان وابليس)،[١] الا ان ثمة مبدأين ثابتين احدهما النظام التكاملي للعالم، والآخر الذات القدسية (او الجوهر القدسي الاعلى) أو الروح الخالدة المهيمنة على العالم. والواقع ان ماركس اذا كان قد قلب ديالكتيك هيغل، فإنه قد هدم ديالكتيك هيراقليطس برمته.[٢]

يستشف ان نظرية تكون الموجودات وبنائها وصناعتها بفضل التضاد، ألهمت ارسطو كي يطلق نظريته المسماة «الهيولى والصورة» مع فارق أن الصورة لاتناقض الهيولى في نظرية ارسطو، فتضادهما تكاملي يشبه التعاشق والتلاقح المعطاء اكثر مما هو شبيه بالصراع والتدافع، مثلما ان الحب والعشق في العرفان الاسلامي من عوامل التماسك والتجاذب وانبثاق الظواهر.

---

١) جاءت في الفلسفة الصينية على شكل نزاع دائم بين «يين» و «يانغ» وقد قارنتها الباحثة الدكتورة ساجيكو موراتا في كتاب «طاوية الاسلام» بالصفات الجمالية والجلالية الالهية. العرفان الاسلامي، ص ٩.

٢) الانسان والماركسية والاسلام، الدكتور علي شريعتي، ص ٣٦.

ـ النقطة الاخرى في فلسفة هيراقليطس هي موضوع اللوغوس الذي يبدو حتى من بعض عباراته هو نفسه أنه يعني «الكلمة» أو «الكلام»، لكنه يعتقد عموماً ان اللوغوس حقيقة مجردة (غير مادية) واحدة شاملة مهيمنة على العالم والقوانين والظواهر والاحداث، وهي التي تتولى تدبير العالم، ولايتسنى ادراكها بالحواس، انما يستطيع العقل البشري فقط ادراكها «لأن العقل البشري جزء من العقل الالهي».

ان القوس النازل للخلقة وحتى نهاية القوس الصاعد (الخط التكاملي النهائي للانسان والعالم) والذين يشكلان معاً دائرة، محكومان باللوغوس أو الناموس العالمي الاكبر، وجميع التحولات والتغييرات والصيرورات تحدث داخل هذه الدائرة وداخل هذا النظام الثابت. لقد جاء في القرآن تعبير «الكلمة» وجاء كذلك في انجيل يوحنا عبارة «في البدء كانت الكلمة (Logos) والكلمة كانت عند الله، وكانت الكلمة الله، كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان»[١] وفيها اشارة الى الآصرة بين القديم والحادث والواجب والممكن واللامتناهي والمتناهي، وهو من اصول المعارف الدينية.

كان لهيراقليطس كتاب وصلتنا اوراق متفرقة منه، ونخال انه كان حول الحكمة العملية وسياسة المدن، وليس في شرح الحكمة النظرية وحقائق الفلسفة ودقائقها. فهموا من كتابه أنه ضد الديمقراطية ومن انصار حكومة النبلاء (الارستقراطية)، وهو فهم نابع من عدم المعرفة بالثقافة السائدة في عصر ذلك الحكيم، ومن معالجة آرائه في ضوء ثقافة العصر الحديث.

وكما اسلفنا فإن كافة المساعي الاجتماعية والسياسية للحكماء منذ عهد فيثاغورس فلاحقاً تركزت على تكريس مبدأ «حكومة الحكماء» وزعامة العلماء

---

١) لا اعرف الاصل العبري في زمن النبي عيسى عليه السلام وقد ادرجوا هذا اللفظ في زمن ترجمة الاناجيل الى اليونانية.

ممن يتوفرون على ملاك «الفضيلة» أي الحكمة والعدالة والعلم دون الثروة أو العائلة أو السلطة أو القوة التي تتحقق تحت غطاء الديمقراطية، ولهذا كانوا يؤكدون أن اتباع الأهواء اليومية العابرة للناس خطأ يتعارض مع مصلحة المجتمع. وقد بذل سقراط روحه في هذا السبيل، بينما أرغم العديد من الحكماء مثل فيثاغورس وافلاطون على ترك أوطانهم لهذا السبب.

أطلق على هذا الحكيم اسم «الحكيم الباكي» وهذا ـ خلافاً لتصورات بعض الباحثين ـ لايتعلق بنظرته المتشائمة للعالم، انما هو اشارة الى رياضاته البدنية واعتزاله الناس وكذلك الى طبيعة افكاره وتأملاته، وهو ما ذكروه ايضاً لبعض العرفاء المسلمين.

الانتفاضات التي قامت في اليونان، ولاسيما في اثينا وبعض المناطق الشمالية من البحر الابيض، والنزاعات السياسية بين الحكام المحليين التي افضت الى طلبهم المساعدات المالية والعسكرية من ملوك ايران، جعلت الجيوش الايرانية تزحف لأكثر من مرة الى مياه البحر الابيض وتروم احتلال مدينة اثينا. ان هذه الهجمات وبسبب ان اكثر جنودها من المرتزقة المحليين وحتى اليونانيين بحيث لايمثل احتلال بضعة مدن صغيرة ـ ليس فيها اكثر من عشرة آلاف نسمة من السكان الفقراء ولا أثر فيها للثروة والكنوز ـ حافزاً حقيقياً لدى الجنود، واذا صح قول هيرودوت والمؤرخين اليونانيين، علمنا منهم ان المقاتلين الاثينيين وجيرانهم كانوا شجعاناً واصحاب تجارب في الحروب والدفاع ومستبسلين في المنافحة عن عوائلهم واوطانهم، لذلك لم تنته أي منها بانتصار الملوك الايرانيين، وقد أنشد الرواة اليونانيون ملاحم عن تلك الحروب بمناسبة حروب سالاميس ومارائون (٤٩٠ و ٤٨٠ ق م) وراحوا يذكرونها في الالعاب

الاولمبية.[١]

ان عدم توفر الامن في تلك المنطقة ـ التي كانت آسيا الصغرى بما في ذلك ايونيا (Ionic) في تركيا أحد طرفيها وطرفها الآخر هيلاس (Hellas) أو اليونان الحالية ـ[٢] ادى الى حالات رحيل وهجرة كثيرة، واجتذاب الناس الفقراء الى الكسب والرزق، والاثرياء الى انقاذ انفسهم عبر التوجه صوب الجزر والسواحل الآمنة الجديدة. ومن جملة هذه المناطق الهادئة السواحل الجنوبية لايطاليا الحالية وفيها مدينة كروتونا (التي اشاع فيثاغورس مدرسته فيها خلال النصف الثاني من حياته) وكانت فيها ايضاً مدينة ايليا (Eleat) التي ظهر فيها هي ايضاً حكماء عظام يحملون جميعاً بصمات فيثاغورس، ومن مشاهيرهم كزينوفانوس وبرمنيدس.

كزينوفانوس

كزينوفانوس (أو اكسينوفانوس Xenophanus) هو اعظم حكيم الهي بعد فيثاغورس، ومؤسس المدرسة الايلية الاشراقية، كان في الاصل من اهالي آسيا الصغرى، وقد هاجر الى ايطاليا بهدف التتلمذ على يد فيثاغورس ومدرسته.[٣] جاء أن ولادته كانت حدود عام ٥٧٠ ووفاته سنة ٤٨٠ ق م، وبهذا يكون له من العمر تسعين

---

١) من ذلك مسابقات الماراثون في الركض التي تذكّر بهزيمة ايران في ماراثون.

٢) اليونان مشتقة من ايونيا. والسبب في تسمية ارض هيلاس بـ «اليونان» هو ان الشرقيين ومنهم الجيش الايراني وصلوا اولاً الى هناك، لذلك سموا المنطقة كلها باسم اليونان، وكذلك سمى الرومان وسكان اوريا تلك المنطقة «غريك» لأن اناساً من منطقة تسمى «غريك» هاجروا اليها، وتسمى اليوم بالفرنسية Grèce و بالانجليزية Greece. والاسم الاصلي الذي يسمي اليونانيون به انفسهم هو الهيلينيون.

٣) الفلسفات الكبرى، بيير دوكاسيه، ص ٢١ (بالفارسية).

عاماً، الا ان التواريخ تشير الى ان عمره أمتد الى ٩٢ سنة.[١]

ومع ان كتب التاريخ لم تذكر تتلمذه بصراحة، بيد أن من المستبعد جداً من زاوية منطقية ان يهاجر حكيم شاب من آسيا الصغرى الى أرض بعيدة كايطاليا، ويعيش سنوات طويلة بجوار مدرسة فيثاغورس الشهيرة المثيرة للجدل، والى جانب المجمع الكبير للحكماء وتلامذتهم، وتكون الفلسفة منحاه وعقائده شبيهة بالفيثاغوريين، ولايكون قد اتصل بهم وتتلمذ عليهم.

خلافاً لاسلوب استاذه فيثاغورس وهيراقليطس والآخرين، كان هذا الحكيم في اسفار دائمة، يشيع التوحيد ويدعو اليه، ويكافح بشدة ومثابرة معتقدات الشرك المتفشية يومذاك ـ والنابعة من اشعار هوميروس وهيسيود الاسطورية ـ بل لقد كان من اجل ان يتحدث بلغة الناس المبسطة وبما يتناسب واذواقهم وفطرتهم، يتجنب استخدام التعابير الفلسفية والاستدلالات المعقدة، عارضاً افكاره في صيغة اشعار جزلة ومحببة لعموم الناس.

ويبدو من همته وجدّه في القيام بهذه المهمة النبوية ـ الشبيهة بحمل رسالة الهية ـ انه كان يعاني الكثير من المعتقدات والاوهام والخرافات الدينية في زمانه، وخصوصاً من الآلهة الوهمية التي لاتتورع حتى عن أرذل الاعمال واقبحها واكثرها فساداً وشهوانية، لهذا كان يلعن هوميروس وهيسيود الشاعرين القديمين في تلك البلاد، ويذكرهما بسوء، ويستهزئ بالناس الذين يعبدون مثل هذه الآلهة، ويقول ان الانسان يتصور إلهه كما يرى نفسه، ولو كانت الحيوانات تجيد الرسم لرسمت الله على شكلها، ولكانت الالهة التي يعبدها الناس منغمسةً في كل المفاسد الاخلاقية، بل وتُعلِّم الناس

---

١) وهذا ما يستفاد من بعض اشعاره ايضاً.

هذه المفاسد.

بعضهم اعتبر اكسينوفانوس مصلحاً دينياً، غير أن هذه الصفة يجب ان لا تنسينا مؤهلاته الاخرى كالحكمة والفلسفة والحنكة السياسية.

النقطة المهمة التي ينبغي التذكير بها مرة اخرى هي ان الحكماء السابقين لارسطو كانوا يتداولون مناهج المغان والحكماء الايرانيين والشرقيين والحكمة النظرية بشكل سري ولايعلِّمون هذه المعارف والامور الّا لمن يرتضون من تلامذتهم، فلم يتركوا من بعدهم كتاباً أو مدونات تشرح معارفهم حتى لاتقع في أيدي غير الاكفاء، أما في تعاملهم مع عامة الناس من خلال الخطابات والاشعار والكتب فكانوا يشددون على الحكمة العملية، وكان كزينوفانوس أحد هؤلاء الحكماء.

كان يقول للناس ان اهالي اثينا يولون اهمية فائقة للرياضة وتربية اجسامهم حتى تكون قوية ورشيقة، ويقيمون مهرجانات ومسابقات باسم «الالمبياد» بيد أنهم لايبالون لتربية النفس وجمالها وتقوية الروح والضمير ـ وهو الاهم والاجدى بكثير من الجسم ـ ولايعيرون هذه الامور المعنوية أهمية تذكر. ولهذا نراه يذكر الاثينيين بسوء ويستهزئ بهم.[١]

كان يدري أن الشرك وتعدد الالهة لاجذر لها سوى عبادة الناس لانفسهم واعتزاز اهالي كل منطقة بعبادة إلههم الخاص، وفي المجتمعات الاكبر تكتسب جميع الالهة الصفة الرسمية وتتمتع بمنزلة الربوبية والالوهية، وتساعد الاساطير والحكايات على تكريس هذه المعتقدات.

مايمكن استخلاصه من مرتكزاته الفلسفية مما لايتبدى بالمظهر الفلسفي

---

١) تاريخ الفلسفة اليونانية، د.محمد مرحبا، ص ٨١.

والبرهاني، هو الافكار والمعتقدات التالية:

١. الوجود هو الحقيقة الاصلية للعالم، والوجود شيء واحد (والوحدة هنا بمعنى الوحدة الحقيقية غير العددية) ليس الّا، يستغرق كل ما في العالم.

٢. الله هو أصل العالم ومصدره، وهو الذي يهب الوجود، والمنزه عن أي عيب أو نقص، والمبرأ من المكان والحركة. انه موجود في كل مكان لكنه ثابت ثباتاً تاماً.

٣. ينسب اليه انه كان يعتبر التراب مادة المواد.

يقول ارسطو في كتاب «مابعدالطبيعة»[1] انه كان يعتقد بوحدة العالم الموجود (لاوحدة الله) وبعبارة اخرى كان «مونيستياً»[2] وليس «مون تي يستياً» وهو خطأ ناجم عن ان الحكماء قبل ارسطو كانوا فضلاً عن الايمان بوحدة واجب الوجود والخالق، يرون الموجودات كلها مخلوقاً واحداً يتصورونه انساناً (هو نفسه «الانسان الكبير» في العرفان الاسلامي) وهذه عقيدة ليست غير متضادة مع الايمان بالله الواحد فحسب، بل لقد كانت نتيجتها، إذ طبقاً لقاعدة ضرورة صدور الواحد عن الواحد (الواحد لايصدر عنه الّا الواحد) كان ينبغي أن يعتبروا العقل (أو الصادر الأول الذي انبثق بالابداع الالهي من العدم المحض) واحداً، ويربطون به ويعزون اليه كل اشياء الانسان الكبير.

لو أردنا التحدث عن اكسينوفانوس بعبارة واحدة، توجّب القول انه كان حكيماً كبيراً، الا انه رغم كل عظمته في العالم القديم والحديث بقي مجهولاً، وهبط به ثلة من كتاب التاريخ الغربيين الى حدود المغني أو الشاعر الجوال أي انهم لم يستوعبوا جوهر كلامه ـ الذي يمكن الاستنتاج بقليل من التدبر والتدقيق في اركان الفلسفة الاشراقية

---

١) مابعد الطبيعة، الف ٥، ٩٨٦ ب ١٨.

٢) تاريخ الفلسفة، كابلستون، ج ١، ص ٦٠.

الايرانية، انه متسق ومتجانس مع طروحات الحكماء الاشراقيين الذين سبقوه، ومع افكار سقراط وافلاطون وحتى افلوطين ـ واطلوا عليه بمعايير وملاكات القرن العشرين.

برمنيدس

الحكيم الالهي الآخر الذي حظي بمكانة شامخة في ذلك العصر هو برمنيدس الايلي أو الايلياني (بارمنيدس Parmenidus) الذي ربما جاز اعتباره اول حكيم ايطالي. ذكروا ان سنة ولادته كانت عام ٥٤٠ ووفاته سنة ٤٧٥ ق م. وذهب فريق الى ان سنة ولادته هي ٥٠٤ ق م،[١] وهذا لاينسجم مع اقوال اخرى ترى انه كان يبلغ سن الكمال[٢] في الاحتفال التاسع والستين للاولمبياد (أي ما بين ٥٠١ و ٥٠٤ ق م). كما روى البعض انه كان يبلغ الخامسة والستين في نحو٤٤٩ ـ ٤٥٠ ق م حينما تحاور مع سقراط ووضع القوانين لمدينة ايليا،[٣] وهذا ايضا لايتطابق مع التاريخ المشهور، انما يتطابق مع سنة ٤٧٥ التي صرح بها فريق آخر.

يقال أن برمنيدس كان من عائلة ارستقراطية من مدينة ايليا، وكان يعيش محترماً، وكما ذكرنا فقد وضع القوانين لادارة مدينة ايليا. وعلى غرار ما قلناه عن استاذه اكسينوفانوس، يبدو جلياً ويقينياً الى حد كبير انه تأثر هو الآخر بفيثاغورس والفيثاغوريين، وقد روي عن سوتيون (الحكيم الذي عاش قبل ميلاد المسيح بقرنين) ان برمنيدس كان فيثاغورياً.[٤] وهذا ما نجد لصالحه ادلة في معتقداته الفلسفية.

---

١) تاريخ الفلسفة عند المسلمين والعرب، حنا الفاخوري وخليل الجر.
٢) المفكرون اليونانيون، غمبرتس.
٣) تاريخ الفلسفة، كابلستون، ج١، ص ٦١ (بالفارسية).
٤) تاريخ الفلسفة، كابلستون.

وقيل ان رجلاً فيثاغورياً اسمه امينياس (Ameinias) شجعه على اكتساب الحكمة،[١] واذا نظرنا لتاريخ الفلسفة ومسار الحكمة، وهي الحكمة الاشراقية آنذاك، كتيار متواصل مترابط خلافاً لمناهج المؤرخين الغربيين حيث يدرسون كل واحد من الحكماء بشكل منفرد ومنفصل عن المسار التاريخي للحكمة في العالم، سيتجلى بكل وضوح ان الشعبة الفيثاغورية من الحكمة الاشراقية لم تقتصر على مدينة كروتونا في جنوب ايطاليا، بل تمددت الى مدينة ايليا والمناطق الاخرى هناك، وقد بلغت شهرة الفيثاغوريين حتى مدينة اثينا والمدن المحيطة بها، وهذا ما اجتذب سقراط الى تلك النواحي[٢] وقد كان برمنيدس ومن سبقه ومن تلاه من الحكماء حتى زمن ارسطو كلهم تلامذة مدرسة فيثاغورس واتباعاً للحكمة الاشراقية الايرانية، رغم ان هذا الكلام يشق كثيراً على المتعصبين الغربيين.

برمنيدس حكيم حقيقي له رسالته، وقد كان على غرار الحكماء القدماء ضالعاً واستاذاً في الحكمتين النظرية والعملية على السواء، وكان يرى لنفسه مسؤولية اجتماعية، فعاش مع الناس وبين ظهرانيهم، وتحدث اليهم بلغتهم وبلسان الشعر. وقد ترك منظومات جميلة باللغة اليونانية، فقد كان الناس في تلك المناطق يومذاك ـ وفيهم الكثير من اليونانيين المهاجرين ـ يتكلمون باللغة اليونانية رغم أن حضارتهم مستوردة من الشرق. وقد تحدث برمنيدس في منظوماته عن اصول الفلسفة الاشراقية كالوجود والنور، واستعرض مفاهيم وافكاراً اخلاقية.[٣]

---

١) المفكرون اليونانيون، غمبرتس.

٢) تاريخ الفلسفة، برتراند رسل، ص ١١٢ (بالفارسية).

٣) اللغة اليونانية المستخدمة في قصائد الشعراء في ذلك العهد ويونانية اسمائهم يجب ان لاتعد دليلاً على يونانية اولئك الشعراء، وهذا نظير الاسماء العربية التي حملها

ان طبيعة تعامل الحكماء الايليين مع الناس في بيان العقائد التوحيدية والفلسفية ومكافحة افكار الشرك القديمة في اليونان وكل تلك النواحي، تدل على ان تلك المدرسة كان لها برامجها وتنظيمها ومناهجها التنفيذية، فكانت تسير لحرب الاساطير الهومرية والهيسيودية بخطط مدروسة ومنظمة، ومن هذه الخطط والاساليب اسلوب الشعر والقصائد المنظومة، كي يستطيعوا باعجاز الشعر ابطال سحر ذوي النزعة الاساطيرية، وازاحة ما لملاحمهم من آثار اجتماعية ونفسية في القلوب. الا ان سقراط حينما جاء من بعدهم غيّر منهجه بسبب ان مناهضي افكار الناس وعقائدهم لم يكونوا من رجال الشعر والمعلقات، بل من أهل السفسطة وسحر البيان. فاستخدم سقراط لمواجهتهم اسلوب الجدل والبرهان ليفضح اخاديعهم ومغالطاتهم.

كان برمنيدس شاعراً قديراً، وقد ترك قصائد اشار فيها اشارات رمزية مغلفة الى بعض قواعده الفلسفية التي تنفع الناس، وتبعاً لطبيعة الشعر فقد اكتضت قصائده بالتشبيهات والاستعارات ما أدى احياناً الى سوء فهم واخطاء وقع فيها فريق من الباحثين الغربيين لم يكونوا موفقين في إدراك مراميه.

في احدى قصائده يشير الى رحلته الروحية الشبيهة بالمعراج الى عالم النور وماوراء المادة، مقترباً فيها من خلسات افلوطين وشيخ الاشراق والميرداماد. يقول:

اركبتني آلهة الشعر على عربة فاخرة، واخذتنا بنات الشمس (النجوم أو أشعة الشمس) الى السماء، وبلغن بنا مدينة النور والضياء المحض.

إله العدالة (ديكيه)بوّاب قصر النور الذي يمسك مفتاح ذلك المكان بيده

المسلمون الايرانيون وغير الايرانيين، والتي لا تعتبر دليلاً على عروبتهم، بل جاءت بسبب شياع تلك اللغة وانتشارها.

الحديدية، لم يسمح لنا بدخول تلك المدينة، لكنه فتح البوابة بإلحاح بنات الشمس تلكم، فدخلنا المدينة ورحّبت بنا الآلهات هناك، ولقّنني العلم اللدني والشهودي (لا العلم الاكتسابي الارضي) واستطعتُ ادراك حقيقة الوجود.

جميع هذه الاستعارات معروفة الى حد كبير بالنسبة للمطلعين على الحكمة الاشراقية، فهم يستوعبونها ويدركونها ويدركون إلماحاتها الفلسفية. وقد كان لحكماء آخرين نظير هذه الرحلات والخلسات عبر خلع البدن والتجريد الارادي للنفس عن البدن، وقد ادركوا عن هذا الطريق حقائق العالم، والأهم من كل شيء «رمز الوجود» بالشهود والعلم المباشر. وبديهي أن النور في الحكمة الاشراقية ليس بالنور المادي، وهذا ما استدرج فلاسفة الغرب الى كثير من الاخطاء، ولعل الوحيد الذي وفّى كلام برمنيدس هذا حقه وادرك مغزاه هو هايدغر الذي أطراه لأنه كان عارفاً بالمفهوم الفلسفي للوجود والنور.

يميز برمنيدس في مقطوعته الشعرية هذه بكل دقة وشاعرية بين الوجود الحقيقي الذي لاسبيل للعدم والامكان والفقر اليه، وبين وجود الممكنات المادية الذي يسميه البعض «ظاهرات» (Phenomen)، واعتبر قصر النور منفصلاً عن «بوابة الليل والنهار» وهذه واحدة من قواعده الفلسفية. وبالمقدور تلخيص القواعد الفلسفية الرئيسة لبرمنيدس بالنحو التالي:

١. الوجود يستغرق العالم بأسره.

٢. الوجود الحقيقي والعدم لايجتمعان ولاينسجمان.

٣. لامكان للعدم في الوجود، والوجود لايميل الى العدم اطلاقاً (لأنه لايفارق ذاته وذاتياته).

٤. العدم لايحصل من تلقاء نفسه.

٥. الوجود حقيقة بسيطة وغير محدودة (لاجزء لها ولا نهاية).

٦. الوجود ثابت ولا سبيل للصيرورة اليه.

يمكن التعبير عن اشارات فلسفة برمنيدس ورموزها بلغة فلسفية على الشكل التالي: ان حقيقة الوجود (وليس مفهومه الذهني) لايقبل العدم في ذاته (واجب الوجود) وهو أزلي وأبدي وثابت و «أحدي الذات» أي لاثاني له، وليس له وحدة عددية، وهو واجب لاسبيل للامكان وشبهة العدم اليه. كما انه نور (كونه الوجود ذاته وسبب وجود الاشياء الاخرى وظهورها).

والعلاقة بين هذه الحقيقة الواجبة الوجود وبين سائر الموجودات متساوية تماماً (ففيضها يعم الجميع بالتساوي) وهي بذلك تشبه مركز الكرة (التي اعتبرها القدماء أكمل الاشكال الهندسية) الذي يبعد بمسافات متساوية عن نقاط كل دائرةمن دوائر الكرة.[1]

لم يرفض برمنيدس مبدأ الصيرورة في الموجودات المادية، انما نزه عنه الوجود المطلق، وقال ان الحركة في الموجودات ناجمة عن شعورنا لا عن العقل. وبتعبير آخر الكثرة والتفرق يختصان بالعالم المادي، وعلى حد القول المعروف للفلاسفة «المتفرقات في وعاء الزمان مجتمعات في وعاء الدهر».

رغم الصراحة التي تسود افكار هذه المدرسة، الا ان تصورات الفلاسفة الغربيين لها تشعبت وتنوعت، فذهبت طائفة الى أن برمنيدس مؤسس «اصالة العقل» واعتبره

---

١) مثل هذا التعبير نجده لدى حكماء اشراقيين آخرين منهم افلوطين (في التساعيات) والميرداماد.

البعض مادياً أو احادي النزعة (مونيست).[١] وروي عن ارسطو ان برمنيدس وحّد بين الشعور والفكر، وساوى بينهما وبين الوجود.[٢] وقال فيلوبونوس أحد شراح آثار ارسطو في شرحه لمقولة ارسطو هذه إذ يخاطبه: «يا ارسطو، لقد أسأت فهم الشعر (أي مقولة برمنيدس)»[٣] وكما أسلفنا فإن الادراك العميق والصحيح لحكمة الاشراق يتطلب معرفة وذوقاً سليمين.

زينون

بعد برمنيدس سهر اثنان من تلامذته على الحكمة الاشراقية، ودافعا عن افكار استاذهم الذي تعرض لعاصفة من النقد والمؤاخذات أطلقها ضده المتطفلون على الحكمة في زمانه.

التلميذان هما زينون الايلي (Zenon) ومليسوس الساموسي (Melissos) الذان أشاعا معتقدات اساتذتهم. والمؤسف أن هؤلاء الحكماء لم يتركوا آثاراً واضحة، ومعظم افكارهم هي ما رواه عنهم ارسطو في مؤلفاته بشكل قد يكون صحيحاً أو غير صحيح.

سجلوا ولادة زينون في عام ٤٩٠ أو ٤٩٥ ق م، ووفاته في سنة ٤٣٥(أو ٤٢٠ ق م). وقد أذاع صيته في تاريخ الفلسفة برهانه أو مفارقته المعروفة بشأن انكار الحركة. فقد نسبوا اليه برهاناً يقول ان العدّاء السريع لن يصل الى خلف حجر، والسهم المارقُ في الهواء لن يصيب الهدف اطلاقاً اذا اعتبرنا اجزاء المكان لها اجزاؤها الاصغر الى ما لانهاية .

---

١) تاريخ الفلسفة، كابلستون، ج ١، ص ٦٢.

٢) الميتافيزيقا، ١٢ ب ٩ ١٠٠٠، ٣، في النفس ٢١ / ٦٢٧.

٣) فلاسفة اليونان الاوائل، الدكتور شرف الدين خراساني، ص ٣٠٩.

يرى بعض الباحثين الغربيين ان هذا البرهان أراد عن طريق تضاد نتيجته الحسية مع الواقع (برهان الخلف) أن يدحض مبدأ الحركة لدى هيراقليطس. وذهب فريق آخر من الباحثين الى أن نظريته هذه تمثل دحضاً لنظرية فيثاغورس ولتشكيل الاشياء من نقاط هندسية لانهاية لها وغير متقدِّرة ولا متكمِّمة، أو قل: تشكيل الاشياء من «الكثرة»، وذلك من أجل اثبات نظرية الوحدة لدى برمنيدس.

وتوخى فريق آخر اثبات أن غايته من هذا البرهان هو أن التعارض بين الاحكام الحسية والعقل أي البرهان العقلي، انما يثبت السكون وعدم الحركة، بينما المشاهدة والحس يثبتان الحركة. وقد كان ذلك لأجل اثبات نظرية برمنيدس التي تساوي بين الحقيقة ومكتسبات العقل، وتؤكد أن عالم الحس ما هو الّا ظلال من أوله الى آخره.

على ان هذا التصور برأينا غير صائب، وهو ضرب من التسطيح والتقليد الاعمى لطروحات أرسطو، فأولا: يثبت برهان الخلف لزينون ان انكار الحركة انكارٌ للواقع. واذن فمبدأ الحركة سواء في الوضع وسائر الاعراض، أو في الجوهر (نظرية هيراقليطس) حقيقة لاسبيل لانكارها، لأن انكارها يفضي الى تناقضات خطيرة.

ثانياً: يبدو أنه اراد اثبات احد الاصول الاصلية للحكمة الاشراقية أي اصالة «الحركة القطعية» وانتزاعية «الحركة التوسطية» وهو الاصل الذي اثبته الميرداماد والملاصدرا بالبراهين الفلسفية. ويستشف ان مراد برمنيدس ايضاً من «الوحدة الاتصالية لحقائق العالم» هي الوحدة الاتصالية للجوهر في حركته الذاتية نحو التكامل، والتي لاتنسجم مع الاذعان لاصالة الحركة التوسطية والاجزاء الحقيقية اللامتناهية للزمان، وتفضي الى نظرية «الكون والفساد»، وهو ما جعل بعض الفلاسفة

المسلمين ومنهم ابن‌سينا ينكرون الحركة في الجوهر.

يعتقد الحكماء الاشراقيين ـ ومنهم الحكماء الايليين ـ أن وجوْد الموجودات والممكنات له وحدة ومسار على خط متصل، وله «وجود وحداني» ولايتسنى ادراك او اثبات هذه الحركة بالحس، انما يمكن ادراكها واثباتها عن طريق التعقل والبرهان العقلي.

وبهذا فإن زينون وتبعاً لاساتذته، لاينكر الحركة الخارجية المتصلة، وليس هذا وحسب، بل ويعتبرها «وحدة» بلا اجزاء، ويوافق هيراقليطس والحكماء الايونيين الذين قرروا للموجودات المادية حركة جوهرية دائمة.

مليسوس

التلميذ الآخر الذي تخرج من مدرسة الحكيم الاشراقي هذه[١] هو مليسوس الساموسي، ويقال انه كان أحدث عمراً من زينون واصغر منه بعشرة اعوام.[٢] انه الرجل الذي تولى قيادة القوات في ساموس عند هجوم بيركليس الاثيني عليها وألحق بقوات بيركليس هزيمة نكراء في معركة بحرية، واقتاد الاثينيين اسرى وعبيداً.[٣] جدير بالذكر ان أهالي ساموس كانوا تابعين لملك ايران، وكما ذكرنا بشأن علاقة هيراقليطس بالملك والبلاط في ايران، من المحتمل ان تكون هناك علاقات صداقة ربطت حكماء ساموس بالبلاط الايراني ولاسيما المغان الايرانيين.

ذكر البعض انه اختلف عن استاذه في المرتكزات الفلسفية، فطفق من أجل

---

١) المفكرون اليونانيون، غمبرتس، ص ٢٠٢ (بالفارسية).

٢) تاريخ الفلسفة، اميل برييه، ص ٨٣ (بالفارسية).

٣) حياة المشاهير، پلوتارخُس، ج ١، ص ٤٤٩ (بالفارسية).

انكار الفراغ (عقيدة برمنيدس) يثبت ان الوجود غير ذي نهاية في الزمان والمكان.[١] ينقل عنه قوله أن ادراكنا الحسي اذا كان يصدقنا الخبر بخصوص الاشياء في العالم ومعرفتها، ويكشف لنا عن الحقيقة، وجب ان يكون ادراكنا الاول صحيحاً دائماً، أما التغيرات والتحولات الاخرى للاشياء فهي بخلاف الحقيقة، ولأن تغيرات الموجودات حقيقية، ستكون النتيجة أن ادراكاتنا الحسية ليست دقيقة أو صحيحة، ونحن لا نرى الموجودات ولا نعرفها.[٢] كما ان «الوجود الحقيقي ازلي وابدي، لأنه لو كان حادثاً وجب ان يحصل الوجود من العدم (وهذا محال) ولأنه ليس بحادث فهو قديم أزلي وأبدي (إذ أن حقيقة الوجود لاتنقلب الى نقيضها) ولأنه غير حادث فإنه لن يزول» كما ان «الوجود الابدي والسرمدي يستلزم الكمال واللانقص وينبغي ان يكون لامتناهياً».[٣]

من مجموع هذه الاقوال يتضح للمطلعين على حكمة الاشراق، ان مراده من الوجود والموجود، هو وجود واجب الوجود، ومراده من نقص الادراك الحسي هو تصنيف هذه الادراكات في المرتبة الثانية بالنسبة الى الادراكات الحقيقية العقلية التي يمكن تسميتها «الاتصال بالعقل الفعال» او «العلم الحضوري» أو الشهود والادراك المباشر. ان هذا الحكيم لم يكن على خلاف مع استاذه، بل لقد كانت نظريات اغلب حكماء ذلك العهد، اي جميع الاشراقيين، مؤازرةً لبعضها، وانما بعض التعارضات الظاهرية في آرائهم هي التي جعلت الرواة ينظرون لكل واحد منهم بنحو منفصل عن الآخر، ولم يولوا اهمية الّا لواحدة من القضايا والافكار التي طرحها كل واحد.

---

١) م س.

٢) مسار الحكمة اليونانية، ورنر، ص ٢٧ (بالفارسية).

٣) المفكرون اليونانيون، غمبرتس، ص ١٨٨ (بالفارسية).

امبادوقليس

الحكيم الآخر المشهور من تلك المنطقة هو أمبادوقليس الذي عرف بين المسلمين باسم انباذوقلس أو ابيذقليس. كان في الاصل من اهالي جزيرة صقلية من مدينة اكراجاس[١] أو جيرجنتي. كتبوا ان وفاته كانت في سنة ٤٣٥ ق م وولادته في عام ٤٩٤ ق م.[٢] كان ابن عائلة ارستقراطية يحبها الناس، ومن المعروف انهم طلبوا من امبادوقليس ان يكون ملكاً على مدينتهم فرفض.

يعد من كبار الحكماء والمفكرين خلال المرحلة التي سبقت سقراط، بل كان ممن ألهموا سقراط افكاره. يعتبره القفطي من الحكماء الخمسة،[٣] ويتفق مع الشهرستاني على انه كان معاصراً للنبي داود، وقيل انه كان على صلة بلقمان الحكيم ايضاً، وقد توجه لطلب الحكمة الى الشام (سورية وفينيقية).[٤]

وقد ذكره صدرالمتألهين مراراً في كتبه (بما في ذلك كتاب الحدوث)، واعتبره كأسلافه من مقتبسي أنوار علم الانبياء،[٥] وقام بتفسير وتسويغ آرائه وباقي حكماء ذلك العهد بصورة صحيحة.

رويت عنه بعض العجائب من قبيل شفائه بعض المرضى بل وحتى احيائه للموتى، واعتبره البعض نبياً والبعض ساحراً، ومعروف انه ذهب الى جبل بركان اثينا واختفى هناك أو أنه صعد الى السماء. وقال البعض أنه توفي ودفن في بلوبونيز

---

١) اجرجنتم Agrigentum الحالية ـ جيرجينتي Girgenti في ايطاليا.

٢) تاريخ الفلسفة، اميل بريبه، ص ٨٤ (بالفارسية).

٣) تاريخ الحكماء للقفطي، ص ١٥.

٤) الملل والنحل للشهرستاني، ج ٢، ص ٢٥٦.

٥) رسالة في الحدوث، الملاصدرا، ص ١٤، ١٥، ١٥٥، ١٥٧، ١٦٦.

(اليونان) مريضاً وله من العمر ستون عاماً.[١]

كان ينظم الشعر ويعرض دروسه ومواعظه الحكمية للناس على شكل استعارات وبيان شعري حتى ينتفع كل فرد منها بمقدار فهمه واستيعابه. وقد كان له خمسة آلاف بيت في ديوانه تتوزع الى قسمين: «الطبيعة» و«التطهير» أو التهذيب.

من حيث الآراء الفلسفية قيل انه جمع بين عقائد الحكماء السلف، فمثلاً لم يؤمن بعنصر واحد، بل بالعناصر الاربعة: الماء والتراب والنار والهواء، وقال انها كلها قديمة. كما انه اكد الحركة الدائمة للجواهر والصيرورة والتحول المستمر للعناصر.[٢] البعض اعتبره فيثاغورياً، ولكننا كما عرف القارئ منهجنا، نعتبر جميع الحكماء الالهيين من بعد فيثاغورس اتباعاً لمدرسته، فهم حكماء اشراقيون، وليس هذا الحكيم الشبيه بالانبياء استثناءً لهذه القاعدة.

كان يقول حول هذا العالم انه لم يصنع من عنصر واحد، انما هو تركيب من العناصر الاربعة الموجوة في الطبيعة والتي تجتمع وتتمازج مع بعضها بدافع من المحبة والمودة والانجذاب فيما بينها، أو انها تتجزأ وتنفصل عن بعضها بسبب العداء والضغينة والنفور. فالجذب والنفور أو المحبة والضغينة هي السبب في تكون الاجسام وبقائها، أو اضمحلالها وفنائها، فالعالم تصنعه المحبة والنفور.

عرفت هذه النظرية بين الحكماء المسلمين باسم نظرية «الاتفاق والصدفة». ونسب اليه انه لم يقرر سبباً ـ داخلياً أو خارجياً ـ في تشكيل الاجسام من العناصر. وقد تطرق الفلاسفة المسلمون[٣] في كتبهم لأدلة «الصدفة والاتفاق» وردوا عليها.

---

١) المفكرون اليونانيون، غمبرتس، ج ١، ص ٢٤٩ (بالفارسية).

٢) تاريخ الفلسفة اليونانية، د. مرحبا، ص ١١١ و ١١٢.

٣) راجع كتب الملاصدرا: شرح الهداية، ص ٢٤٢، طبعة حجرية، الاسفار الاربعة، ج ١،

عالج الملاصدرا هذه النظرية في مبحث «الغايات» والرد على «البخت والاتفاق» في كتاب الاسفار الاربعة، وقال:

> اما انباذقلس فزعم ان تكون الاجرام الاسطقسية بالاتفاق، فما اتفق ان كانت هيئة اجتماعية على وجه يصلح للبقاء والنفس بقي، وما اتفق ان لم يكن كذلك لم يبق... .[١]

ويبرر صدرالمتألهين هذه النظرية في موضع آخر من نفس الكتاب قائلاً:

> وأما الذي نسب الى انباذقلس الحكيم وانه قائل بالبخت والاتفاق، فالظاهر ان كلامه مرموز على ما هو عادته وعادة غيره من القدماء، جيث كتموا أسرارهم الربوبية بالرموز والتجوزات.[٢]

فهم حكماءُ المسلمين من كلامه هذا ان افعال ذات الباري بلاهدف ولا غاية، وقالوا انه يسمي الامور «اللاحقة بماهيات لغيرها» أموراً اتفاقية، ويقول صدرالمتألهين لعله قصد أن ماهية العالم بلاغاية، ذلك ان الموجودية الحقيقية انما هي من نصيب «الوجود» والغايات بدورها من حق الوجودات لامن حق الماهيات.

وينسب القفطي نظرية اخرى لامباذوقليس فيقول:

> والمشتهر من أمر أبيذقليس انه أول من ذهب الى الجمع بين معاني صفات الله تعالى و أنها كلها تؤدي الى شيء واحد وأنه وصف بالعلم والجود والقدرة... .[٣]

ص ٢١٠، ج ٢، ص ٢٥٤؛ ج ٥، ص ٢٣٩.

١) الاسفار الاربعة، ج ٢، ص ٢٥٤.		٢) م س، ج ١، ص ٢١٠.

٣) تاريخ الحكماء، القفطي، ص ١٥.

ديمقريطس

الحكيم الشهير الآخر في تلك الحقبة هو ديمقريطس (Drmocritos) الذي ذكر في كتب المسلمين باسم ذيمقراطيس أو ذيمقريطس. وهو من مدينة آبدرا[١] في جزيرة مالطه. قيل ان ولادته كانت في عام ٤٦٠ ق م وانه عمّر طويلاً، ويبدو انه توفي سنة ٣٦١ أو ٣٧٠ ق م. عاصر سقراط وكان اصغر منه بعشرة اعوام. كان استاذاً لابيقور وتلميذاً للوقيبوس، وقد سافر الى مصر وبابل والمشرق عدة مرات وحضر دروس ومجالس العديد من الحكماء والعلماء هناك، وكان يقول: «لم يسافر أحد اكثر مما سافرت، ولم يصاحب العلماء ويسمع كلام أهل المعارف بمقدار ما فعلت أنا».[٢]

كتبوا انه توجه مرات عديدة الى مصر وبابل،ولهذا من المستبعد ان لايكون قد عاش في ايران فترة من الزمن، اذ نعلم انه وصل الى الهند والتقى بالحكماء الذين عرفوا بالحكماء العريانين، وكان ضالعاً في الهندسة، وكانت ايران طريقه الوحيد من بابل الى بلاد الهند.

اعتبروه خطأً فيلسوفاً مادياً، ذلك انه كان يعتقد بالاجزاء الصلبة غير المرئية وغير القابلة للتقسيم، والتي سميت في اليونانية (Atomos) بمعنى غير القابلة للتقسيم (الذرات) وهي النظرية التي راقت المتكلمين المعتزلة فيما بعد واطلقوا عليها اسم «الجوهر الفرد».

نسبوا اليه انه اعتبر الجسم مركباً من ذرات لاتقبل التقسيم عملياً، رغم امكانية تقسيمها في العقل أو في الواهمة.

---

١) Abdera، آبدرا، وقد اعتبرها البعض في تراقيه (تراكيا).

٢) تاريخ الفلسفة، اميل برييه، ص ٩٦ (بالفارسية).

أصاب ديمقريطس شهرة واسعة بين فلاسفة المسلمين بفضل نظريتيه المعروفتين في تكوّن العالم، وقد انبرى المشاؤون المسلمون مثل ابن‌سينا ـ تبعاً للتصورات السطحية لارسطو والمشائين ـ لنقدهما والرد عليهما، وقد تناول صدرالمتألهين وتلاميذه هاتين النظريتين في كتبهم.

احدى هاتين النظريتين هي تشكل الاجسام من ذرات صغيرة لاتنقسم، والنظرية الثانية تقول ان العالم المادي تكون بالصدفة ـ أي بلا قاعدة أو نظام خاص ـ من اجتماع تلك الذرات الى بعضها. وبعبارة اخرى فإن الصدفة أوجدت عن طريق الارتدام المتكرر والمتنوع للذرات اجساماً معينة، وما النظام الحالي ـ الذي هو تتمة لذلك اللانظام ـ الّا نتيجة لتلك الصدفة والارتدام والاجتماع بين الذرات اللاواعية. يستعرض الملاصدرا نظريته هذه بالنحو التالي:

> زعم ذيمقراطيس أن وجود العالم انما يكون بالاتفاق وذلك لأن مبادىء العالم أجرام صغار لاتتجزأ لصلابتها، وهي مبثوثة في خلاء غير متناه، وهي متشاكلة الطبائع، مختلفة الاشكال، دائمة الحركة، فاتفق أن تصادمت منها جملة واجتمعت على هيئة مخصوصة فتكون منها هذا العالم. ولكنه زعم أن تكون الحيوان والنبات ليس بالاتفاق.[1]

* * *

الحكيم الآخر المعاصر له هو لوكيبوس (أو ليوكيبوس Leucippus) المالطي، الذي اشتهر لدى المسلمين باسم «لوقيبوس». كان استاذاً لديمقريطس، الّا أن ارسطو اعتبره تلميذاً وصديقاً لديمقريطس. وقال البعض انه من اهالي إيليا، بيد أن الثابت هو

---

١) الاسفار الاربعة، ج ٢، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤.

انه عاش في إيليا و تعلم الحكمة عند زينون. آراؤه حسب المشهور هي نفس عقائد ديمقريطس، فهو يرى انه لايوجد في العالم سوى كتلة لامتناهية من الذرات تستمد منها عوالمُ كثيرة مادتها اللازمة، وهي عوالم قد تظهر تزامناً مع تلك الكتلة أو في زمن لاحق.[١] وقيل أن هذه العبارة من اقواله: لاشيء ابداً يحدث بالصدفة، إنما يحدث كل شيء لعلة ولضرورة.[٢]

وهذه نظرية قريبة في مضمونها من نظرية تشكيل المجرات والنجوم الكبرى والصغرى من سحب أو من كتل تكاثفت من الذرات السماوية.

الذريون

في ضوء نظريات لوقيبوس وديمقريطس شبه المادية، وبسبب تلميذهما ابيقور الى حدما، قرر لهم الباحثون مدرسة خاصة باسم المدرسة الذرية واطلق عليهم اسم «الذريون».

من معالم هؤلاء الحكماء ان آراء الحكماء الذين سبقوهم ـ بكل ما فيها من تعارضات نقرؤها في كتابات الغربيين ـ تتصالح في هذه المدرسة وتظهر على شكل نظرية ذات أجزاء متسقة، وعلى حد تعبير الكتاب الغربيين فقد جمعت بين التفكير الايوني، والافكار الفيثاغورية، ومعتقدات الحكماء الايليين، وهذا ما يؤيد قولنا أن هؤلاء الحكماء لم يكونوا في الحقيقة اصحاب افكار ومعتقدات متناقضة، انما جمعتهم سلسلة وتيار تاريخي حكمي واحد هو مسار الحكمة الاشراقية المتوارثة عن فارس

---

١) تاريخ الفلسفة، اميل برييه، ص ٩٦ ـ ٩٧؛ تاريخ الفلسفة اليونانية، د. مرحبا، ص ١١٩.

٢) نقلاً عن آتيوس ٢٥، ١؛ ديلز B2 ٦٧؛ فلاسفة اليونان الاوائل، د. شرف الدين خراساني، ص ٤٣٥.

وايران؛ والشرق عموماً.

يقال ان ديمقريطس أدرك في أيام شيخوخته سقراط الحكيم ولقي افلاطون، وكما ألمعنا فقد سافر الى بلدان الشرق كمصر والعراق وايران وربما الهند. وعلى حد تعبير أحد مؤرخي الفلسفة فإن «اثره كان بحكم موسوعة كبيرة تُناظر موسوعة ارسطو».[١]

النقطة التي يتعين الالفات اليها هنا هي أن الحكمة الاشراقية في الزمن القديم كانت مجموعة متنوعة من الفلسفة والعلوم المختلفة والاخلاق العملية، الا ان هؤلاء الحكماء المعروفين ركزوا على ابعادها الاخلاقية والسياسية (تربية الافراد تربية صالحة وادارة المجتمع بطريقة مميزة) فمثلاً تبرز السياسة والاخلاق في آثار سقراط وافلاطون اكثر من الامور الاخرى، ولكن كما سنذكر في الفصل الخاص بحياة ارسطو وافكاره، فقد كان لارسطو ذوق ومنحى مادي، وكان «علموياً» (ساينتيست) اكثر منه فيلسوفاً. ولهذا كان يطل على آراء الحكماء من زاوية مادية وفي ضوء العلوم الطبيعية، وكان يطرح اولئك الحكماء الالهيين الاشراقيين المبرزين على انهم مجرد علماء طبيعة، بل حتى باعتبارهم مفكرين ماديين. ومثلما سمعنا قبل هذا على لسان أحد شراح كتب ارسطو فقد كان يحرف افكارهم بعض الشيء عن قصد أو عن غير قصد.

انكساغوراس

قبل ان ننتقل الى سقراط والسفسطائيين، يتوجب ان نذكر حكيماً آخر ذائع الصيت هو انكساغوراس (Anaxagoras). ولد هذا الحكيم في حدود سنة ٥٠٠ ق م بمدينة قلازامين [قلازامينا = كلازوميني] (Clazaminea) من مدن تركيا الحالية (آسيا

---

١) الفلسفات الكبرى، بيير دوكاسيه، ص ٢٦ (بالفارسية).

الصغرى) وتوفي بعد ٧٢ سنة[١] في عام ٤٢٧ (أو ٤٢٨ ق م) بمدينة صغيرة تدعى لمبسكس من توابع مالطة في آسيا الصغرى.

ولد انكساغوراس في عائلة ارستقراطية ثرية، وكان من اشراف مدينته واثريائها. ورغم نصيبه من الثراء الاّ أن شوقه لطلب الحكمة جعله لايطيق البقاء في موطنه، فهاجر وساح، ولأنه كان يعتبر من التابعين للدولة الايرانية وله علاقته الوطيدة بالحكومة الايرانية، يُستشف أنه زار ايران وربما مكث مدة من الزمن في مستهل رحلته عند فيثاغورس بمدينة كروتونا، ثم قصد مالطه ومصر وبابل فايران، وعاد الى مدينته بعد أن بلغ طور النضج العلمي.

كان بيركليس هو الحاكم في اثينا يومذاك. ومع أنه كان من النبلاء، ولكن بما انه درس الحكمة في شبابه واكتسب عند زينون ثم انكساغوراس ابرز تعاليم الحكمة (وهي الحكمة العملية أي السياسة والاخلاق وتدبير شؤون المجتمع وحتى فن الخطابة وقيادة الجيوش) فقد غلب عليه حب العدالة والناس، وكان ذا اقوال وافعال حكمية، وبهذا كانت العشرون عاماً التي حكم فيها اثينا وسيطر على قواتها البحرية، فترة رخاء واعمار مضافاً الى اجتماع الحكماء والشعراء والرسامين والنحاتين والمعماريين في اثينا.

---

١) لو اخذنا بقول افلاطون (تاريخ الفلسفة، اميل بربيه، ص ٨٨) انه مكث عند بيركليس ٣٠ عاماً، فبالنظر الى أن حكومة بيركليس بدأت في سنة ٤٤٩ ق م و كان لانكساغوراس آنذاك ٥١ سنة، وجب أن تكون نهاية عمره بعد سنة ٤١٩ ق م ببضع سنين أي بعد سقوط بيركليس بعشرة اعوام. أو أن يقال أنه ذهب لاثينا قبل عشرة اعوام من حكومة بيركليس، والأصح أن يقال أنه كان هناك لمدة عشرين سنة أي بمقدار فترة حكومة بيركليس (٤٤٩ ـ ٤٢٩ ق م).

استطاع هذا الحاكم الحكيم ان يقيم حكومة القانون في اثينا بمعونة الحكمة، وأن يؤسس مجلساً يحول آراء اكثرية الناس الى قوانين يعطيها للحاكم كي يطبقها. ومع انفتاح المناخ السياسي والاجتماعي تمتع عامة الناس في اثينا (وحتى مواطنو الدرجة الثانية من غير الاثينيين، وحتى العبيد الى حدما) لا بحرية العقيدة والتعبير عن الرأي والمساواة حيال القانون وحسب، بل تم ايضاً على غرار كل المجتمعات الحرة الاخرى تشجيع العلوم والآداب والخطابة والبلاغة، وتوجه الشباب لدراسة الحكمة (بما فيها علم السياسة وفن البلاغة التطبيقية أي الخطابات السياسية). بهذا يمكن اعتبار فترة حكم بيركليس اول بوارق الديمقراطية في اليونان التي تحققت بفضل الحكمة.

انكساغوراس الذي قصد اثينا ربما بدعوة ورجاء من بيركليس،[1] وألفى الارضية ملائمة لاشاعة الحكمة وتدريسها، عكف كسائر الحكماء على تدريس التوحيد ودحض الشرك والجاهلية التقليدية في اليونان.

يجمع المؤرخون على أن الفلسفة دخلت لأول مرة الى اثينا على يد انكساغوراس، وهذا هو السبب في خلود اسمه في تاريخ اليونان.

يقول المؤرخون ان انكساغوراس كان من الناحية الفلسفية منكراً للتغير والتحول في عالم الوجود. المبدأ الاول في فلسفته هو أن كل الاشياء كانت في بدء العالم مشتتة مضطربة لا تخضع لنظام، وكل شيء كان في طور «التكون» وعلى شكلٍ واحدٍ، فقد كان للاشياء والاضداد (كالخشب والاحجار والحديد واللحم والعظام

---

١) تاريخ الفلسفة، برتراند رسل، ص ١٤٠ (بالفارسية) هذا الاحتمال وارد جداً، فلقد كان بيركليس من زمرة الحكام الذين يدعون ويجتذبون الحكماء والفنانين والشعراء اليهم من كل حدب وصوب لأجل خدمة شعوبهم ورفع المستوى الثقافي في بلدانهم، فما ظنك باستاذه الحكيم العالم انكساغوراس.

والحيوانات والنباتات و...) شكل واحد، ثم ان العقل أو الروح (نوس باليونانية) انتزعت الاشياء المختلفة من كل تلك الاشياء اللاشيئية.

ان كل شيء ينطوي في داخله على كل شيء، فالخشب مثلاً الذي تعد بذوره الاصلية والغالبة من الخشب، توجد في صميمه بذور كل الاشياء الاخرى. من هنا يجوز القول انه لايفنى شيء في العالم ولا يوجد شئ من العدم.

تمثل هذه النظرية التي عرفت بين المسلمين بنظرية «الكمون والبروز» اساس الرؤية الكونية لانكساغوراس. ولذا يقال أن العالم من وجهة نظره يقوم على اساس الثبات الدائم، فهو لايقبل التحول والتغيير.[1] «المبدأ الثابت» هو نفسه الذرات الاصلية التي سماها ارسطو «هوميرمريا». انها ذرات تتقسم الى ما لا نهاية وتكمن فيها كل صفات الاشياء. والعامل المؤثر الوحيد هو ذلك الـ «نوس» المنظِّم للموجودات، وهو وجود بسيط عالم قادر، وعلمه وقدرته ناجمان عن بساطته، وكأنه ذلك الذي تبدّى لاحقاً على يد صدرالمتألهين على شكل قاعدة «بسيط الحقيقة كل الاشياء».

فى احقاب تالية تبنى المتكلم المعتزلي النظّام[2] نظرية الكمون والبروز. فكان يقول ان الله سبحانه لاينتظر الزمن لكي يخلق كل موجود في ساعته ويومه المحددين، انما خلق الله كافة الموجودات دفعة واحدة، الا انه جعل بعضها كامناً في صميم بعضها الآخر لكي يظهر الى النور تدريجياً وبعد فترة من الزمن.

وقد صدَّق الميرداماد ايضاً في القرن الحادي عشر الهجري هذه النظرية بشكل من الاشكال حينما أطلق واثبت نظرية «الحدوث الدهري»، واثبت ان كل الموجودات

---

١) موسوعة الفلسفة، عبدالرحمن بدوي، ج ١، ص ٢٣٦.

٢) ابراهيم بن سيار المعروف بالنظّام أحد متكلمي المعتزلة (اواخر القرن الثاني الهجري).

المتفرقة على امتداد القرون والاعصار تجتمع سوية في «وعاء الدهر» وهو فضاء معنوي لا دخل ولا عضوية للزمان فيه، ولايتقدم فيه أحد الموجودات على الاخرى ولا يتأخر عنها.[١] وهذا ضرب من الكمون، اذ لايتسنى للجميع «البروز» دفعة واحدة في فضاء الزمان.

* * *

أياً كان، أخذ اعداء بيركليس في أخريات ايامه يؤذون انكساغوراس، وهاجموه بشدة تحت طائلة الالحاد والكفر ومعاداة الآلهة اليونانية التقليدية. وكان ذنبه الآخر علاقته بالايرانيين وقد شق على الاثينيين أن يكون هذا الفيلسوف من اهالي مستعمرة ايرانية هي آسيا الصغرى، الامر الذي ضاعف من عدائهم له. يعتقد المؤرخون انه راح ضحية بيركليس، فبسبب قربه واحترامه الذي حظي به لدى بيركليس، اراد اعداؤه عبر مهاجمة هذا الحكيم تضعيف حاكم اثينا العادل.

بيد أن حقيقة الأمر كانت شيئاً آخر أفصح عن نفسه في كل منطقة البحر الابيض المتوسط، الا وهو شعار «حكومة الحكماء» الذي اطلقه فيثاغورس هناك، ماجعله هدفاً لاساءات جبار ساموس، فانتقل الى كروتونا فلم يرتضه الحكام هناك ايضاً، وكان هذا مصير الكثيرين من بعده (مثل هيراقليطس وسواه) واختار البعض ومنهم اكسينوفانوس السياحة والتجوال والتظاهر بالشاعرية، حتى جاء الدور لسقراط الذي أعدم لهذه التهمة في حقيقة الأمر، بينما كانت تهمته الظاهرة افساد عقائد الشباب وصرفهم عن الجاهلية القديمة والآلهة اليونانية المتوارثة وحتى علاقاته السرية مع

---

١) لمزيد من المعلومات راجع بحث «اطلالة على حياة صدرالمتألهين وشخصيته ومدرسته» فصلية «خردنامۀ صدرا» العدد ٧، ربيع ١٩٩٧ م.

ايران. ولهذا السبب اضطر افلاطون اخيراً بعد فترة طويلة من التعرض للأذى والتشرد أن يوصل افكاره في السياسة والفضائل الضرورية التي يجب أن يتحلى بها الحاكم الى اسماع الناس على شكل محاورات سقراطية، ولمْ يسمع بعده صوت من أحد.

كان بيركليس حكيماً، ومنافسوه كانوا جماعة من نبلاء المدينة واصحاب العبيد والاملاك يحلمون بحكومة منفلتة ورئاسة ظالمة، لذلك ابغضوا بيركليس الملتزم بحكومة القانون والمساواة والعدالة، ولأنه لم يعف الاشراف من الضرائب كمن سبقه من الحكام. يستشف من كتاب پلوتارخُس أن نبلاء اثينا كانوا طوال فترة حكمه يفكرون بإسقاطه.

تشير القرائن التاريخية أن بيركليس كانت له علاقات صداقة خفية حتى مع بلاط ايران والمغان، مع أن پلوتارخُس يكتب انه في الهجوم على مدينة ساموس لم يقبل وساطة القائد الايراني للمدينة، ولكن كان من الاساليب الدائمة لتكريس الأمن في اثينا وحمايتها من خطر جيرانها اليونانيين والجيش الايراني، اقامة علاقات ودية مع بلاط ايران، بل وحتى الافادة من المساعدات المالية للملك الايراني والانخراط ضمن الانتداب الايراني.

من اخطاء المؤرخين الغربيين ـ وربما تعتيمهم المصلحي على الاخطاء ـ انهم أوهموا بوجود ديمقراطية في اليونان ـ أو اثينا ـ منذ قديم الايام، وأن الناس آنذاك كانوا يتمتعون بالحرية في سلوكهم وتصريحاتهم وفي انتخاب حكامهم، الا أن بالامكان القول أن الحقيقة كانت على العكس من ذلك تماماً. ففضلاً عن أن جماعة الاثينيين الاصلاء هم فقط الذين كانوا يتمتعون بالحقوق المدنية (التي تدعى يوس سيفيل Jus Civil) في بلاد اليونان التي اكتنفت علاوة عليهم جماعتين اخريين هما الاجانب المهاجرون والعبيد المحررون، حيث لم يكن الآخرون يتمتعون حتى بحق

النكاح والتعامل والملكية ناهيك عن حق انتخاب الحاكم، فضلاً عن ذلك فإن حرية التعبير عن الرأي والانتخاب وتشكيل مجلس وطني لعموم الشعب كانت كلها من ابتكارات بيركليس ومن ثمار حكومته الحكمية، وقد كان اشراف اثينا ساخطين دوماً على مساواتهم بعوام الناس وغير الاثينيين في التصويت، وكانت هذه في نظرهم احدى جرائم بيركليس.

أما بعد بيركليس، فمع أن اثينا كانت تدار ظاهرياً من قبل مجلس حل وعقد اطلقوا عليه اسم مجلس «سنات» (مثلما اطلقوا على هذه الحكومة اسم حكومة الارستقراطيين أو النبلاء) بيد أن هذا المجلس لم يكن في الحقيقة مجلس شورى وطني يضمن حرية العقيدة والديمقراطية، انما تشكل بسبب عدم وجود حاكم متنفذ وقوي وجبار فيما بينهم يستطيع الامساك بزمام السلطة لوحده. ولهذا كلما سنحت الفرصة للدكتاتورية، كانت تظهر هناك حكومة استبدادية متجبرة (أو تيرانية) فردية.

يدل تاريخ اليونان انه كلما كان الحاكم هناك حكيماً مثقفاً ساد الأمن والحرية وحكومة الجماهير العامة. ومثال ذلك زمان سولون وليكرجوس وبيركليس. والا ففي الحكومات العائلية والارستقراطية كانت الحقوق العامة والحريات والعدالة الاجتماعية عرضة للاضطهاد والاخطار والتلاعب.

تزايدت ضغوط الناس في اثينا على بيركليس وانكساغوراس، فدفعت هذا الحكيم الى الخروج منها والعودة الى مدينة صغيرة في آسيا الصغرى تدعى لمبسكس اقام فيها مدرسته وتابع دروسه. ينبغي اعتبار انكساغوراس من كبار الحكماء الاشراقيين، وقد كان سقراط يحترمه، ومن بعد افلاطون اثنى عليه الرواقيون ثناء جليلاً واكبروا قيمته.

* * *

طوال ثلاثة قرون ـ من القرن السابع حتى القرن الرابع ق م ـ كان هناك العديد من الحكماء في المناطق اليونانية، اما مغمورين لم يتركوا عنهم اثراً في التاريخ، أو أنهم لم يسترعوا انتباه المتأخرين لأنهم لم يتركوا نظريات أو آراء خاصة بهم. أو لأن اسماءهم لم ترد في كتب ارسطو وغيره، فقد ضاع الكثيرون منهم في ضباب الزمن البعيد ولم تبق عنهم حتى اسماؤهم. والواقع ان تاريخ الفلسفة تكوّن دوماً بطريقة عمياء وفق تصورات ارسطو المنحازة الموجهة حول من سبقوه، إذ لم يستطع هذا الرجل تشخيص أصالة افكارهم وحقيقتها والتعرف على حكماء الزمن القديم كما ينبغي.

ناهيك عن أن الباحث المحايد قد يبدو له أن ارسطو كان صاحب مواقف عدوانية خصوصاً حيال الحكماء الايرانيين. وحتى لو لم نوافق كتابات بعض المؤرخين في أنه لعب دوراً في إتلاف كتب الفلسفة والحكمة الايرانية على يد الاسكندر المقدوني، فإن من الثابت انه لم يكن يبدي تجاهها أية رغبة أو اهتمام، ولأسباب لا نعرفها، لم تكن هذه المدرسة تروق لطباعه ومنحاه.

وبسبب عدم توفر المصادر المعتبرة ولضيق المجال، فلن نبحث في هذا المضمار، انما نتابع مسار الحكمة بدراسة سقراط الحكيم وتلاميذه، لكن دراسةً دقيقةً لحياة سقراط منوطة بمعرفة الظروف السياسية والاجتماعية التي عاصرها في اثينا واليونان. ومن أبرز الظواهر الاجتماعية لتلك الحقبة والتي لعبت دوراً مهماً في تاريخ الفلسفة، هي الجماعة التي سميت بالسفسطائيين. لذا فإننا سنطلُّ اولاً على منحاهم الفكري ونسلط الاضواء قليلاً على هذه الظاهرة التاريخية التي اعترضت مسار الفلسفة.

١ ـ ٣. السفسطائيون

مع نفوذ الثقافة والآداب الشرقية، ولاسيما الايرانية، الى سواحل البحر الابيض والارض التي تسمى اليوم اليونان، وكما اسلفنا، فقد أدت الهيمنة السياسية والعسكرية الايرانية على تلك المناطق، أو بعض الحروب أو العلاقات التجارية، وكذلك رحيل طائفة من اليونانيين الى شتى المستعمرات الايرانية، أدى كل ذلك الى ظهور نمط من التعارض الثقافي (بين الثقافة الفارسية والهيلينية) تفوقت فيه الثقافة الايرانية فهمّشت الجاهلية اليونانية القديمة (الهيلينية) التي بقيت مع ذلك مترسبةً في قرارة كل يوناني.

رغم أن الدين التوحيدي والحكمة والعلوم الرياضية والطبيعية والنجوم هاجرت مع الثقافة والاعراف الشرقية، والارستقراطية الايرانية الى حدما، نحو تلك النواحي اليونانية، ودفعت بعض الفلاسفة الى النشاط العلمي والتعليمي والتربوي (وقد تعرفنا على اسمائهم)، الّا ان السطوة الروحية للمعتقدات الاسطورية الشركية اليونانية الموروثة، أدت الى ان تواجه هذه الفلسفة التوحيدية الاشراقية ارضيةً عقيديةً وثقافيةً غير ملائمة في مدينة اثينا، وقد رأينا ان اليونان نبذ العقيدة التوحيدية عن نفسه الى درجة جعلت انكساغوراس يُنفى أو يهرب من تلك المدينة، وقد أسفر هذا العامل نفسه عن اعدام سقراط في وقت لاحق.

بعبارة اخرى، لم تمتد جذور الحكمة الاشراقية الايرانية التي ظلت قائمة لقرون في ايران والمشرق، لم تمتد في غرب آسيا الصغرى باستثناء عدد قليل من الفلاسفة والحكماء، وينبغي البحث عن اسباب ذلك في السايكولوجيا الاجتماعية والثقافة الجاهلية لاولئك الاقوام.

من جملة الخصائص القومية و العرقية لسكان اثينا قديماً عدم ايمانهم وارتيابهم بما وراء الحس و الطبيعة، فقد كان اليونانيون القدماء يؤمنون بالحس والظاهر اكثر من

ايمانهم بما وراء الحواس و التجربة. وهذا ما جعل السفسطائية تنمو هناك كسنسقٍ صغير في شجرة الحكمة الاشراقية الضخمة.

تقوم السفسطائية على اساس «القناعة بالادراكات الحسية» و«القبول بنسبية الحقائق» بدل الحقيقة المطلقة. يكتفي هذا المنحى الفكري من بين كل الموجودات الراقية في العالم و العوامل التي تدير هذه الطبيعة والعالم، بالانسان الملموس فقط، وهو انسان ذو طبيعة حيوانية ليس له الّا الأكل والنوم والحرب واللذائذ. كما يقنع من العالم الكبير ـ وهو تراث الحكمة الاشراقية ـ بالعالم المحسوس الملموس المادي، ويعتمد الحس بدل الاعتماد على العقل الذي لا يثق به ولا يتوكأ عليه.

الميزة الاخرى من ميزات سكان اثينا القدماء[١] هي اللغو والثرثرة والاهتمام كالتكلم وطول اللسان من ناحية، والتفاخر بالكمال الجسماني و الرياضة والفوز والخسارة في المسابقات العامة والقوة والبطولة في ميادين التنافس العضلي من ناحية اخرى. فالشئ الذي لم يكن موضع ترحيب واقبال بينهم هو اسلوب المغان الايراني في التربية الروحية وممارسة الرياضات البدنية لتربية الروح والبصيرة والادراك المعنوي.

بفعل هذه الخصائص القومية، آلت أصول الحكمة ولاسيما الحكمة العملية الى الافول بعد موت فيثاغورس وتفرقِ تلاميذه ومدرسته وخفوتِ أنوار المدرسة الشرقية، وتقلّصت الاخلاق الى حدود التربية والتدريب على الآداب الاجتماعية (والأتكيت في الغرب اليوم بنفس هذا المعنى) واختُزل تدبير المدن والسياسة (وقد كان فن تربية الحكماء لتولي الحكومة) الى تربية خطباء ذوي بلاغة وقدرة عالية على الجدل من

١) خلافاً لليونانيين الآن وهم ذوي طبائع أخرى.

أجل الوصول الى السلطة والمناصب والمكاسب والمراكز الحساسة.

بناءً على مثل هذه الاسس السايكولوجية التي قام عليها المجتمع اليوناني، وبالنظر لمقومات اجتماعية اخرى توفرت بفضل مايسمى بـ «المناخ السياسي المفتوح» المتبقي عن زمن بيركليس، يبدو من الطبيعي أن لايبقى من الحكمة الاشراقية العميقة سوى السفسطة والجدل والخطابة، وأن لايبقى من تربية الحكماء سوى تخريج حفنة من السياسيين المحترفين.

كان سكان اثينا القدماء ذوي اقبال شديد على المسابقات والمباريات بين المتنافسين، وكذلك كان الامر بالنسبة لمناظرات المجادلين السفسطائيين فقد كانوا يتشوقون اليها ويجتمعون باعداد كبيرة حول المتجادلين ليتمتعوا بمعاركهم الكلامية، بل كانوا يعاضدونهم ويساعدونهم بالمال والجاه والاحترام الكبير، ما أسفر عن تفعيل وتخصيب اكبر لسوق السفسطائيين.

كان السفسطائيون متعلمون لم تترسخ روح الحكمة في نفوسهم. كانوا من أهل النظر والعلم والاستدلال، الا انهم في الواقع لم يصيبوا حظاً من الحكمة الحقيقية، بل كان يعانون من ضرب من الضياع الفكري، حتى يمكن اعتبار البعض منهم «أوباش الفلسفة».

الكثير من مؤرخي الفلسفة يعزون السبب في انبثاق وتنامي هذه الظاهرة الى التعارض الشديد بين افكار الفلاسفة وآرائهم من زمن ثاليس حتى ديمقريطس، على اننا سبق أن دحضنا هذه الرؤية وقلنا ان الحكماء لم يكونوا مختلفين حول اصول التوحيد ورؤيتهم العامة لعالم الوجود، انما الذي جعل المعاصرين يقعون في مثل هذا الالتباس هو تفاسيرهم الخاطئة أو المادية لافكار اولئك الحكماء.

السبب الرئيس لظهور السفسطة برأينا هو عدم وجود محور ثابت، فقد كان

الفيثاغوريون وسائر الحكماء الاشراقيين يكتمون معتقداتهم ولايعلّمونها الّا للشباب الكفوء المتعمق، ومن لم تكن به طاقة على احتمال رياضات مدرستهم واستحقاقات تهذيب النفس ـ كالمسفسطين مثلاً ـ كان عليه البقاء هائماً وراء سراب الحقيقة يتقلب بين يدي عفريت الشك.

كان هؤلاء النافرون من الحكمة يتحرونها في الالفاظ والعبارات، مكتفين ببعض المصطلحات الفلسفية والمنطقية، ونتفٍ بسيطة من العلوم الطبيعية والرياضية، لهذا تخطّفهم غول الشك ليسجنهم في خرائب السفسطة. ونظير هذه الظاهرة تكونت ايضاً في اوربا القرنين السادس عشر والسابع عشر واستمرت الى عهد ديكارت وافضت بالتالي الى مدارس اللاأدرية والمادية والتجريبية والنسبية وانكار الحقائق الكبرى في العالم.

يلاحظ على اسلوب السفسطائيين في التعليم نمط من الخداع والنصب، وقد كانت النخبة والخواص تعي هذه المخادعات (خلافاً لعوام الناس) فطفق فرسانها ينبهون الشباب ويحذرونهم من الوقوع في شراكها. مع أن معتقدات السفسطائيين تلفعت في ظاهرها بلبوس فلسفي وعلمي، وقامت على اساس المشاهدات والمشهورات والمسلمات، بيد أنها لم تكن تنهض على اركان وركائز حقيقية، انما ترتبط بأذواقهم وعواطفهم أو ميول الناس العامة.

لم يكن السفسطائيون يمكثون مدداً طويلة في مكان واحد، انما كانوا يسافرون بكثرة، ويعملون في التدريس أينما حلوا، ويتقاضون من الشباب أجوراً لقاء تدريسهم، ثم يغادرون ذلك المكان الى غيره بعد فترة. كان هؤلاء الاساتذة المحترفون يقيمون بعد دخولهم كل مدينة مسرحيةً على شكل خطب جذابة أو سجالات تتزيّا برداء الفلسفة، وبعد أن يكسبوا عدداً من المعجبين يشرعون بتعليمهم فنون الخطابة والاستدلال.

وكان الناس يستخدمونهم احياناً للدفاع عن قضاياهم في المحاكم، لذلك كان العاملون في سلك المحاماة ينتفعون من فنونهم في الخطابة والجدل.

اشراف اثينا الذين ما فتئوا يتنافسون فيما بينهم على السلطة والنفوذ السياسي، كانوا يعهدون للسفسطائيين بتربية ابنائهم. أما رجال السياسة فلأجل أن يكسّدوا سوق الحكماء الحقيقيين ـ الذين اطالوا الكلام عن ضرورة تحلي الحكام والقادة في المجتمع بالفضيلة والاخلاق والعدالة الذاتية وسائر الخصال الحكيمة، واضروا بوجاهة ومنزلة النبلاء عديمي الفضيلة ـ كانوا يدعمون ويروجون للسفسطائيين الانتهازيين.

من ناحية اخرى، اكتسبت الارستقراطية ـ التي تعني العنصر والدم الأرقى ـ معنى أوسع من بعد حكومة بيركليس، واضحى العوام يتصورون أن من يتمتع بموهبة الخطابة واللباقة والبلاغة والفصاحة ويحتل موقعاً في اجهزة الحكومة ومجلس الاعيان، يعد هو الآخر من الاشراف والنبلاء. وبهذا كان السفسطائيون اساتذة يخرجون النبلاء وتنعقد عليهم آمال الطبقة المتوسطة من المجتمع.

من السفسطائيين المعروفين في زمن سقراط ـ والذين خلدت اسماؤهم بفضل كتابات افلاطون ومناظرات سقراط ـ يمكن الاشارة الى بروتاغوراس Protagoras وغورغياس Gorgias الذين كانا في زمانهما مشهورين ومحترمين الى حد كبير، وخلافاً لسمعتهم السيئة الآن، ظل السفسطائيون لفترات طويلة فرسان العلم والادب، وكانوا منسجمين تماماً مع روح الجماهير في الغرب آنذاك.

ورغم أن اثراً لم يبق لهم اليوم، ولكن بخلاف روح الشرقيين، لايزال التجانس الروحي مع السفسطة والشك مشهوداً في العالم الغربي لحد الآن. فظواهر فلسفية وعلمية كالمثالية والذهنية أو النزعة الانسانية، أو النسبية الاخلاقية، والتشديد على السجال واللباقة والفتاوى الفلسفية بدل الاستدلال والبراهين المنطقية، وكذلك

المدارس الفلسفية من قبيل الوضعية والتجريبية، وانكار المجردات والمعنويات وما الى ذلك من المناحي السطحية، تعد كلها هروباً من الحقائق الفلسفية والعقلية والاستدلالية، وضرباً من ضروب التنكر للعلم والحكمة ناجمة عن خصائص عرقية موروثة عن روح الشعوب الغربية في تلك العصور.

ورغم السمعة غير الحسنة تقريباً التي بقيت للسفسطائيين، فقد كان لهم على كل حال حسنة تمثلت في تحفيز سقراط وافلاطون وعدد آخر من الحكماء على صياغة علم المنطق الذي ورثناه اليوم، و اضفاء السمة الرسمية وصفة الكيان المستقل عليه. فلولا مغالطات السفسطائيين ومواد الجدل التي اعتمدوها كالمشهورات والمقبولات والمظنونات الضعيفة والبعيدة عن الحقيقة والواقع، لما فتح سقراط طريقاً منطقياً للحكمة (سمي لاحقاً بالمنطق)، ولما أمكن التوصل الى اليقينيات عن طريق التعريف الصحيح وعلى اساس الحد والرسم والجنس والفصل والذاتي والعرضي. ان عهد السفسطة الصاخب المتلاطم كان بحاجة الى حكيم مثل سقراط ينزل الى الساحة لوحده دفاعاً عن الحكمة واليقين والحق ليهدم صرح المغالطات وينافح عن رسالته التي حملها حتى النفس الاخير.

سقراط الحكيم

ينبغي اعتبار سقراط (Socrates) أشهر الحكماء قبل ميلاد المسيح. لم يستطع أحد تسجيل مؤاخذة على شخصيته نصف الأسطورية. ورغم شهرته الواسعة، لايعلم أحد عنه شيئاً سوى ما كتبه عنه افلاطون أو ارسطو أو بعض معاصريه.

كتبوا أن ولادته كانت عام ٤٧٠ ق م بالقرب من اثينا. وقالوا ان وجهه لم يكن جميلاً، وقامته كانت قصيرة وأنفه عريضاً وما الى ذلك من أوصاف، الا انه رغم هذا

كان ذا شخصية محببة جذابة وودية، يرتدي ثياباً بالية لايغيرها في صيف أو شتاء، وكان قليل الأكل والنوم، وله نوبات من الصمت والخلسات تمتد الى عدة ايام، يصاحبه ملاك غيبي، وعموماً، كان رجلاً معنوياً عالماً حكيماً مفوهاً ماهراً في الجدل، محترماً، مؤدباً، صريحاً وصادقاً.

لاريب أن سقراط أحد اكبر الحكماء الاشراقيين، ولم يكن له نظير في اليونان (شبه الجزيرة اليونانية حالياً) وهو استاذ افلاطون وأرفع منه درجة، ولكن لا دليل على كونه اعظم من الحكماء الذين سبقوه، بل ان الحكماء في ايران وآسيا الصغرى وتراقيا ومالطة وصقلية وجنوب ايطاليا كانوا جميعاً بحسب المعايير المتاحة آنذاك أعلى مقاماً وأجمع للعلم والحكمة منه.

من جانب آخر وخلافاً للرؤى السطحية المبسطة لبعض المؤرخين الذين اعتبروه مجرد حكيم اخلاقي ومعلم سياسة وحكمة عملية، كان سقراط أحد أبرز اقطاب الحكمة النظرية. فهو الذي اطلق مبدأ «المثل النورية» ـ التي عرفت خطأً بالمثل الافلاطونية ـ في المدارس العلمية إذ ذاك، فاقتبسها عنه افلاطون، ونحن نعلم انها كانت موجودة في تعاليم الاسبقين والفيثاغوريين.

على أن مقولة شيشرون «هبط سقراط بالفلسفة من السماء الى الارض» صحيحة بمعنى انه ركز اكثر ما ركز على الحكمة العملية واصلاح نسق الحكومة وتطبيق العدالة وتهذيب سلوك الناس في اطار اخلاقهم الفردية والاجتماعية، وكان حكيماً عملياً لا استاذاً للفلسفة النظرية على غرار ارسطو. ومن الخطأ ما ذهب اليه المؤرخون الغربيون الذين اعتبروه مجرد مصلح ديني أو اجتماعي.

ان تصورات الحكماء والمسلمين عن سقراط وافلاطون ومن سبقهما من الحكماء اسمى وافضل بكثير من آراء مؤرخي القرون الاخيرة في الغرب، الذين رأوا

أن سقراط استاذ جدل (أو حوار اخلاقي فلسفي) وافلاطون معلم هندسة، أما سائر الحكماء الاقدمين في منطقة غرب ايران فهم حكماء طبيعيون أو ماديون، أو انهم مجرد شعراء جوالون لا فائدة ترجى منهم.

صدرالمتألهين نموذج للحكماء المسلمين الذين اعتبروا هؤلاء العظماء من تلاميذ الانبياء، أو انهم حكماء ذوو منزلة سامقة، واصحاب رياضات وسير وسلوك معنوي بلغوا مراتب علوية، وقد استشهد بآرائهم الفلسفية كنظريات مقبولة ومهمة.

فمثلاً يقول عن سقراط انه تلميذ [غيرمباشر] لفيثاغورس، وقد استلهم الحكمة بمعناها الجامع عن مدرسة فيثاغورس، رغم اعترافه بأن سقراط اكتفى من كل تلك العلوم والمعارف بفرعين هما الالهيات النظرية والحكمة العملية.

يكتب في «الاسفار» عن سقراط مانصه: «سقراط الحكيم العارف الزاهد من أهل أثينه كان قد أقتبس الحكمة من فيثاغورس وارسلاوس واقتصر من اصنافها على الالهيات والخلقيات...».[۱]

فضلاً عن ان صدرالمتألهين يذكر سقراط وتلميذه افلاطون باجلال كبير، نراه ينقل بعض افكاره ورؤاه الفلسفية مستعرضاً جوانب من مدرسته وشخصيته الفلسفية والعلمية. ومن ذلك ماذكر حول قضية علم الباري (تعالى وتقدس) إذ يقول:

> ومن جملة اعتقاداته ان علمه تعالى وحكمته وقدرته بلا نهاية ولا يبلغ العقل ان يصفها، ولو وصفها لكانت متناهية، فالزم عليك أن تقول انها بلا نهاية ولا غاية وقد ترى الموجودات متناهية، فيقال انما تناهيها بحسب احتمال القوابل لا بحسب القدرة والحكمة والجود. ولما كانت المادة

---

۱) الاسفار الاربعة، ج ۵، ص ۲۱۳.

لاتحتل صوراً بلا نهاية، فتناهت الصور ـ لا من جهة بخل في الواهب، بل لقصور في المادة ـ وعن هذا اقتضت الحكمة الالهية انها وان تناهت ذاتاً وصورة وخيراً ومكاناً، الا انها لاتتناهى زماناً في آخره... .[١]

وفي خصوص مسألة «المثل النورية الالهية» المشهورة بالمثل الافلاطونية، يعتبرها نظرية سقراطية قبل ان تكون افلاطونية، بل ويرجعها حتى الى حكماء واساتذة سابقين لسقراط. فيقول: «رأى سقراط وافلاطون وآغاثاذيمون وغيرهم اثبات المثل العقلية...»[٢] وقال في موضع آخر: «قد نسبت الى افلاطون الالهي ... موافقاً لاستاده سقراط... أنَّ للموجودات صوراً مجردة في عالم الإله وربما يسميها (المثل الالهية) وأنها لا تدثر ولا تفسد».[٣] وكذلك: «قال أفلاطن وسقراط ـ ومن قبلهما من أساطين العلم والحكمة ـ موجودات هذا العالم بحقائقها ومهيّاتها موجودة في عالم أعلى من هذا العالم وجوداً صورياً مجرداً عن المواد ونقائصها...».[٤]

ويشير ايضاً الى عقيدة سقراط في «عالم المثل» أو «الخيال المنفصل» بقوله: «الصور الخيالية لاتكون موجودة في الاذهان... ولا في الاعيان... وليست عدماً... فبالضرورة يكون في صقع آخر وهو عالم المثل المسمى بالخيال المنفصل... وهو الذي ذهب الى وجوده الحكماء الأقدمون كأفلاطون وسقراط وفيثاغورس وانباذقلس... .[٥]

وقد فهم صدرالمتألهين من آراء القدماء والحكماء الماضين اعتقادهم بنوع من

---

١) م س.
٢) الشواهد الربوبية، ص ١٧١.
٣) الاسفار الاربعة، ج ٢، ص ٤٦ و ٤٧.
٤) م س، ج ٦، ص ٤١٢ وبهذا المضمون ايضاً في ج ١، ص ٤١١، ج ٣، ص ٢٠٤ و ٢٠٥.
٥) م س، ج ١، ص ٣٠٢.

التناسخ. وهذه النظرية مشهورة جداً في خصوص فيثاغورس، وينسبها الملاصدرا لسقراط وافلاطون والحكماء السابقين، مع فارق أنه لايرى انهم كانوا يعتقدون بالتناسخ المصطلح المعروف، انما بـ«مسخ» باطن:

> وظني ان ما هو منقول عن أساطين الحكمة كأفلاطون ومن قبله من اعاظم الفلسفة مثل سقراط وفيثاغورس وآغاثاذيمون وانباذقلس من اصرارهم على التناسخ لم يكن معناه الّا الذي ورد في الشريعة... .[١]

وقد نقل عن سقراط آراءً اخرى (كنظرية وجود الانسان المفارق الابدي أو طريقة رشد ونمو جنين الانسان، وجهنم ـ أو تارتاروس ـ للمجرمين) تدل على ان سقراط كان فيلسوفاً متمكناً من الحكمة النظرية.

وحول السبب الذي جعل سقراط لايخوض كما فعل اساتذته وقدماء فارس واليونان في العلوم الرياضية والنجوم والطب والكيمياء وما الى ذلك، بل اكتفى بالحكمة العملية والالهيات، يقول صدرالمتألهين:

> لما سئل سقراط عن سبب اعراضه عن العلوم التعليمية قال: اني كنت مشتغلاً بأشرف العلوم (يعني العلم الالهي).[٢]

وهذا اعظم مديح وثناء لعالم من العلماء، فقيمة كل علم في قيمة وأهمية موضوعه، والفائدة والغرض النهائي منه، وقد كان لسقراط مثل هذه المرتبة.

يتوجب اعتبار سقراط من افذاذ الحكمة، لأنه ادرك دروس انبادوقليس واركيلاوس وذيوجانس الابولوني، والتقى على اغلب الاحتمالات العديد من الحكماء

---

١) م س، ج ٩، صص ٦ و ٢٢٨؛ الشواهد الربوبية، ص ١٧١ و ٢٨٩.
٢) الاسفار الاربعة، ج ٩، ص ١١٩، وكذلك المطارحات للسهروردي، ص ١٩٨.

الآخرين، وحسب المعروف فإنه قصد انكساغوراس ايضاً وربما تتلمذ عليه.

كتب البعض انه لم يترك اثينا اطلاقاً، الا ان هذا قول لا يسانده أي دليل معتبر، بل على العكس كانت الاسفار والسياحة في ذلك العهد تقليداً دارجاً ولم يكن الحكماء وطلبة العلم وحتى الجنود والمقاتلون ليرتضوا البقاء في اثينا، وكانوا احياناً يزورون كل جزر البحر الابيض وسواحله، واسفار شخصيات كبيرة نظير فيثاغورس وثاليس الى ايران والهند وبابل معروفة ومذكورة في التواريخ.

عاش سقراط ظروفاً واوضاعاً اطلعنا عليها في الفصل السابق الخاص بالسفسطائيين... مناخٌ موروث عن عهد الاجواء السياسية المفتوحة في زمن بيركليس بعدد من النبلاء الاثرياء المتربصين للاستيلاء على السلطة، واكثرية من الشباب الضائع، ومجموعة من الحكماء المزيفين يدعون السفسطائيين يتاجرون بما لديهم من علم وأدب ويغسلون عقول الشباب، وعدد من المتظاهرين بالتدين يدعون الناس الى الشرك وعبادة الآلهة الاساطيرية التقليدية في اشعار هوميروس وهيسيود، ويبعدونهم عن التوحيد والديانة الحسنة. اخلاق الناس كانت قد انحدرت نحو الفساد، وشاعت الفحشاء والشذوذ، وراح الاقوياء يستغلون الضعفاء ويرسون دعائم الحكم الاستبدادي الارستقراطي القبلي تحت يافطة الحكم الجماهيري (الديمقراطية) وصيانة الحرية.

اما سقراط فإنه كأي نبي وحكيم وانسان واعٍ يعيش عصر اطماع الاقوياء وجشعهم، وضياع البسطاء والضعفاء، كان يرى واجبه ورسالته في أن يبدد من اذهان اليونانيين وبأية ذريعة وفي كل مناسبة، مرتكزات الايمان الشركي التقليدي بالآلهة الفاسدة الموروثة عن هومر، واستبداله بمبدأ التوحيد وعبادة الإله الواحد ذي الصفات الكمالية. هذا اولاً وثانياً كان يرى رسالته في الوقوف بوجه السفسطائيين والابطال المزيفين في نطاق الفلسفة والعلم والحكمة، وفضح خوائهم للخواص والعوام،

والانتصار عليهم بسلاحهم وأدواتهم أي «الجدل»، وتحرير الشباب والبسطاء من شراكهم، وتعليمهم اساس الاخلاق الفردية والاجتماعية والمعنى الصحيح للفضيلة والعدالة والشجاعة وباقي الكمالات التي كانت تلوكها ألسنة جميع الناس في ذلك الأوان، وتعد مناط الوصول الى الحكومة ونيابة الجماهير.

ذكرنا ان أحد اساليب سقراط في كفاحه هو الحيلولة دون «المغالطة» والاحابيل المنطقية عن طريق «التعريف» الصحيح للموضوعات على اساس المنطق (أى بيان الحد والرسم). ففي غمرة الادعاءات والمزاعم الصاخبة التي راح يطلقها كل فرد وكل شخص عن «العدالة» وهذا ما كان يفسح مجال الاستغلال والمخادعات امام السفسطائيين، بادر سقراط اولاً لتعريف العدالة بدقة ورسم حدودها بحيث يصل جميع المشاركين في الحوار الى معنى واحد حتى يستطيعوا ادراك مقاصد بعضهم بصورة صحيحة فينقطع الطريق على السفسطة والمغالطات.

الاسلوب الآخر الذي اتبعه سقراط هو إعلاء شأن «الفطرة الاولى» للانسان، فقد كان يعتقد ان «نداء الضمير» لا يكذب الانسان ابداً، وانما يرشده دوماً الى الصدق وطريق الصلاح.

اسلوبه الفني المنطقي الآخر هو محاصرة المحاور القوي عن طريق «السبر والتقسيم» بمعنى الاحصاء الدقيق للمصاديق حتى لايتملص الخصم المسفسط من بعض المسارب، وكان يستخدم احياناً برهان الخلف وهو أهم البراهين في المنطق.

كانت تربطه مع بروتاغوراس، وغورغياس، ويروديكوس، وباقي السفسطائيين المعروفين علاقات حميمة وودية في الظاهر، فقد كان يتعامل معهم بأدب واحترام، كما كانوا يكنون ويبدون له الاحترام ويخشونه لأنه كان يغلبهم في كل المناظرات والمباحثات.

بسبب هذه الانتصارات تضاعفت شهرة سقراط في اثينا يوماً بعد يوم. كان يُعلِّم تلاميذه وخواصه في الخفاء مبادئ الحكمة والعلوم والفنون الموروثة عن فيثاغورس، أما بين عامة الناس فكان يلقي خطباً هي في ظاهرها دروس اخلاقية ترمي الى تربية الشباب وتهذيبهم وتعريفهم بالعقائد التوحيدية واشاعة التحرر والتحلي بالفضيلة واتباع الحكماء واصحاب الفضيلة والعدل.

وكمن سبقه من الحكماء، كان يرى واجبه أن يُطلع الناس على سمات حكومة الصالحين والحكماء ويصدهم عن اتباع النبلاء الفاسدين والطبقة الحاكمة الموبوءة، وعن معتقدات الشرك وترويج الفساد الجنسي والجرائم، وقد تسببت تعاليمه المهمة هذه في اعدامه اخيراً. فطبقة النبلاء أو الاشراف وحكام اثينا لم يقعدوا حياله مكتوفي الايدي، بل دعوا السفسطائيين الى اثينا وشجعوا الشباب على حضور مجالسهم لكي يبعدوا الناس عن سقراط، وطفقوا من جهة اخرى يشيعون بينهم ان سقراط خائن وملحد وعدو الآلهة اليونانية، واحياناً كانوا يروجون بأنه عدو الديمقراطية ومشاركة الجماهير، فدفاعهم عن حكومة الشعب الشوروية لم يكن في الحقيقة دفاعاً عن الحرية واحتراماً للجماهير، انما هو بغية الهيمنة على عواطفهم وخداعهم بالخطابة والالاعيب الكلامية والاستيلاء على السلطة والحكم عن طريق النصب والخداع، وهي ذات الادوات والحراب التي يستخدمها المخادعون والنصابون في أسواق السياسة اليوم ايضاً.

واخيراً، جرَّت مؤامرة هذه الطبقة الصغيرة سقراط الى منصة الاتهام في المحكمة، فحاكموه في سنة ٣٩٩ ق.م وحكموا عليه بالموت عبر تجرع كأس السم. وكانت جرائمه التي نسبت اليه انكار الآلهة التقليدية والاستهزاء بها، وكذلك افساد اخلاق الشباب وافكارهم. والواقع انه كان خطراً كبيراً يهدد سلطات هذه الطبقة، ويدفع

الناس صوب انتخاب شخصيات واعية وعالمة ومناصرة للعدالة والاخلاق، ويصد عن انتخاب الارستقراطيين الفاسدين المسرفين المستبدين والانانيين.

بتجرّعه كأس السم، مات جسم سقراط واطبقت أجفانه وسكت لسانه، الّا أن مدرسته ورسالته بقيت نابضة كروحه، فقد خرجت حكمة الاشراق كروح سماوية من جسده لتحل في افلاطون مستولية على كل روحه وافكاره. ازدادت فكرة حكومة الحكماء والواعين أو الحكومة الالهية بهاءً وتألقاً كل يوم، ولولا احداث كظهور ارسطو أو امبراطورية الاسكندر لأينعت ونضجت ثمار هذه الشجرة الطيبة اكثر فاكثر.

افلاطون

بعد اعدام سقراط، بددت الاقلية الحاكمة في اثينا ما كان بين تلاميذه ومدرسته من أواصر. ويبدو أن سقراط وكما سبق أن ألمحنا كان له رغم منهجه وظاهره الاجتماعي المبسط، تلاميذ من الخواص يسهر على تنشئتهم بدرجات مختلفة وبطريقة سرية غايتها الابقاء على مشعل الحكمة الاشراقية متوهجاً. العديد من تلاميذه الاثينيين وغير الاثينيين، لم يكونوا في اغلب الظن اصحاب منزلة اجتماعية أو روح متوثبة تخولهم مقاومة ذلك الجو الارهابي القمعي، وبعبارة أصدق وانسب، لم يكونوا قادرين على مقاومة «مذبحة الحكماء» التي اقيمت آنذاك في المجتمع الاثيني الصغير، لذلك لم يصبر حتى اشهر تلامذته «افلاطون» على البقاء في اثينا، وكما سنذكر أخذ يفكر في السفر والسياحة والبحث عن علماء واساتذة جدد.

الاسم الحقيقي لافلاطون هو اريسطوقليس (Aristocles) وهو ابن أحد رجال اثينا يدعى ارسطون. ولد سنة ٤٢٧ ق.م (وربما ٤٢٨) في اثينا لعائلة من الارستقراطيين. وكان بعض اقربائه قد تبوؤا مواقع مهمة في الحكومة الاستبدادية لاثينا

بمعنى انه كان في التاريخ اليوناني من جملة «الطوران» (Tyrant) أو الجبابرة المستبدين. أمه كانت من احفاد سولون المثقف الاثيني واول من سن القوانين في بلاد اليونان.

وهكذا عاش افلاطون سنوات صباه وفترة التربية والبلوغ في بيئة مرفهة. وكان شاباً جذاباً بقامة شامخة واكتاف عريضة قوية، لهذا لقبوه بلقب «پلاتون» (افلاطون) أي العريض. كان محباً للرياضة وفنون القتال والشعر والفن، وقد تتلمذ في الحكمة والعلوم الاخرى عند أحد تلاميذ هيراقليطس.[١] تعرف وهو في حوالي العشرين من عمره على سقراط واعجب به أشد الاعجاب ولازم درسه ولم ينفصل عنه طيلة ١٨ عاماً (حتى ٣٩٩ ق.م سنة استشهاد سقراط).

لقد ترك موت سقراط المتسم بالشموخ والحكمة، والقسوة في ذات الوقت، اثراً بالغاً في افلاطون وباقي تلاميذه. ولهذا ترك بعضهم اثينا الى مناطق اخرى، غير أن افلاطون مكث فترة أطول في اثينا. ربما كانت له هناك بعض الارتباطات أو أنه أراد تطبيق وصيةٍ لسقراط. الا أنه بالتالي غادر اثينا بعد مدة من الزمن قال البعض انها استمرت تسع سنوات،[٢] وعاش مع زميله في ايام الدراسة «اقليدس» (Euclidus) بمدينة «ميغارا» (Megara)،[٣] ثم سافر الى صقلية وجنوب ايطاليا ومصر والقيروان. وقال فريق من المؤرخين انه ترك اثينا بعد اعدام سقراط مباشرة، وجال في البلدان

---

١) يقول الشهرستاني: «وحكى ارسطاطاليس (في مقالة الألف الكبرى من كتاب مابعدالطبيعة) أن أفلاطن كان يختلف في حداثته الى اقراطيلوس... روى عن هراقليطس...» (الملل والنحل)، ج ٢، ص ١٠٠.

٢) تاريخ الفلسفة، اميل بريبه.

٣) مسار الحكمة اليونانية، ورنر، ص ٧٣ (بالفارسية).

وساح في الارض حتى وصل سواحل نهر «غنغ» في الهند.[١]

في جزيرة صقلية سكن افلاطون مدينة سراقوصة، وحلَّ ضيفاً على حاكمها المستبد وابن اخيه المحب للعلم.

ويستشف من الوثائق التاريخية انه ألفى تلك الناحية مناسبة لتطبيق فكرة حكومة الحكماء التي لم تصبر عليها اثينا، ربما لأن المستقبل القريب سيشهد وصول ابن اخ الحاكم أو نجله الشاب الموهوب الى سدة الحكم (وهذا هو جعلُ الملوكِ فلاسفةً، وأحدى فرضيتي نظام الحكمة الحكومي) فيجعله أداةً لتطبيق مشروع حكمة الاشراق، فيمنح السلطة للحكمة والفضيلة، ويجعل الشهوات والغرائز والطباع الاخرى تبعاً لها.

اننا غير مطلعين على الاسلوب الذي انتهجه افلاطون بنحو دقيق، لكننا نعلم ان المنهاج القديم لحكماء السلف قام عموماً على اسلوبين: الاول الدعوة لروح الحكمة والفضيلة وترغيب عامة الناس في انتخاب الحاكم الحكيم واتباعه. والثاني تشكيل خلايا سرية لتعليم رموز الحكمة وما ترتكز عليه من علوم اساسية. بعد ردح من الزمن ساء ظن الحاكم المستبد هناك في افلاطون فاخرجه باحترام، وهذا ما يؤيد أنه انتهج في صقلية الاسلوب السري لحكماء الاشراق الايرانيين المجاورين لليونان، وربما عمل باسلوب استاذه سقراط.

عند رجوعه من اثينا مر بمدينة ايغينا وكان أهلها يخوضون حرباً ضد الاثينيين،

---

١) قصة الفلسفة، ويل ديورانت، ص ١٦ (بالفارسية). بناء على هذه الوثائق، من المستبعد جداً انه لم يمر بايران في رحلته الى الهند (وقد اطلقوا على مدينة همدان اسم هغمتانه أو مفترق طرق العالم) أو انه غض النظر عن شهرة المغان الايرانيين وما لهم من علوم وحكمة.

فأسروه وأخذوه عبداً، الا أن أحد المعجبين به اشتراه واعتقه.

رحلته الى مصر تشير الى رغبته الجامحة في اكتساب العلم، وثمة وثائق تدل على انه تتلمذ على الكهنة المصريين في علم النجوم. يقول أحد الباحثين في علم النجوم:

> الكهنة المصريون علّموا افلاطون وايدوكسوس أي جزء من اليوم ينبغي اضافته الى ٣٦٥ يوماً لتكتمل السنة. ولم يكن اليونانيون حتى ذلك الوقت يعلمون كم هو طول السنة... .
>
> يكتب اسطرابون في كتابه عن الجغرافيا: دلنا البعض في عين شمس (هليوبوليس) على المنزل الذي سكنه افلاطون وايدوكسوس. ويروى ان ايدوكسوس وفد برفقة افلاطون على هذا المكان، وعاشا مع الكهنة ١٣ سنة.[١]

وفي جنوب ايطاليا راح ورثة تعاليم فيثاغورس وبرمنيدس يتداولون علومهم ويديرون خانقاهات سرية، وكل من كان آنذاك في مكان افلاطون ما كان ليفوِّت على نفسه فرصة المشاركة في محافلهم.

حكومة الحكماء تجربة لم يكن قد حالفها النجاح في كروتونا ولا في ايليا، بيد أن اولئك الحكماء لم يستسلموا لشيطان اليأس اطلاقاً. كان افلاطون قد جرب نماذج من هذه الحكومة ـ نظير حكومة بيركليس في اثينا ـ وذاق حلاوة ثمارها، وهي دليل على صواب ادعاءاتهم في ضمان رفاه الجماهير وسعادتهم وكمالهم ـ وكذلك في نموذج آخر هو نجل حاكم صقلية الذي حكم بمنحى حَكَمي فلسفي لفترة من الزمن.

---

١) ظهور علم النجوم، واندر وردن، ص ٥٣ و ٥٤ (بالفارسية).

اضف الى ذلك أن فيثاغورياً يُدعى آرخيتاس (Archytas) تولى السلطة في مدينة تاراس، وشكلت جماعة اخرى بعد ذلك جمهوريةً افلاطونيةً في سواحل اسبانيا (أو غل).[١]

واخيراً، شارفت سياحة افلاطون واحداث حياته بعيداً عن الوطن على نهايتها، فعاد الى اثينا بزاد وفير في سنة ٣٨٥ ق.م. وعلى غرار اسلوب الحكماء السابقين، حدد لنفسه، بادئ ذي بدء مكاناً في ضواحي المدينة بعيداً عن ضجيجها يسمى آكادموس، وشيد فيه مدرسة عرفت بعد ذلك باسم الاكاديمية. كانت الغاية العلنية منها تعليم العلوم الدارجة، الّا ان افلاطون في الواقع ركز كل جهوده على حمل الرسالة التي ألقاها سقراط على عاتقه القوي قبل استشهاده.

كان افلاطون وارث مدرسة ترى قيمة الحكمة النظرية ـ الفلسفة ـ واهميتها في أن تكون مجدية على المستوى العملي فتبلغ بالناس السعادة والرفاه والكمال. في طور التعلم أو البدايات من هذه المدرسة التي تعد وريثةً لمدرسة الانبياء، تعتبر الحكمة العملية مقدمةً للحكمة النظرية، أما في النهايات ومرحلة الفعل، فتغدو الحكمة النظرية مقدمة للحكمة العملية.

لقد شهد افلاطون في شبابه أشد انماط الاضطرابات السياسية[٢] في اثينا، وفي

---

١) تاريخ الفلسفة الغربية، برتراند رسل، ص ٢٤٦ (بالفارسية) وسوف نقول أن حكومة الرسول الاكرم(ص) وعلي بن ابي طالبعليه السلام وسائر الانبياء الذين حكموا، كانت كلها تجارب ناجحة لنظرية افلاطون وسقراط الاشراقية، وفي الحقبة المعاصرة فإن الحكومة الثورية لجمهورية ايران الاسلامية واحدة من هذه التجارب. أما مقولة بعض الغربيين أن حكومة افلاطون يوتوبيا بعيدة المنال ـ وهو ما نقله عنهم بعض المقلدين الشرقيين ـ فهي خطأ وضيق أفق.

٢) تاريخ الفلسفة، اميل برييه، ص ١٣٥.

حرب بلوبونيز سنة ٤٠٤ ق.م لما انتصرت اسبارطة على اثينا،*شهد احداث الهزيمة المرة وكذلك تغيّر الحكومات في اثينا، وشاهد كيف تحرر ابناء وطنه من استبداد الجبابرة الوطنيين ليقعوا فريسة ذئاب يسمون النبلاء والاعيان. انهم اولئك الذين قتلوا سقراط بذلك النحو المأساوي، ولقبوا انفسهم مع ذلك بلقب نواب الجماهير وحماة مصالحهم، وتحت طائلة الدفاع عن افكار الشباب اذا بهم يقتلون اسمى معلم للحكمة والاخلاق وافضل داعية للصلاح والنظام والفضيلة.

لهذا السبب، لم يدافع عنهم افلاطون اطلاقاً، رغم انه من عائلة الحكام المستبدين في اثينا. ومع انه كان في وضع يخوله، لولا اتباعه لسقراط، ان يصل الى موقع مميز في حكومة النبلاء، الا انه لم يداهن ذلك النظام الفاسد على الاطلاق، وما انفك طوال حياته وفي جميع آثاره الشعبية المبسطة ـ التي كتبها على شكل تقارير وقصص ـ يشيع مدرسته الحكمية الاصيلة، وينادي بإقامة حكومة تناصر «العدالة» بحق.

في رأي حكيم مثله، ليس ثمة فارق بين ان يستغل النّاسَ فردٌ يسمى ملكاً فيضطهدهم ويستعبدهم، أو أن تحل محله جماعة من النبلاء تفعل نفس فعله. لقد عارض افلاطون وسقراط الاستبداد الظاهري والاستبداد الخفي (أو مايسمونه اليوم ديمقراطية) على السواء، وأكد أن أفضل انظمة الحكم هو ذلك الذي تديره مجموعة من المتعلمين المرتاضين ذوي التربية والمناصرين للعدالة والمتحلّين بالفضيلة والتقوى (وحسب تعابير بعض الروايات الشيعية: تاركاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه) فيحترقون كالشمعة ليعيش عامة الناس في النور ويتمتعوا بالعدالة.

* * *

ليس افلاطون آخر حلقات سلسلة الحكمة الاشراقية، بيد أنه آخر حملة لوائها.

وعلى حد تعبير رسلْ: «كان فيثاغورياً اورفيوسياً استلهم تعاليم حكماء نظير هيراقليطس وبرمنيدس وغيرهما من الاشراقيين».[١] قال البعض انه استقى كلمة «المثال» من فيثاغورس واعتبرها معادلاً لـ«الاعداد» الفيثاغورية.[٢]

يرى صدرالمتألهين انه أحد الشخصيات الخمس الاعظم في اليونان، وحكيم موحد، فهو يقول عنه:

> ومن هؤلاء الكبراء الخمسة اليونانيين أفلاطن الالهي «المعروف بالتوحيد والحكمة» وحكى عنه قوم ممن شاهده وتلمّذ له ـ ارسطاطاليس وثاوفرسطيس وطيماوس ـ[٣] انه قال: ان للعالم صانعاً مبدعاً محدثاً أزلياً واجباً بذاته، عالماً بجميع معلولاته على نعت الاسباب الكلية في الازل، ولم يكن في الوجود رسم ولاطلل (ظل) الّا «مثال» عند البارئ....[٤]

ويقول عنه في موضع آخر: «غلب عليه أحكام الوحدة والتقدس والخلوة مع الله تعالى والاعراض بالكلية عن عالم المحسوسات...».[٥]

يقول احد الباحثين المعاصرين «لم يكن افلاطون اشراقياً بالمعنى الذي نقصده اليوم من الفلسفة الاشراقية، وهي الفلسفة التي تكون استدلالية من ناحية ومعنية بتهذيب النفس من ناحية اخرى. انما شيخ الاشراق هو الذي نسب هذا الى

---

١) تاريخ الفلسفة الغربية، رسل، ص ٢٢٠ (بالفارسية).

٢) تاريخ الفلسفة، اميل بريبه، ص ١٨٦ (بالفارسية).

٣) العبارات من الملل والنحل للشهرستاني (ج ٢، ص ٣٠١ و ٣٠٢).

٤) رسالة في الحدوث، ص ١٧٧.

٥) المبدأ والمعاد، ص ٣٢٤.

افلاطون...».[١] لكنه يعتبر افلاطون في موضع آخر من اتباع فيثاغورس، بل ويعتقد أنه استلهم آراءه الاشتراكية (!) من فيثاغورس، وان الفلسفة الفيثاغورية انتشرت لأول مرة في اليونان على يد افلاطون.[٢]

وزُعم ايضاً ان ايران القديمة وخلافاً لرأي السهروردي، لم تكن ذات نصيب من الفلسفة، وكان شيخ الاشراق ينسب افكار العرفاء لحكماء فارس واليونان القدماء تملصاً من تهمة الفلاسفة. واخيراً يرى كل هذا من صنع الشعوبيين «ليقولوا ان ايران والايرانيين كانت لهم ثقافة عريقة». ثم يضيف: «بحثتُ في الكتب القديمة ومنها الملل والنحل لأرى هل كانت لافلاطون فلسفة اشراقية... فلم أجد مثل هذا إطلاقاً»!

من العجيب حقاً ان يصار الى انكار مثل هذه الحقيقة الساطعة فتعد بديهية البطلان. وبالطبع فإن اعتماد نصوص مشكوكة وضعيفة مثل «تاريخ الحكماء» للقفطي وحتى «الملل والنحل» للشهرستاني، الذي استقى الحكماء من بعده كثيراً من معلوماتهم حول تاريخ الفلسفة منه، لن تكون حصيلته افضل من هذا، فعدم الاطلاع على الكتب والدراسات التفصيلية المتأخرة التي ظهرت في الغرب والشرق حول اولئك الحكماء، يسفر بطبيعة الحال عن مثل هذه الاخطاء.

من الحقائق التي عرضناها امام انظار الباحثين في هذا الكتاب بمقدار استطاعتنا وبما يتسع له الوقت والمجال، هي ان الحكمة السماوية وتراث الانبياء هو ذاته الحكمة المعروفة بالحكمة الاشراقية. والحقيقة الاخرى هي أن مهد هذه الحكمة في ارض المشرق وخصوصاً ايران العهد الميدي والاخميني، وقد انتقلت بفضل فيثاغورس

---

١) التنفكير الفلسفي في الغرب، الشهيد مطهري، ج ١، ص ٨٩ و ٩٠.
٢) م س، ص ٨٢.

وآخرين الى الغرب، كما ليس من المستبعد أن يكون بوذا وكونفوشيوس في الشرق الاقصى (وقد كانا معاصرين لفيثاغورس ولهما مواطن شبه بالحكمة الاشراقية) قد استلهما الحكمة التي كانت لهما من ايران.

ان ارجاع هذه الحقائق الى الشعوبية ـ وهي من صنائع العرب العنصريين المتعصبين ـ خطأ آخر ينبغي احترازه وعدم الوقوع بهذه السهولة في مؤامرة من مؤامرات مزيفي التاريخ.

ما لابد من ذكره في هذا المقام هو ان افلاطون رغم منزلته السامقة في حكمة الاشراق أو في تاريخ الفلسفة، وشهرته التي ضاهت شهرة كل من سبقوه، الا انه لم يكن يتمتع في كل هذه السلسلة الذهبية من الحكمة الالهية، بالقدرات التي امتاز بها من سبقه من الحكماء (في العلم أو في التعليم) ولهذا بدا في الظاهر ان مدرسة الاشراق اصيبت بنكسة مع ظهور تلميذه ارسطو.

الدول تنقرض في زمن اضعف ملوكها، ولو كان لافلاطون قدرات فيثاغورس وانبادوقليس وهيراقليطس وسائر أسلافه بمن فيهم سقراط، لما برز بجانبه شخص يسمى ارسطو، ولما تنامت مدرسة المشائين المهزوزة الاركان الى عنان السماء مقابل الصرح السماوي للحكمة المشرقية.

مع ان حكمة الاشراق بادت ظاهرياً في زمن ارسطو والاسكندر، الا انها بقيت فيما يشبه النار الكامنة في الحجر والخشب، وكانت لها اِطلالاتها المتفرقة بين ثنايا احداث التاريخ، الى ان استعادت شموخها الباهر بعد الاسلام وبظهور حكمته القرآنية والايمانية. الا ان ضعف افلاطون وهيمنة ارسطو كان من شأنهما اقصاء هذه المدرسة الالهية لقرون من الزمن الى زوايا العزلة، وتحويل قلعتها الحصينة من بلاد اليونان لتظهر بعد ذلك بقرون في الاسكندرية بمصر.

ان الاحداث التي نزلت بالحكمة الاشراقية في عهد ارسطو والاسكندر، كانت وثيقة الصلة بظواهر سياسية واجتماعية اخرى سوف نشير اليها ضمن كلامنا عن ارسطو، ولكن رغم كل ذلك، فإن انقراضها المفاجئ الظاهري مقابل الفلسفة الارسطية الجافة يشي بعجز في الجوهر العلمي أو العملي لافلاطون.

* * *

يعود القسم الاعظم من شهرة افلاطون في الغرب لكتاباته التي وردت لائحتها في كتب سيرته. وقد ذكروا ترتيب آثاره بحسب تدوينها على النحو التالي:

١. المحاورات التي دونت قبل موت سقراط أو بعده بفترة قصيرة، نظير: بروتاغوراس، الدفاع عن سقراط، اقريسطون، أوطيفرون، خرميدس، لاخيس، ليزيس، الكتاب الأول من الجمهورية (أو الولاية)، هيپاس الكبير، هيپاس الصغير، الكبيادس الاول.

٢. محاورة جورجياس قبل تأسيس الاكاديمية.

٣. مينون، منكسانس، اثودموس، الجمهورية (من الكتاب الثاني حتى العاشر) وكلها بعد الاكاديمية.

٤. محاورات مثل: فيدون، المأدبة (سمبوسيون)، فيدروس (شرح فلسفته).

٥. اقراطيلوس، تيتاتوس، برمنيدس، السفسطائي، السياسي، فيلابوس.

٦. طيماوس، اقريطياس، النواميس (أو القوانين) وابنيمس، وهي آخر محاوراته.[١]

وقد تطرق الشك فيما بعد الى نسبة بعض هذه الرسائل والمقالات لافلاطون. اياً

---

١) تاريخ الفلسفة، اميل برييه، ج ١، ص ١٢٩ (بالفارسية).

كان، مع أن هذه الكتابات تقريرية في ظاهرها، أو أنها حوارات جدلية نصف فلسفية، الا انها اورثت افلاطون وسقراط الخلود والشهرة، وكانت الى ذلك وثيقة حاسمة لآرائه الفلسفية (أو آراء استاذه سقراط).

تتوزع الآراء المشهورة لافلاطون الى فئتي الحكمة النظرية والحكمة العملية. أشهر طروحاته في الفئة الاولى حدوث الروح (أو النفس) مضافاً الى رؤيته الكونية الخاصة.

وفي الفئة الثانية تبرز نظريته المعروفة حول «تدبير حكومة الجماهير» أو «بوليتيا» (Politia) التي اشتهرت لدى المسلمين بعنوان «المدينة الفاضلة» وترجمت في الغرب خطأً الى الجمهورية (Republic)، وقلنا أن نظريته هذه وجميع نتاجاته الاخرى لم تكن من ابداعاته الاصيلة، انما كانت كلها معروفة ومقبولة منذ القدم عند حكماء ايران والمناطق المحيطة باليونان.

في رأيه أن ثمة في الوجود مُثُلاً هي حقائق بسيطة غير مادية، وثابتة لامتغيرة، وأزلية، وكل ما نراه نحن (المتزمنون المحصورون بالزمن) في هذا العالم المادي المعقد وفي الزمن، إنْ هو الّا ظلال ورقائق لتلك الحقائق، أما أصل الاشياء وحقيقتها فهي تلك الصور والمثل السماوية. يشبِّه افلاطون ظواهر هذا العالم المادي واحداثه بظلال تسقط على جدار كهف، ويتصور مجموعةً من الرجال مصفّدين بالأغلال وجوههم الى الجدار وظهورهم الى خارج الكهف، أن هذه الظلال هي الحقائق، غافلين عن أن أصل هذه الاشياء انما هو افراد واشياء تتحرك خارج الكهف.

يعقد البعض من منطلق الاختراعات الحديثة، مقارنة بين هذه العلاقة والشريط السينمائي. لنفترض أن مجموعة من الاشخاص يُحبسون في غرفة بعيداً عن حقائق العالم الخارجي ومجرياته، ولايعرض لهم سوى فيلم عن الجبال والسهول والبحار

والصحراء والفواكه والانسان والحيوان، عندئذ لن يشك هؤلاء المسجونون في أن حقيقة هذه الاشياء والافراد هي مايرونه بأعينهم، ولن يصدقوا من يقول لهم ان أصل هذه الاحداث وحقيقتها قد وقعت في العالم الخارجي.[١]

بلغت هذه الفكرة فيما بعد أطواراً من النضج متقدمة جداً، وتبناها فريق ورفضها فريق. فقد رفضها انصار الفلسفة المشائية، وعلى العكس منهم جعلها الحكماء الاشراقيون ركيزة تصوراتهم الكونية العامة، الى أن بلغت ذروتها في عصر الحكمة المتعالية على يد الميرداماد وخصوصاً صدرالمتألهين، والمدرسة التي أورثاها.

النظرية الفلسفية الاخرى التي اشتهرت باسمه هي «قدم النفس الانسانية» أو الروح التي هي ملكوتية في الأصل، وهبطت بعد ذلك الى عالم المادة وحلت في جسم الانسان، وتعود الى مكانها وعالمها بعد الموت وانهدام الجسد، واذا تلوثت بذنوب الجسد فسوف تُلقىٰ في جهنم (أو تارتاروس).

بناء على حقيقة أن المثل النورية الالهية هي أصل كل شيء، والنفوس الانسانية غير منفصلة عنها، كان افلاطون يقول ان العلم المكتسب للانسان انما هو في الحقيقة ضرب من التذكّر أو استعادة ذكرى معلومات سابقة، ذلك ان النفس الملكوتية للانسان كانت تعلم كل شيء قبل ارتباطها بالجسم المادي، الا انها بعد حلولها في الجسد ذهلت عن تلك العلوم والمعارف ونسيتها، وحينما يواجه الانسان العلوم تتحرك فيه ذكرى معارفه ومعلوماته القديمة، لا أنه يتعلم اشياء جديدة.

في رسالة مينون التي وضعها افلاطون، يطرح سقراط على خادم مينون الذي لايعلم عن الهندسة شيئاً، اسئلة بشأن قضايا هندسية، فيجيب الخادم عن جميعها

---

١) التفكير الفلسفي في الغرب، الشهيد مطهري، ج ١، ص ٨٧.

اجابات صحيحة! وبهذا يستنتج أن اساس المعرفة هي علاقة قديمة للانسان بعالم المثل، فالنفس الانسانية هي الينبوع المتدفق للمعرفة شريطة الاستقاء منه وانتزاع المعارف من زلاله.

لأجل هذا اعتبرت كوكبة من الباحثين أن افلاطون هو أول من أثار اشكالية المعرفة أو الابستيمولوجيا. وخلافاً للتصورات الذائعة الفاشية بين لفيف من الباحثين الغربيين، لاعلاقة للمثل الافلاطونية بالتمهيد لحكومة الحكماء كأمر جامد لايقبل الحركة. يقول أحد مؤلفي الكتب الفلسفية في اوربا حول هذه النظرية العريقة القديمة التي يزعم انها من ابتكار افلاطون:

> طبقاً لتحليلنا، تنهض نظرية الصور أو المثل بما لايقل عن ثلاث وظائف مختلفة في فلسفة افلاطون:
>
> ١. تدبير مهم من حيث المنهج... يجعل المعرفة الممكنة الاطلاق على كل اشياء العالم المتغيرة، أمراً ممكناً.
>
> ٢. توفر مفتاح اكتشاف رموز نظرية التغيير والانحطاط...
>
> ٣. على الصعيد الاجتماعي... تجعل من المتاح صناعة أدوات لايقاف «التغيير الاجتماعي»، فهي تطالب بصياغة «أفضل الحكومات» وهي حكومة قريبة من مثال الحكومة أو صورتها الى درجة تمنعها من الانزلاق لطريق الانحطاط والفساد.[١]

يتناغم اساتذة الفلسفة هؤلاء مع السياسات العصرية السائدة، في تكريس ادعائها، أو في الواقع تهمتها وافترائها ـ المتلفع بلغة الانبياء ـ ضد سقراط وافلاطون،

---

١) المجتمع المفتوح واعداؤه، كارل بوبر، ج ١، ص ٦٣ (بالفارسية).

ولكي يربطوا بين نظرية ترجيح حكومة العلماء على نظامي الحكم الآخرين (الاستبدادي الفردي والاستبدادي الطبقي والحزبي المتكئ الى اصوات الناس) التي كان افلاطون أول من نقلها من المشافهة الى الكتابة، وبين نظرياته الفلسفية الاخرى المتعلقة بعالم المعرفة والتوحيد. فهم مستعدون لخوض غمار كافة ألوان التسويغ والتفسير والتأويل. ونحن هنا (وقد حان الدور لمناقشة نظرياته في الحكمة العملية) سنوضح نظرية افلاطون بشأن الحكومة.

عملياً، لم يكن نظام الحكم في العصور السالفة الّا واحداً من ثلاثة اشكال هي:

١. يسيطر شخص على السلطة إما بقوة السيف والتقتيل والتعذيب، أو بالوراثة، ويتعامل مع الناس كما يتعامل المالك بأمواله واحشامه، فيرى أن ارواحهم واموالهم ملك له، ويدير البلاد والمجتمع برأيه وميوله وارادته الفردية.

٢. تدار الدولة من قبل جماعة خاصة بسبب توزيع السلطة بين النبلاء والعوائل الحاكمة، كالامراء والقادة وزعماء القبائل، ويتم تدبير شؤون البلاد بأكثرية الاصوات وطبقاً لارادة الجماعة الحاكمة.

٣. يقف على رأس السلطة رجل دين روحي كالانبياء أو اصحابهم، يدير المجتمع والبلاد طبقاً للارادة الالهية والقانون السماوي.

ثمة هاهنا نقطتان تتعين الاشارة اليهما: الاولى هي أن الشكل الاول والثالث من أنظمة الحكم يتشابهان من حيث وجود فرد واحد على رأس السلطة، وكذلك من حيث إلزام الجماهير بقبول الاطار القانوني، الّا أن وجه الاختلاف المهم بينهما يعود اولاً الى النتيجة والهدف، فالهدف في السلطة الفردية البشرية والملكية هو حفظ السلطة والعرش للملك وجماعته، وضمان مصالحهم الخاصة، فلا تتخذ أية اجراءات أو مشاريع لتأمين سعادة الجماهير ورفاههم وتمتعهم بلذات العالم واكتسابهم الكمالات

المعنوية وتأمين سعادتهم الاخروية. أما في الحكومة السماوية فالحاكم خادم وأداة لخدمة الجماهير، والغاية من الزعامة هو توفير الرفاه والسعادة العامة للجماهير، وتأمين العدالة، وإفشاء الفضيلة، وتربية الناس لإحراز حسن العاقبة، وليس للحاكم الالهي منفعة شخصية في الحكم. وإذن فالفارق بين هذين النمطين من انظمة الحكم الفردية، كما بين السماء والارض.

النقطة الثانية هي أن ما اطلقوا عليه اسم «الديمقراطية»، واعتبروه سلطة الجماهير على انفهسم، ورأوا فيه بأم اعينهم اصوات الجماهير وارادتهم في اختيار الحاكم و انتخابه، ما هو في الحقيقة الّا سلطة «أقلية خاصة» أو سلطة قبلية خفية، سواء كانت تلك الاقلية من عوائل وانحدارات ارستقراطية، أو كانت من طبقات دنيا ارتفعت الى المراتب العليا بعد ما استولت على السلطة النسبية، وغدت من النخبة السياسية والاجتماعية.

في عصر افلاطون وسقراط، كان هناك في اثينا دوماً نوعان من السلطة يقفان من بعضهما موقف المعارضة والضد، ويتبادلان المواقع. تارة كان يحكم اثينا مستبد جبار (أو طوراني Tyrani باللغة اليونانية)، وتارة يحكمها جماعة من النبلاء. وفي زمن بيركليس فقط ـ وقد كان حاكماً حكيماً خضع لتربية الحكماء ـ قامت في اثينا سلطة نبوية حكمية أولت ـ كسائر الحكومات من هذا النمط ـ أهمية قصوى لاصوات الجماهير وارادتهم وانتخابهم، الى جانب حفظ الاصول الاخلاقية الالزامية، عارضةً للتاريخ مجتمعاً انسانياً مفتوحاً.

أما الذي لا تحصل عليه الجماهير في أي من هاتين السلطتين، فهو الرفاه العام وتوفير شروط مجتمع سليم، وكما قال افلاطون في المدينة الفاضلة أو الجمهورية فإن غايته هو وسقراط والحكمة والحكماء بصورة عامة، التمهيد لمجتمع نزيه هدفه القصير

المدى تأمين الرفاه لعامة الشعب، وهدفه البعيد المدى السعادة الأخروية للناس، وهذا ما يتحقق بفضل حكومة الحكماء، وقد تحقق فعلاً في غضون الفترة القصيرة لحكومة بيركليس على اثينا، وراح سقراط وافلاطون لايتكلمان عن الاستبداد، بل عن سلطة قانون الفطرة والحكمة والعقل (وبالتالي عن سلطة تقوم على اساس العدالة والفضيلة واحترام رأي الجماهير) وخلافاً للتهمة التي وجهت اليهما لم يعارضا الحرية الحقيقية للناس اطلاقاً، وعلى حد تعبير اسبينوزا:

> ان اعقل السلطات، هي اكثرها احتراماً للحرية، إذ أن الحياة الحرة عبارة عن حياة مرضية موافقٌ عليها تماماً في ظل قيادة تامة.[١]

وكانا يعتبران حكومة العلماء والعقلاء أفضل انماط الحكم للناس، فهي حكومة العقل وليست حكومة المشاعر العامية العابرة.

انه وصف غير دقيق ذلك الذي يطلقونه على افلاطون وانصاره فيقولون ان الفلسفة السياسية لافلاطون ركزت كلها على امتداح «السلطة المطلقة» للحاكم الحكيم العاقل، وأن نظام الحكم الافضل في نظر افلاطون هو النظام الاستبدادي.[٢]

مرد هذا الخطأ الى اساءة فهم كلمة «الاستبداد» فالاستبداد المدان والباطل هو الناجم عن عواطف وميول ومصالح شخص معين أو مجموعة من الاشخاص، والا فالاستبداد بمعنى «سلطة القانون الصارمة» لا يرفضه أحد ولا يشجبه شاجب،

---

١) اسبينوزا، كابلستون، ص ١٠٠ (منشورات حكمت): «يناقش اسبينوزا في رسالة السياسة ثلاثة اشكال عامة لأنظمة الحكم هي الحكومة الملكية، وحكومة النبلاء، وحكومة الشعب... الافضل أن نتناول مبدأه الكلي القائل: البلد الأقوى والاكثر استقلالاً هو المبتني على العقل والمسترشد به».

٢) تاريخ الفلسفة اليونانية، محمد مرحبا، ص ٢٥٠.

وحكومة الوحي والشرع التي يخضع لها الناس بكامل رضاهم واختيارهم وقد يطيعونها احياناً طاعةً عمياء، لايمكن ان تكون غير مستساغة.

والواقع ان هذا الاستبداد كالاستبداد والحكم المطلق للطبيب أو الممرض في حدود وظيفته لمعالجة المرضى والاشراف على شفائهم. ونحن نعلم أن وجود لون من ألوان الاستبداد في مثل هذه الحقول ـ إذ لا يمكن احالة الشفاء الى الميول الوقتية لهذا وذاك ـ انما هو جزء من سلطة القانون ولصالح الجماهير، وقد يكون عدم وجوده ظلماً عظيماً يتعرض له الناس.

كذا الحال بالنسبة لغياب حكومة العقل المطلقة، وترجيح العواطف الزائلة للناس التي تعود بالضرر على الناس انفسهم في أغلب الاحوال إنْ لم نقل في جميعها، وتفضي بالتالي الى اضطهاد يمارسه الاقوياء ضد الضعفاء، أو تسلط جبار قوي ومستبد أناني أو حكومة جماعة مخادعة ماكرة، أو قد تسفر عن الفوضى والاضطراب المدمر.

ما يقوله بعض الكتاب حول الديمقراطية في اثينا، يعود كله الى حكومة كانت تدار من قبل مجلس تشاوري وبواسطة جماعة معينة من الافراد أحلت نفسها محل النبلاء، ومع انهم منتخبون بالاقتراع وبأصوات الناس البسطاء، الاّ انهم كانوا حماة مصالحهم الفئوية، وعلى حد تعبير أحد المؤرخين المعاصرين:

> بمعنى من المعاني، لم تكن ثمة ديمقراطية اصلاً، فمن ٤٠٠/٠٠٠ نسمة في اثينا كان هناك ٢٥٠/٠٠٠ من العبيد والرقيق المحرومين من حقوقهم السياسية، ومن بين ١٥٠/٠٠٠ من الاحرار لا يحضر المجمع العام (Ecelesia) الذي تبحث فيه سياسة الدولة الاّ عدد قليل. لم تكن هذه الديمقراطية قائمة على اساس المساواة اطلاقاً. كان المجمع العام

سلطة عليا وعدد أعضائه اكثر من ألف شخص ينتخبون بالقرعة[١]
وحسب ترتيب الحروف الابجدية.[٢]

ان الذين يؤازرون، عن وعي أو عن غير وعي، مواقف الاحزاب المهيمنة على مصير الجماهير في الغرب[٣] ويسمون ما عرف اليوم بالديمقراطية ـ التي يفسرونها بأنها حكومة الشعب، وما هي في الواقع الّا ضرب من الاستبداد الاشرافي (القبلي والارستقراطي) ـ «مجتمعاً مفتوحاً» عليهم العودة تارةً ثانية الى تاريخ اثينا ليشاهدوا أن «المجتمع المفتوح» في اثينا لم يتحقق الّا في عهد البيركليسيين لا قبل ذلك ولا بعده. ففي ذلك العصر الذي ساد فيه العقل والحكمة، ظهرت الى النور حرية التعبير والعقيدة السياسية وشهدت المدينة اليونانية التطور والازدهار الفكري والروحي. وكان جميع ما حققه بيركليس بارادته في صورة تشكيل مجلس من نواب الشعب منتخَبين بأصوات الناس الحرة، ومنحِهِ حرية التعبير عن الآراء السياسية، قد توفر بفضل ما كان لبيركليس من حكمة وثقافة، وبعبارة أوضح: بفضل مبدأ «حكومة الحكماء» أو حصر السلطة في الحكماء، وهو ما أراده افلاطون وكافة الحكماء، ويسميه هذا المفكر والمتفلسف استبداداً، ويرى انصاره اعداءً للمجتمع المفتوح.[٤]

ان حصر السلطة بطبقة أو صنف معين لايدل دوماً على الاستبداد، وعلى قول أحد العلماء البريطانيين:

«اننا اذا ألّفنا الفريق الوطني لكرة القدم من أفضل اللاعبين، لن يعتبر أحد فعلنا هذا خلافاً للعدالة، فأعضاء هذا الفريق يتحلّون بتفوق خاص على باقي الناس. ولكن

---

١) طالما استهزأ سقراط بالسلطة التي تقررها القرعة.

٢) قصة الفلسفة، ويل ديورانت، ص ٧. ٣) المجتمع المفتوح واعداؤه، كارل بوبر.

٤) م س، ج ١.

اذا كانت لعبة كرة القدم ديمقراطيةً الى الدرجة التي كانت عليها حكومة اثينا، توجّب اختيار اعضاء الفريق بحسب القرعة...!»[١]

ان امثال بوبر وقفوا موقف خصام لا مع افلاطون وحسب، بل مع كافة الحكماء في واقع الامر، ولاسيما الحكماء الاشراقيين الذين سخطوا عليهم وعلى فكرتهم الداعية الى حكومة الحكماء، وفضلوا عليها سلطة الارستقراطيين والقبليين الشهوانيين الدمويين المخادعين النصابين العابدين لأهوائهم، واطلقوا عليها تسمية حديثة هي المجتمع المفتوح والديمقراطية.

ارسطو

تتسم الاراضي والاقاليم والاقوام والقبائل، كما هم الافراد، بالاختلاف والتنوع الكبير، واحياناً يتسنى رصد فوارق عظيمة بين شعبين أو اقليمين، ما يتمخض عن ظواهر مدهشة قد تغير مسار التاريخ بالكامل.

وقد رأينا كيف أن الحكمة والعلوم الاخرى واصلت مسيرتها في الشرق طوال قرون كنهر هادئ على قاع مستو، ولكن كما ان النهر الهادئ اذا جرى على قاع صخري وعر قد يتبدل الى سيل عارم، أو يصنع عند المنحدرات شلالات صاخبة، فإن الحركة الهادئة للحكمة المشرقية القديمة حينما بلغت السواحل والجزر الشرقية للبحر الابيض، وبعبارة أوضح: حينما وصلت شبهَ جزيرة اليونان، أمست مركزاً للضجيج و الحوادث الملعلعة. فقد انبثق من تلك الحكمة الصامتة متلبسون بالحكمة يسمون السفسطائيين، لم يكونوا بعيدين عن الحياة والسلوكيات الحكمية فحسب، بل وافسدوا الحكمة ذاتها وألغوها وعملوا على اقصائها.

---

١) تاريخ الفلسفة الغربية، برتراند رسل، ص ٢٣٨.

من ظواهر هذه الارض التي ترعرعت في أحضان الحكمة المشرقية، لكنها وقفت في نهاية المطاف كصخرة في وجه تيار الحكمة فغيّرت من مساره، هي ظاهرة ارسطو الذي يجب اعتباره من بين كل اولئك الحكماء المخفقين في تلك البلاد، أسعدهم حظاً واكثرهم توفيقاً على مر العصور، فقد كان من حسن حظه أن صاحب سلطاناً كالاسكندر جعله يتفوق لا بين الاقران وحسب، بل وصيّره في تاريخه الذي صنعه أحد اكبر فلاسفة العصور، وأحلّه طوال اكثر من ألفي عام على صدر منصة الحكمة والعلوم.

يعد ارسطوطاليس أو ارسطو نقطة متألقة ومحوراً رئيسياً في تاريخ الفلسفة والعلم، ورغم ظهور مئات بل آلاف الكتب عنه، لايزال بالامكان القول أن ارسطو الحقيقي لم يكتشف بعد، ولم يجرؤ أحد لحد الآن على تعريفه بوجهه الحقيقي وبكل مكونات شخصيته وعناصرها.[١]

كان نجل طبيب من اهالي مقدونيا اسمه نيقوماخوس، ولد نحو ٣٨٤ ق.م في مدينة «استاجيروس» على بعد خمسين فرسخاً من اثينا. ذهب البعض الى ان ولادته صادفت السنة الاولى لتولي اردشير السلطة في ايران،[٢] وقد فقد في صغره والده ثم والدته وذاق طعم اليتم.

---

١) معظم المؤرخين الغربيين يتناولون حياة ارسطو بنوع من التردد والتحوج كمن يكتب شيئاً عن اجداده وحيواتهم. لهذا بدلوا حتى سيئاته حسنات من حيث لايشعرون. وقد تماشى المسلمون ببساطتهم مع كتابات المؤرخين اليونانيين القدماء، وتصوروا دوماً ان ارسطو هو نفسه افلوطين كاتب التساعات والثيولوجيا، ولهذا نظروا اليه بوصفه عارفاً وحكيماً اشراقياً كبيراً، ولم يكتب لحد الآن تاريخ حقيقي تحليلي حول ارسطو.

٢) الملل والنحل، الشهرستاني، ج ٢، ص ٣٦٢.

يتجلى من دراسة سيرته أن فترة طفولته وصباه لم تكن طيبة هانئة. تولى القوامة عليه شخص يُدعى بروكسن، ولم تبارح خاطره صعوبات تلك الفترة الى آخر حياته، انما رافقته على شكل نزعة تفرد وتمرد من ناحية، وقساوة خفية من ناحية اخرى.

كان له من العمر ١٧ عاماً حينما غادر مدينته ودياره، وفي حدود ٣٦٦ ق.م اجتذبته شهرة مدرسة الحكمة الافلاطونية في اثينا الى الاكاديمية، فحضر دروس افلاطون الذي كان قد بلغ حينها سن الشيخوخة، وعكف على طلب العلم والفلسفة.

تشير القرائن الى ان افلاطون لم يستطع بسبب الظروف الاجتماعية في زمانه ومدينته، تشكيل مدرسته على غرار مدارس الفيثاغوريين أو حتى سقراط ومن سبقه من الحكماء، بعيدةً عن أعين الناس المتطلعة، فتكون محلاً آمناً للتربية الروحية والنفسية ومنتدى مغلقاً لممارسة الرياضات البدنية والروحية وآداب بناء الذات وتهذيب النفس، انما كانت اكاديميته بمثابة مدرسة مفتوحة وجهازاً يشبه الجامعات الحالية فيه صالات دراسة ومكتبة وحتى متحف.

كان افلاطون في ذلك الحين شيخاً له تجارب ومشاهدات ميدانية واسعة، عاد من رحلته الى صقلية، وربما كان قلقاً على الفلسفة السياسية اكثر من قلقه على النظريات العلمية والفلسفية، فأهم ما يشغل باله هو شؤون السلطة واضطراب اوضاع الحكومات والسلطة الحاسمة للاشرار على الاخيار التي شاهدها للتو في نموذج صديقه جبّار صقلية.

لذا من غير المستبعد أن يكون اهتمام افلاطون بهذا الموضوع قد دفعه للتقليل من دروسه العلمية والنظرية في الحكمة المحضة والالهيات المبتنية على الكشف والشهود، ومضاعفة البحث النظري في قضايا الحكم والسياسة الى جانب الهندسة

والرياضيات والطب والنجوم، تاركاً تربية الحكماء الاشراقيين على اسلوب السلف لذوي الموهبة والقابلية من التلاميذ والمستعدين لاحتمال الرياضات الجسمية والروحية. ويبدو منطقياً أن لا نعتبر ارسطو من هذه الفئة الاخيرة، انما نصنفه على المجموعة الاولى من الطلاب الذين قصدوا الدروس العامة والعلنية لافلاطون، وثمة قرائن تاريخية تدل على ذلك.

كتبوا عن ارسطو بما أن والده كان طبيباً وعالماً طبيعياً فقد نشأ الأبن في اجواء الطب، وكان ذا ميول طبيعية ومادية،[١] وهذه سمة تتجلى فيما انتجه في حقل الالهيات، وسوف نتطرق لهذا الجانب عند دراستنا لعقائده وآرائه.

ويروى عن فترة شبابه انه كان مولعاً بشراء الكتب واقتنائها وقرائتها، ولأنه كان بطبيعته مسرفاً لا يتمتع بعقل معاشي راجح، فقد بدا مسرفاً حتى في شراء الكتب وجمعها.

تتلمذ على افلاطون في العشرين سنة الاخيرة من حياة الاخير، وثمة روايتان حول طبيعة علاقته باستاذه. ورد في بعض الآثار والكتابات التي تناولت سيرته ان افلاطون لقبه بـ«العقل»، بل قيل أن افلاطون لم يكن ليبدأ درسه ما لم يحضر ارسطو.[٢] وقيل ايضاً ان ارسطو وربما بسبب ذاكرته القوية، كان يعيد إلقاء دروس الاستاذ على التلاميذ، أو انه يقررها حسب المصطلح الشائع في الحوزات العلمية اليوم، وهذا ما يمكن أن يعد ميزةً خاصة. وقال البعض انه كان مسؤولاً عن تدريس الخطابة أو الريطوريقا (Rhetorique).[٣]

---

١) قصة الفلسفة، ويل ديورانت، ص ٤٩ (بالفارسية).

٢) ارسطو، جون برن، ص ٥، وكذلك «رسالة في الحدوث» للملاصدرا، ص ١٥٥ (خاتمة الرسالة).

٣) ارسطو، جون برن.

وفي مقابل هذا، هناك في المصادر الغربية اشارات الى عدم انسجام كان بينه وبين افلاطون والافلاطونيين. «يقال ان ارسطو انتهز غياب افلاطون لبسط نفوذه في الاكاديمية... وقد اتهمه افلاطون بعدم الوفاء وشبهه بحصان صغير يرفس أمّه».[١]

في حال صحة هذا الرأي وأن ارسطو ـ ربما بسبب خصوصياته العرقية أو عقد طفولته وصباه، أو لطبيعته النافرة من الحكمة ولاسيما الحكمة المشرقية ـ لم يكن ودوداً ووفياً لافلاطون واصدقائه ـ نظير اسپوسيپوس ابن أخت افلاطون الذي جعله خليفة له رغم وجود ارسطو ـ ربما جاز اعتبار الكلمات التي يثني فيها افلاطون على ارسطو من نتاجات الدعاية الحكومية الواسعة التي حظي بها ارسطو في زمن الاسكندر، مع أن كلا الحالتين قد تكون صحيحة، ويكون المديح والذم قد وقعا كلٌّ في محله وفي ظروفه الخاصة.

وحسب رواية اخرى، رفع ارسطو صوته بمعارضة استاذه ولهذا ترك الاكاديمية. وقد اتخذ موقفاً معارضاً في مواجهته لايسوقراط (Isocrate) خلال بحث سجالي جدلي.[٢]

ان دراسة تاريخية للجذور الذاتية والاجتماعية التي كانت وراء الخلاف بين ارسطو واستاذه، تعد مفيدة للتحقيق في اسباب انفصاله عن المدرسة الاشراقية العريقة وتأسيسه مدرسة لا تتعارض مع فلسفة افلاطون وكل حكماء اليونان وحسب، بل وتشتبك في صراع مع مجمل الحكمة المشرقية القديمة، خصوصاً اذا ربطنا ذلك بفتوحات الاسكندر وحربه ضد الشرق وما اجترحه من دمار هناك.

---

١) المفكرون اليونانيون، غمبرتس، ج٣، ص ١٢٣٩.
٢) ارسطو، جون برن.

المسلم به في أقل التقادير أن افلاطون لم يعهد بادارة مدرسته المعروفة ـ التي كانت قلعة لنشر الثقافة والحكمة ومواجهة السفسطة والسفسطائيين، وكان افلاطون شديد الاعتزاز بها ـ الى ارسطو الذي يقال انه كان العقل المجسم والمحبوب لاستاذه، انما عهد بها الى ابن اخته ـ الذي أقر له الجميع بالكفاءة ـ وهذا ما أسفر لا عن امتعاض ارسطو و هروبه وتحامله فقط، انما كان بمثابة علامة لعدم ثقة افلاطون به، ولا ندري هل كانت عدم ثقته هذه بعلميته وتبحره في الفلسفة والعلوم، أم بنقاء روحه وتهذيب نفسه الذي كان الشرط الاول للقيادة والارشاد والتعليم في تلك المدرسة، أم بمنهجه واسلوبه، أم بأمور اخرى؟

ذكر البعض ان فترة تتلمذ ارسطو لم تناهز الثماني سنوات،[١] وبهذا يتسنى استيعاب عدم تمكن ارسطو من عمق الحكمة المشرقية لافلاطون وسقراط بصورة أفضل مما بدا عليها.

أياً كان، غادر ارسطو اثينا بعد وفاة افلاطون، وتوجه بصحبة صديقه اكسينوقراط (Xenocrate) الى مدينتي طروادة وإسوس اولاً، وتعرف هناك الى هرمياس (Hermias) الاستاذ السابق في الاكاديمية والذي اصبح الان حاكماً لمدينة إسوس،[٢] وتقرب اليه، ويبدو أنه أقام هناك مدرسة لتدريس الفلسفة والعلوم الاخرى على غرار الاكاديمية، وعمل هناك لما يقرب من ثلاثة اعوام في التدريس ووضع بعض مؤلفاته الاولى، كما اكتسب على سواحل تلك المنطقة تجارب مهمة في معرفة الحيوانات المائية.[٣]

---

١) قصة الفلسفة، ويل ديورانت، ص ٤٩.

٢) ارسطو، جون برن، ص٦.   ٣) م س.

على ان هرمياس وقع في أيدي الناس وقتل بتهمة التجسس والعمالة لملك ايران (اردشير الثالث) وخيانة الوطن. تزوج ارسطو من ابنة أخت هرمياس، لذلك غادر تلك المدينة الى مدينة اخرى هي متليني.

في عام ٣٤٣ طلب ملك مقدونيا فيليبوس (فيليب) والد الاسكندر من ارسطو ان يأتي اليه ويتولى تربية ابنه البالغ من العمر آنذاك ١٣ عاماً ويعده لتولي السلطة. كان له من العمر ٤١ سنة حينما توجه الى مقدونيا ومكث هناك الى حين هجوم الاسكندر على آسيا. كان فيليب حاكماً يتحرق الى القدرة ويتمنى فتح البلدان على شاكلة الملوك الايرانيين. لذلك انتهز ظروف الحرب وانفصال المدن اليونانية وضعفها وبادر الى احتلالها واحدة تلو الاخرى، واستولى على اثينا ايضا، ويبدو أن ارسطو كان مستشاره في كل ذلك، وقد ساعده في الانتصار على اثينا، وهذا ما حفّز اهالي اثينا على طرد ارسطو منها بتهمة الخيانة، مباشرة بعد موت الاسكندر وزوال دولته القصيرة الأمد.

كتب المؤرخون عن الاسكندر أنه كان مصاباً بالصرع، ومدمناً على الخمر، وشريراً متوحشاً فضاً عدوانياً يهوى الخيول غير المروضة. وذكروا انه تتلمذ على ارسطو لعامين فقط.[١] وكان معه تلميذ آخر هو كاليستنوس (Kallisthenos) ابن اخت ارسطو الذي اصبح صديق الاسكندر وساعده الايمن، وصحبه الى حربه ضد ايران وضحى بنفسه في هذا السبيل.

عاد ارسطو الى اثينا نحو سنة ٣٣٥ ق.م، وشيد مدرسة في مكان يدعى لوكيون

---

١) قصة الفلسفة، ويل ديورانت، ص ٥١.

أو اللوقيون (Lyceun) لينافس بها الاكاديمية التي ما عادت تتقبله.[١] ويبدو أن «فروعاً متعددة ومتنوعة كانت تدرس في هذه المدرسة، وما الكتابات الدراسية التي وصلتنا عن ارسطو الاّ آثار لهذه الدروس».[٢]

وكما ان نشاط ارسطو كاستاذ في اثينا بدأ مع تتويج الاسكندر، فقد أفل نشاطه هذا بموت الاسكندر. وقد ظهرت الى السطح بموت حاميه ونصيره كل حالات الحسد والاساءة والحقد التي كان ارسطو قد أثارها الى ذلك الحين، وتسببت في أوضاع وأحوال جعلت هذا الانفجار على جانب عظيم من الخطورة.[٣]

وسوف نعرب عن رأينا في هذا الصدد لاحقاً، كما سنناقش الوضع الذي كان عليه ارسطو فيما يتعلق بهذه القضية.

على الرغم من الدعم السخي الذي قدمه الاسكندر ورجال حكومته في اليونان لارسطو ومدرسته، حيث كانوا ينفقون كل ما تتطلبه المدرسة وارسطو ذاته الذي عاش وضعاً ارستقراطياً بالطبع، الاّ أن اكاديمية افلاطون التي كان يرأسها آنذاك اكسينوقراط ـ زميل ارسطو القديم في الدراسة ـ حافظت على مكانتها وجلالها. وسنرى ايضاً انه على الرغم من هجوم سيلغون والمدرسة المشائية على افلاطون والافكار الاشراقية، بيد أن هذه الحكمة الاشراقية واصلت فاعليتها بعد موت ارسطو وافلاطون في المنطقة المتوسطية وحتى الاسكندرية بمصر، فلم يخبُ السراج الذي أوقده الله.

قيل ان مدرسة اللوقيون وبفضل الاموال التي اغدقها عليها الاسكندر كانت

---

١) تلفظ «ليسيه» باللغة الفرنسية، وكلمة ليسانس مشتقة منها، ويرى الغربيون عن وعي أو بشكل عفوي انهم ورثتها وابناؤها.

٢) المفكرون اليونانيون، غمبرتس، ص ١٢٤٣.

٣) م.س.

مجمعاً غنياً بالكتب النادرة المقتناة من شتى انحاء العالم، وكذلك بنماذج متنوعة من الحيوانات والنباتات النادرة. وكتب المؤرخون:

> وضع الاسكندر ألف شخص تحت تصرف ارسطو توزعوا في اليونان وآسيا يجمعون له نماذج من النباتات والحيوانات، وكان يعطيه ٨٠٠ تالان (ما يعادل ٤ ملايين دولار) ليشتري بها أدوات الدراسة والعمل.[١]

ومن الطبيعي نظراً لكل ذلك الدعم الحكومي للمدرسة، أن يحظى مؤسسها بعظمة وجلال ظاهري كبير. لسنا نعلم الكثير عن أساليب التدريس التي كانت معتمدة هناك. كان الاستاذ يتجول في الفناء المفتوح للمدرسة يحيط به تلاميذه يسألونه ويجيبهم، لهذا سميت المدرسة الارسطية بالمشائية (Peripateticien) رغم أن طريقة التجول هذه كانت مرسومة في اثينا حتى قبل ذلك.

اشتغل ارسطو مدة ١٣ سنة بالبحث والتدريس والتأليف في هذه المدرسة، الا أنه خلافاً لما استطاعه افلاطون في مدرسته، لم يفلح في تخريج تلاميذ كبار يستطيعون مواصلة تعاليمه أو احتلال مكانة مهمة في التاريخ. واذا ما استعرنا التعابير الفلسفية التي استخدمها هو نفسه حينما صنف الحركة الى نوعين احدهما طبيعي والآخر قسري، ربما جاز لنا أن نعتبر اللوقيون أو مدرسة ارسطو ـ التي شيدت لتقف امام جميع الفلاسفة السابقين ذات حركة قسرية غير طبيعية، على الضد من مدرسة افلاطون التي سارت بحركة طبيعية غير قسرية، إذ أن مدرسة ارسطو قامت وتأسست بقوة السياسة المقدونية، ودعم الاسكندر، والحساسية الشخصية لارسطو من استاذه افلاطون. ولهذا وبحكم ان «القسر لايدوم» منيت مدرسته بعد برهة وجيزة من وفاته

---

١) قصة الفلسفة، ويل ديورانت، ص ٥٣.

بالعزلة وخبا رونقها، ولولا دفاع الفلاسفة المسلمين عنها، وخصوصاً الحكيمين الايرانيين العظيمين (الفارابي وابن‌سينا) لما عادت الروح ثانية الى جسدها الميت.

كان مصير ارسطو ومدرسته اللوقيون مقترناً بحياة الاسكندر، إذ لم تستمر الحياة بهما لفترة تذكر بمجرد أن مات هذا المدمر والعدو الكبير للحضارات القديمة وخصوصاً ايران وملوكها.

حينما توفي الاسكندر سنة ٣٢٣ ق.م أخرج ارسطو من اثينا مُهاناً، فقد طرده الاثينيون ومنهم الخطيب المشهور ديموستينوس (Drmostonus) وأرادوا محاكمته واعدامه بجريمة خيانة اثينا. الّا ان ارسطو الذي تذكر حادثة اعدام سقراط، فر من هناك. واذا اردنا مجاراة بعض المؤرخين الغربيين الذين توخّوا مراعاة حرمته، قلنا كما كتبوا أنه خرج بنفسه من هناك.

مكث مدة من الزمن في جزيرة ايوبيا ـ موطن والدته ـ الى أن وافاه الأجل عام ٣٢٢ ق.م عن ٦٣ سنة. ومع أن تلاميذه بذلوا جهودهم للابقاء على مدرسته المشائية ومقرها في لوكيون، الا انها لم تتواصل، ولم يكتب لها عمر طويل، وظلت حبيسة مؤلفاته ومؤلفات ثلة من اتباعه، الى ان احياها المسلمون ثانية بعد زهاء عشرة قرون واسبغوا عليها رونقاً الى درجة أنه لو بعث الى الحياة ثانية لما عرفها.

مدرسة ارسطو وآثاره

خلافاً للمدرسة الافلاطونية المتسمة بنوع من الثبات، والتي انتقلت للاجيال اللاحقة فيما يشبه التراث أو التحف الثمينة، لم يكتب الثبات للمدرسة الارسطية التي مرت بعدة مراحل وأطوار. وتبعاً لذلك لم تكن اعماله وآثاره ذات إطار محدد، ويبدو أنها تعرضت لبعض التغييرات. نسبت اليه العديد من الكتابات لا يعرف عن الكثير منها

حتى اسماؤها. يذهب البعض الى أن معظم كتاباته انما هي تقريرات دروسه في اللوقيون وحتى في اكاديمية افلاطون، أو مدونات على شكل رؤوس نقاط سجلها لنفسه.

ونعتقد أن مؤلفات ارسطو وآثاره على صنفين:

الاول: آثاره وكتاباته قبل هجوم الاسكندر على مصر وبابل وايران.

والثاني: آثاره بعد الهجوم والانتصار، والاطلاع على الكتب والمصادر الخاصة بالحكمة والعلوم المشرقية.

الظاهر أن غالبية آثار ارسطو المتبقية أو جميعها، رسائل وضعها بعد اطلاعه على الكتب العلمية الشرقية، والايرانية والمصرية منها بخاصة، وفيها افكاره النهائية التي توصل اليها. من المعلوم لدينا أن ارسطو لم يستطع القيام برحلات بعيدة الى بابل وايران والهند، وحتى مصر وصقلية كما فعل استاذه افلاطون وحكماء آخرون. لذلك ـ سواء قلنا ان الاسكندر تأثر في حداثته بتعاليم ارسطو وترغيباته حول بلاد ايران وما تتمتع به من عظمة وجلال وحكمة، وربما تحفيزه المقصود على فتح البلدان، ما جعله يبرم عزيمته بكل قوة وبلا أي تردد في الهجوم على ايران ومستعمراتها ويتفاءل لنفسه بالنصر، أو قلنا أن أعماله السياسية والعسكرية كانت من بنات أفكاره وابداعاته الخاصة التي ورثها عن والده ـ فإن من الحقائق المسلم لها هو ان الاسكندر ربما وعد ارسطو بأن يرسل له الى اليونان ما ينهبه من الكتب من خزائن السلاطين ولا سيما الآثار القيمة للمعابد الايرانية (ما ينفع ارسطو منها) بواسطة ابن اخته السائر في ركاب الاسكندر، وأن يحرق كل ما لا يراه نافعاً. وابن الاخت هذا هو كاليستنوس زميل الاسكندر في الدراسة وعضيده الذي سبق أن تحدثنا عنه.

وهكذا، نقرأ في التاريخ أن الاسكندر جمع الكتب القيمة من مكتبات البلاط

الايراني ومقرات المغان ومعابدهم وأحرقها دفعة واحدة.[١] ونرى في مكان آخر أن كاليستنوس كان يعود بعد كل انتصار يحققه الاسكندر الى اثينا حاملاً لخاله مجموعة من الكتب.[٢]

يعتقد الكثير من العلماء في المشرق والمغرب أن ارسطو وضع علم المنطق اقتباساً من الآثار الشرقية المتبقية لديه، وحتى بعد ظهور الاسلام وانتصاره على ايران

---

١) غزو الاسكندر لفارس وقتل ملكها دارا وبعد استيلائه على مدنها وهدم علومها ونسخ ما كان من كتبها في الخزائن والدواوين بمدينة اصطخر، ثم ترجمتها الى الرومية والقبطية بعد احراق نسخها الفارسية. ويقال ان اشهر كتاب تم حرقه فيها اسمه «الكشتج» وان فيه الكثير من علوم الطب والنجوم والطبايع. ثم ان الاسكندر بعث بتلك النسخ والكتب العلمية الى مصر فلم يسلم منها سوى العدد القليل...» (تاريخ التنجيم عند العرب، يحيى شامي) وجاء ايضاً في دينكرت وبندهشن وارداي ويرافنامه أن الاسكندر أحرق الاوستا (مزديسنا والادب الفارسي، محمد معين، ص ٨).

٢) يقول الشهرزوري أن الاسكندر حينما احتل ايران استولى على العلوم المنقوشة والاوراق المحفوظة في بابل، واستنسخها وترجمها وبعثها الى اليونان، ولم يسلم من غارة اليونانيين سوى بعض النسخ التي سبق أن نقلت الى الخارج بأمر من زردشت وجاماسب الحكيم... (كنز الحكمة، ج ١، ص ٥١، من مقالات د. محمد معين، ج ١، ص ٤٣٨). ويقول ابن حزم الاندلسي عن ذلك: كان كتاب المجوس ودیانتهم محفوظة عند الموبدين طوال فترة حكمهم، وموزع بين ٢٣ هيربد، لدى كل واحد جزء يجب ان لا يطلع عليه الآخرون. كان ثلث ذلك الكتاب قد تلف، وهذا ما يقوله جماعة من علماء المجوس. (الفصل، ج ١، ص ١٣٥، طه: دار الكتب)ويقول في موضع آخر: يقول المجوس ويعترفون ان كتابهم الديني احرق من قبل الاسكندر بعد مقتل دارا، وتلف اكثر من ثلثيه، ولم يبق الّا ما دون الثلث، وكانت الديانة الزرادشتية في القسم الذي احرق (م.س، ص ١٣٧) ويقول ايضاً: جاء في كتاب اسمه (خداي نامه) [كتاب الاله] يقدسونه بشدة أن انوشيروان شاه لم يسمح بافشاء تعليم الدين في غير مدينة اردشير خرّه... والكتاب الذي بقي لهم بعد أن احرق الاسكندر اكثره، كان ٢٣ قسماً أودع كل قسم منه لدى هيربد لايعطيه لل ٢٢ الآخرين، وكان الموبد والموبدون مطلعون على كل تلك الاقسام.

كانت ما تزال هنالك كتب في المنطق عرفت باسم المنطق المشرقي، وكانت مختلفة ببعض الفوارق عن منطق ارسطو، وكتاب «منطق المشرقيين» لابن‌سينا يعزا الى هذا المنطق.

اما الآثار السابقة لارسطو، والتي لم يبق منها شيء أو أن نسبتها لارسطو غير قطعية، فمن الممكن أن يكون قد أتلفها هو بنفسه.

بالامكان تصنيف الآثار المتبقية لارسطو الى خمس مجاميع:

١. كتبه المنطقية المشتملة على المقولات أو القاطيغورياس (Catagoria) ـ الجدل أو الطوبيقا (Topica) ـ القياس أو الآنالوطيقا الاولى (Analytica) ـ البرهان أو الآنالوطيقا الثانية ـ الخطابة أو الريطوريقا (Rhetorica)، التي جمعها تلامذته بعد ذلك في مجموعة باسم الارغنون، ويجب أن نسميها المنطقيات.

٢. كتبه الفلسفية التي وضعها بعد كتابه في الطبيعة والطبيعيات، ولذلك اطلقوا عليها اسم «مابعدالطبيعة» أو متافوسيس (Metaphysis)، وقد ترجم المسلمون والاوربيون عنوانها على هذا النحو، ما أدى تالياً الى وقوع كثير من الاخطاء.[١]

٣. كتبه حول الطبيعيات (أو فوسيس) واشهرها (السماع الطبيعي) ـ (في النفس) ـ في (الكون والفساد) وعدة رسائل حول علم الحيوان والسماء والاجرام السماوية.

٤. كتبه في الاخلاق، واشهرها كتاب باسم نجله (نيقوماخوس) ـ كتاب آخر بعنوان «اخلاق اوذيموس» و «الاخلاق الكبير» و «كتاب السياسة» و «قانون الاثينيين» في ٥٢ مادة، وقد اكتشف في مصر عام ١٨٩١ م!

---

١) راجع: تاريخ الفلسفة، كابلستون، ج ١، ص ٣١٠ ـ ٣١٨؛ تاريخ الفلسفة، اميل بريیه، ص ٢٢١؛ ارسطو، جون برن، ص ١٢؛ موسوعة الفلسفة، بدوي، ومصادر اخرى.

٥. آثاره المتفرقة في الشعر وأمور اخرى لاتليق بمنزلة الحكيم.[١]

كرأي مجمل حول العمق العلمي والفلسفي والذوق المعرفي لارسطو، يميل رأي كل باحث الى عدة نقاط من خصائصه. أولى سماته الشخصية هو ذهنيته ذات النزعة الجزئية، التي تبقيه في مستوى عالم تجريبي مختبري، فروحه متباينة جداً عن روح الفلاسفة والحكماء ذوي النزعة الكلية الشاملة.[٢] فكما جاء في تعريف الفلسفة وموضوعها، تتناول الفلسفة «الموجود» الخارجي ولكن بحيث يكون نقياً من شوائب العلم (الرياضيات والطبيعيات) و «غير متخصص الموهبة» كما في الاصطلاح ليكون طبيعياً أو تعليمياً أو خلقياً أو غير ذلك.[٣]

وبالتالي فإن صاحب النظرة الجزئية، والذي يطل على الاشياء من زاوية خصوصياتها الطبيعية أو الهندسية، هو اما مجرد عالم بمعنى الساينتيست الغربي (Scientist) أو انه يقارب الفلسفة بشكل مغلوط وبأدوات ورؤية غير فلسفية.

طائفة من المؤرخين اعتبروا فلسفة افلاطون فلسفة مثالية خيالية، وفلسفة ارسطو ذات طابع واقعي وضعي، والحال ان استخدام مناهج العلوم الطبيعية والرياضية في الفلسفة، مما لايمكن ان نسميه فلسفة، لذلك ليس الثناء على ارسطو باعتباره «مَن نزّل الفكر من السماء الى الارض» ثناء ناضجاً وفي محله، إذ أن هذا أقرب الى خطأ منهجي منه الى الفلسفة الخالصة.

---

١) المفكرون اليونانيون، غمبرتس، ص ١٢٥٥.

٢) م.س، ص ١٢٥٧: «من خصوصيات ارسطو ولعه العجيب بالجزئيات... بوسعنا اعتبار هذه الخصوصية صفة ورثها عن ابيه واجداده الذين كانوا جميعاً اطباء».

٣) الشفاء، الالهيات، ص ١٣. الاسفار الاربعة، ج١، ص ٢٣ (الفصل الاول، المنهج الاول، المرحلة الاولى).

يمكن مقارنة ارسطو من هذه الناحية بديكارت الذي كان مولعاً في الاصل بالرياضيات والعلوم الطبيعية، لكنه اضطر من أجل بلوغ اهدافه الى خوض غمار الفلسفة (كشخص يضطر للوصول الى بيته أن يعبر من خلال أحد الانهار، لا أن تكون السباحة مهنته) ان مثل هؤلاء المتفلسفين لايمكن اعتبارهم فلاسفةً في الواقع، رغم ان المسلمين عدوا ارسطو اكبر الفلاسفة (المعلم الاول)، وديكارت ايضاً لم يُعتبر فيلسوفاً وحسب، بل توجوه مؤسساً للفلسفة الحديثة في الغرب.

الخصوصية السلبية الاخرى لارسطو، والتي قد لاتكون عامة، الا انها غير محبذة في الحكيم على كل حال، عدم اكتراثه للحقائق الممكنة التجريب في الواقع الخارجي، والاعتماد على الحدس والظنون والفرضيات في المسائل التجريبية والعلمية. يقول أحد المختصين في الفكر الارسطي:

> ... تصور ارسطو عدد الاسنان مختلفاً بين ذكور النوع الواحد واناثه، وقال ان اسنان الرجل أكبر من اسنان المرأة. ان مثل هذه الملاحظات الخاطئة وغير الدقيقة مما لايمكن ان يعزا الى عدم توفر الآلات والوسائل العلمية اللازمة في العهد القديم. والحقيقة ان جامع كل العلوم والمعارف هذا حمل على عاتقه ما لا طاقة له به، واضطر الى استقاء معظم معارفه من كتب العامة وثقافتهم ومعتقداتهم، لا من مشاهداته الخاصة، لهذا لم يكن تقييمه لهذه الكتب والثقافات صائباً على الدوام.
>
> كان يسمي هيرودوت ساحراً، والحال أنها مذمة تصدق عليه هو إذ يقول لنا ان تلقيح انثى الدرّاج يتم عن طريق الريح التي تخرج من الذكور، وأن الغربان والزاغ والسنونو تكتسب اللون الابيض لشدة البرد، وأن انفاس النساء ترش المرآيا اثناء الدورة الشهرية بالقليل من اللون

الاحمر... .[١]

لقد اتصف ارسطو بسمة التساهل وعدم الدقة في الظواهر الطبيعية حينما كان بمستطاعه في معظم فترات عمره أن يمارس التجريب العلمي، وكانت العينات اللازمة في متناول يديه، وقد توفرت له في اللوقيون أفضل النماذج النباتية والحيوانية النادرة، وكان بوسعه على الاقل أن ينظر مرة واحدة لفم زوجته ليطلع على عدم وجود فارق بين أسنان الجنسين.

صفته الاخرى هي عدم تحلّيه بالذوق ولطافة الطبع والحس الجمالي. ومع ان البعض امتدحه لامتلاكه اسلوباً فنياً، والبعض الآخر ذهب الى ان آثاره التي كتبها للعامة من الناس ذات جمالية فنية خاصة، بيد أن كتاباته العلمية خالية من السلاسة والجمال.[٢]

يقول أحد المختصين المشهورين بأرسطو وفكره، عن هذا الشأن:

> ان تقييم القدماء فيما يتعلق بالاسلوب الفني لآثار ارسطو مثار دهشة بالنسبة لنا. اننا لا نرى في كتابات هذا الفيلسوف أثراً لجزالة القول وجماله... انه كاتب رتيب باهت الألوان لا يتورع عن ايجاز مخل ولا عن اطناب ممل، بل ان بعض كتاباته غامضة معماة وسطحية.

ومن الافضل لتقييم اسلوبه الكتابي مراجعة النصوص المترجمة لكتبه، لكننا لتنوير اذهان القراء، اخترنا نموذجاً من كتاب «مابعدالطبيعة» يتصف بالسهولة والجزالة النسبية، ويبقى التقييم للقارئ. يقول في تعريف الجوهر أو الأوسيا:

---

١) المفكرون اليونانيون، غمبرتس، ص ١٢٧٨. أرسطو، جون برن، ص ١٢٢ و ١٢٣.
٢) تاريخ الفلسفة، كابلستون.

يطلق الجوهر على نوع من الاجسام البسيطة كالتراب، والنار، والماء، وما الى ذلك، والاجسام المركبة، والحيوانات، والموجودات الملكوتية (المفارقات) واعضائها. كل هذه تسمى جوهراً، لأنها لاتقال عن موضوع، انما تقال اشياء اخرى منها. بنحو آخر، يطلق الجوهر على العلة الذاتية لوجود أشياء لاتقال عن موضوع كالنفس في الحيوانات، وكذلك كل الاجزاء الداخلية او الذاتية لمثل تلك الاشياء التي تحددها وتدل على هذه الاشياء، وبارتفاعها يرتفع الكل، على غرار ما قاله البعض من أن ارتفاع المستوي يرفع الجسم، وارتفاع الخط يرفع المستوي. وعموماً هكذا يرى البعضُ العدد.

كذلك الماهية والتعبير عنها هو تعريف، تسمى جوهر كل واحد من الاشياء. وبالتالي يقال الجوهر عن نوعين:

١. شبيه الموضوع الاول، والذي لايقال عن شيء آخر بعده.

٢. ما هو هذا الشيء الموجود هنا وبشكل مستقل. مثل جسم وصورة كل واحد من الاشياء... .[١]

وهناك نماذج اخرى غامضة وغير مفهومة، ولولا أن شرحها فلاسفة كابن‌سينا

---

١) مابعدالطبيعة، ارسطو، ص ١٤٧ (بالفارسية) استيعاب ما يرمي اليه ممكن بالنسبة للمطلعين على الفلسفة رغم ما فيه من صعوبة، بيد أن امكانية الاستيعاب هذه جاءت بفضل الكتب الفلسفية للقدماء الذين كتبوا الكثير في هذا الخصوص واتضحت المسألة للجميع، والّا من المتعذّر انكار ما في عبارات ارسطو من قصور ونواقص، الى درجة ان التاريخ يحدثنا ان ابن‌سينا هو الآخر عجز عن ادراك المسألة بصورة تامة فاستعان بشرح الفارابي، والفارابي بدوره لم يفهم المسألة الّا بفضل شروح الآخرين (مترجمي كتب ارسطو الذين اضطلعوا في مسائل المشائين).

والفاربي، لما تيسر فهمها، وربما كان من اسباب عدم الازدهار السهل لهذه الفلسفة في اوربا، ونفوذها هناك عن طريق المسلمين وبعد شروحهم وتفاسيرهم لها، هو غموضها هذا والتعمية التي تحيط بمسائلها وتجعل قراءتها اشبه بالمسير في طريق صخري وعر.

السمة الاخرى لارسطو والتي يمكن ان تعد ايجابية، هي ذهنيته المقنِّنة والمتمكنة من التصنيف والتبويب. وبالمقدور اعتبار هذا المنهج تتمةً واستكمالاً لفن الجدل ومواجهة السفسطة والمغالطة. ذلك أن التبويب لاسيماً اذا افضى لـ «الحصر العقلي» يسهل عمليات «الحد» والتعريف، ويقلص من مساحة وامكانية المغالطة واساءة استخدام «المشتركات» في المفاهيم والالفاظ فتتضاءل فرص المغالطة امام المسفسطين والمجادلين.

الظاهر أن البذور الاولى لهذه العملية ـ التي افضت تالياً الى تدوين المنطق الارسطي وافرزت المقولات واقسام الحد والرسم ـ كانت موجودة في تعاليم سقراط، وقد بادر افلاطون في الفرصة التي اتيحت له بعد مقتل سقراط الى تدوينها وتدريسها، وصاغها ارسطو بشكلها المحدد مستفيداً من موهبته في التبويب، ورغبته في كتابة عقائده وافكاره الفلسفية.

ولكن حتى هذه السمة الايجابية كانت لها ابعاد سلبية عنده. على حد تعبير أحد مؤرخي سيرة ارسطو ومدرسته: «اعتبروا طروحات ارسطو فلسفة تنظِّم الافراد ضمن سلسلة مراتب الاجناس، وتنظر للعالم نظرة متوقفة ثابتة يستقر فيها كل شيء في مكانه وبنحو ثابت».[١] بمعنى ان الرغبة الجامحة في التبويب بمقدار ما تسهل عملية التحقيق، بمستطاعها ايقاف الحركة الفكرية وتنميطها.

---

١) ارسطو، جون برن، ص ٢٥.

الصفة الاخرى التي يمكن ذكرها لارسطو هي عدم اكتراثه لمن سبقه من الحكماء، وقد كان كل واحد منهم نبياً ذا رسالة علمية وحكمية قيمة. ومع ان ارسطو كان يمتلك مكتبة جامعة ثمينة وقد تتلمذ على يد استاذ مبرز كافلاطون واستطاع عن هذا الطريق معرفة افكار الحكماء السابقين وقراءة بعض آثارهم المكتوبة ـ التي ربما كانت نادرة جداً ـ لكنه لم يأخذ في معظم الحالات بأفضل ما جاء به هؤلاء السلف من آراء، وتمسك بأضعفها وأوهنها، وآراؤه هو بالذات ـ وقد كانت منظمة مرتبة في ظاهرها ـ لم تضاه افكار السابقين ابداً ولم تتفوق عليها، بل لم تخل من انحرافات واخطاء سحرت اذهان العلماء لقرون متمادية، وسلبتهم القدرة على الابداع واكتشاف الحقيقة، وكما قال أحد الباحثين: «ارسطو هو المسؤول عن التفكير الظلامي الذي ساد القرون الوسطى...».[1]

فمثلاً رغم وجود نظرية ديمقريطس حول الارض التي تقول ان مركزها ساخن ملتهب، ونظرية «مركزية الشمس» التي آمن بها القدماء، نراه يتبنى نظرية «مركزية الارض» ويدافع عنها، وهي نظرية تقول أن الارض ساكنة بلاحراك تدور حولها جميع النجوم والكواكب ومنها الشمس، وكما عبر شوبنهاور «ان حقيقة على جانب عظيم جداً من الاهمية فلتت من يد الانسان ثانية لنحو ٢٠٠٠ عام»[2] «على خلفية اعتقاده بوجود «اماكن طبيعية»، لم يقع ارسطو في اخطاء كبيرة وحسب، انما وقع في تناقض مع نظرياته الاخرى التي ورثها عن افلاطون».[3]

ويعتقد الباحثون الغربيون:

---

١) برونشفيك ـ Leon Brunschvig ـ من كتاب ارسطو، جون برن، ص ٢٧.

٢) المفكرون اليونانيون، غمبرتس، ١٢٨٥.

٣) م س، ص ١٢٨٦.

... لقد اتبع ارسطو المعتقدات البدائية الشائعة، فاعتبر الحالات الثلاث للاجسام المركبة (الانجماد، السيولة، والتبخر) العناصر الاولية، وذهب الى ان التمييزات الدارجة الناجمة عن معلومات ناقصة بشأن العمليات الطبيعية، انما هي حدود رسمتها الطبيعة ذاتها، وبالتالي فهو يأخذ تغير الحالات وتبدل العناصر بالمعنى الحقيقي للكلمة.

هذان المحفزان الفكريان المختلفان تماماً، جعلاه ينبذ جانباً الانجازات الثمينة التي حققها اسلافه، ويتنكر لنظرية في الطبيعة كانت بالنسبة لمن سبقوه وسيلة نافعة للبحث والتحقيق، وقد تبينت قيمتها واهميتها مع مرور الايام بنحو أوضح وأجلى...

الحدس الصائب للقائلين بالذرة، وهو ان «الكون والفساد» حالة ظاهرية ليس الّا، وهي في الواقع تسمية اخرى لالتحام الاجزاء المادية وانفصالها، يبدو هذا الحدس محالاً... .[١]

صدرالمتألهين الشيرازي، رغم احترامه لارسطو (لظنه انه هو الذي كتب التساعات) الّا انه يشتكي في بعض كتاباته من البدع والاخطاء التي اقترفها ارسطو في الفلسفة والحكمة الالهية. يقول في أحد آثاره:

وبالجملة القول بقدم العالم انما نشأ بعد الفيلسوف الاعظم ارسطاطاليس بين جماعة رفضوا طريق الربانيين والانبياء، وما سلكوا سبيلهم بالمجاهدة والرياضة والتصفية، وتشبثوا بظواهر أقاويل الفلاسفة

---

١) م.س، ص ١٢٨٨. وفي النهاية يثني على علمه في النفس ومبانيه في الادراكات والمنطق والنفس.

المتقدمين من غير بصيرة ولا مكاشفة، فاطلقوا القول بقدم العالم. وهكذا أوساخ الدهرية والطبيعية، من حيث لم يقفوا على أسرار الحكمة والشريعة، ولم يطلعوا على اتحاد مأخذهما واتفاق مغزاهما، لشدة رسوخهم فيما اعتقدوه من قدم العالم وزعمهم ان هذا مما يحافظ على توحيد الصانع وعن انثلام الكثرة والتغيّر على ذاته وأن قياساتهم مبتنية على مقدمات ضرورية هي مبادئ البرهان. لم يبالوا بأن ما اعتقدوه مخالف لما ذهب اليه أهل الدين.[١]

بعد ذلك يرى صدرالمتألهين انطلاقاً من كرم طباعه، أن هذا الرأي الفلسفي المضطرب لا يليق بمكانة فيلسوف مثل ارسطو، ويعتبره ظناً سيئاً، فيبرره قائلاً:

... وكان ظني بمعلم الفلاسفة انه كاستاذه افلاطن واشياخه الماضين قائل بالحدوث الزماني لهذا العالم، إذ من المستبعد أن افلاطن العظيم ما أفاده هذا التعليم، أو كان بذلك ضنيناً على مثله... .[٢]

نعتقد أن اكبر عيوب ارسطو ـ بوصفه أحد التلامذة المقربين لافلاطون وقد درس عنده قرابة عشرين عاماً ـ هو انه ربما لم يفهم قصد الاستاذ، والانكى من ذلك ان يكون قد فهمه لكنه تجاهله وحرّفه وهدمه. ان نظرية المثل التي جاء بها افلاطون وسقراط ومَن كان قبلهما من الحكماء، كانت من الوضوح والجلاء بحيث لايبقى مجال للشك في انه ادركها واستوعبها، ومع ذلك نراه يستعرضها ويرد عليها (في كتاب «مابعدالطبيعة» ـ ألفا الكبير ـ الفصل التاسع) بطريقة متهافتة غير صائبة.

---

١) رسالة في الحدوث، ص ١٥ و ١٦، منشورات مؤسسة صدرا للحكمة الاسلامية.
٢) رسالة في الحدوث، ص ٢٢.

فمثلاً يقول في الرد عليها أن الامور السلبية التي ليس لها اي تحقق خارجي، أو المفاهيم الذهنية والمنطقية المحضة، أو الزائلة الفانية، ينبغي ان يكون لها بحسب نظرية افلاطون مثال «فطبقاً للادلة المستنبطة من العلوم، لابد أن يكون هنالك مَثَل أو مثال لكل مايمكن الحصول بشأنه على معلومة أو معرفة، أي لكل مفهوم يحصل في الذهن...» ونحن نعلم ان المثل الافلاطونية تختص بالاعيان الخارجية دون المفاهيم الذهنية، ونسبة مثل هذه الامور لاستاذ كافلاطون ناجمة اما عن عدم فهم المسألة، أو عن تعمد واستهزاء، وفلاسفة نظير الميرداماد والملاصدرا تنبهوا ونبهوا الى أن ارسطو حرّف طروحات استاذه افلاطون.

نلفيه احياناً يستهزئ بنظرية المثل ويعدها «مقولة خالية من المعنى ومن المجازات الشاعرية»[١] ويقول ايضاً «أما بياننا بشأنها (المُثُل) وكيف انها جواهر هذه الاشياء المرئية، فهو أنها في الواقع كلام فارغ... وكذلك لاصلة للمُثُل اطلاقاً مع مانراه في العلوم من العلل...».[٢]

عموماً، فإن مطالعة بعض فصول هذا الفيلسوف الشهير والتمعن في بعض طروحاته، يبعث على اليأس حقاً، ولو أن حكيماً كابن‌سينا ـ لم يكن له اساتذة كسقراط وافلاطون، ولا امتداد سالف من شخصيات فلسفية كإمبادوقليس وفيثاغورس وانكساغوراس وهيراقليطس، وكانت كل فلسفته من بنات افكاره وتأملاته الخاصة ـ كتب مثل هذه الاقوال لما أثار العجب والاستغراب، أما بالنسبة لفيلسوف عاش عشرين عاماً الى جانب افلاطون واتيحت له العديد من الفرص والامكانات الاخرى،

---

١) مابعدالطبيعة، الفا الكبير، الفصل التاسع.

٢) م.س.

فمن العجيب حقاً صدور مثل هذه الآراء عنه.

تصوراته الاخرى لفلسفات الماضين كانت على نفس هذه الشاكلة من عدم النضج، ومثال ذلك تصوره بشأن الاعداد الفيثاغورية وغيرها من افكار الحكماء الآخرين حيث حملها على العناصر المادية ـ أو فاعل الاشياء وعلتها المادية كما هو تعبيره على وجه التحديد ـ واعتبر اصحابها ثلة من العلماء الطبيعيين.

لارسطو خصوصيات اخرى يطول شرحها، ونحن هنا نتوخى الاجمال. على سبيل المثال، لانراه يتحلى في بعض آرائه بالثبات اللازم، وعلى حد تعبير غمبرتس: «يسيطر على ذهنه تضارب يجعله تارة افلاطونياً، وتارةً اخرى طبيباً».[1] كما انه كان شديد الشغف بالزمان وتزمن الاشياء، بل حتى المادية وعلم المحسوسات. ثم انه ينظر لكل شيء باعتباره قضية متوقفة ثابتة. فضلاً عن انه يبدو وكأنه لم يسمع حتى باسم الاشراق والشهود والحكمة العملية بمعنى الرياضات وتهذيب النفس، ولم يجرب لذة السكر المعنوي، ولم يحظ بأي نصيب من الذوق (بمعنى تذوق المعاني والمفاهيم اللامحسوسة الخاصة المعاني التي لاسبيل للنبات والحيوان اليها حسب الظاهر).

وفي خاتمة هذا القسم، من المناسب ان نلقي نظرة الى بعض كتاباته الاخرى التي لا تعدم الصلة بالحكمة والعلوم العقلية فحسب، بل وتتناقض معها احياناً، وتدل عموماً على سطحيته. وفيما يلي عرض لعناوين هذه الآثار:

١. شروح وتفاصيل النظم السياسية لـ ١٥٨ مدينة مستقلة الحكم في اليونان.

٢. مجموعة قوانين الاجانب.

٣. مزاعم الدول في الاراضي.

---

١) المفكرون اليونانيون، ص ١٢٩٩. ارسطو، جون برن، ص ٢٣ ـ ٣٢.

٤. القاموس الحقوقي.

٥. لائحة اسماء الفائزين في مسابقات (بوتوبيا) الرياضية.

٦. شرح المسابقات الرياضية!

٧. نص نقدي لملحمة الالياذة للاسكندر (يبدو أن الغرض منه هو تشجيعه وبث الروح الملحمية فيه لحضه على مهاجمة ايران).

٨. الفائزون في مسابقات المبيا الرياضية!

٩. رسالة حول عرض المسرحيات على الخشبة.

١٠. حول المأساة.

١١. الشعر.

١٢. حول الشعراء الكوميديين والمضحكين!

١٣. صعوبة آثار هومر وهيسيود.

١٤. حول ازياء الممثلين المسرحيين![١]

ينبغي ان نضيف هنا ان هذه هي صورة ارسطو من منظار نقدي، الا انه مهما كان ومهما كانت طبيعة ادائه الفكري، ورغم تأثيراته السلبية على الحكمة الحقيقية، والقائه العلوم والحكمة في غياهب الظلمات لقرون عديدة، الّا انه كالعديد من احداث العالم تسبب ايضاً في الكثير من المنافع والبركات والخيرات. ومن آثاره وايجابياته، انه استطاع بذلك القليل الضعيف من الزاد الذي توفر عليه أن يفعِّل ويخصِّب افكار نوابغ عظام كابن‌سينا والفارابي ونصير الدين الطوسي وآلاف الفلاسفة الكبار من ايران وغير ايران، ومن المسلمين وغير المسلمين.

---

١) المفكرون اليونانيون، غمبرتس، ص ١٢٥٥ ـ ١٢٥٦.

ولو بعث ارسطو الى الحياة في زمن هؤلاء، ربما لم يفهم الكثير مما قالوه وكتبوه، مع ذلك لو لم يطلعوا على اعماله ـ التي ترجمت الى العربية ـ لما افضت تلك المسائل القليلة البسيطة الى كل هذه المسائل الدقيقة المعقدة ذات الصبغة البرهانية الاستدلالية. فلحد يومنا هذا لاتزال الفلسفة التقليدية قائمة على اساس المادة والصورة والمقولات العشر، والعلل الاربع، والعقول العشرة، والقوة والفعل وما الى ذلك، وحولها بقعة صغيرة أوجدها ارسطو ولعله لم يكن متفائلاً بدوامها، على أن الفلاسفة المسلمين من ايران وغير ايران ما فتئوا طوال عشرة أو اثني عشر قرناً يشيدون الاعمدة والجدران والسقوف لهذا الصرح العظيم الذي أوجدته عبقرياتهم.

قصة الفلسفة الارسطية

ألمعنا الى ان مدرسة ارسطو لم يكن لها اساس متين، وخلافاً للحكمة الاشراقية الافلاطونية والسقراطية الضاربة بجذورها في القرون الماضية، كانت مدرسةً عديمة الجذور ظهرت الى النور بشكل مفاجئ تقريباً، لذلك لم تستطع تنشئة تلاميذ مقتدرين متمرسين، كما لم تكن لها القدرة والمضامين التي تؤهلها لمنافسة حكمة الاشراق، ولم يظهر في ذلك العهد عباقرة كالفارابي وابن‌سينا يشيدون صروحاً من المنطق والبراهين وينتجون كنوزاً هائلة من المعاني والمفاهيم الفلسفية الراقية انطلاقاً من تلك الخامات الخاملة، ويخلعون على تلك المادة الدميمة صوراً بهية ساحرة، ناقلين ضعفها الى القوة، وقوتها الى الفعل. لهذا كان لايزال هنالك قرن كامل من الزمن حتى نهاية عهد ما قبل ميلاد المسيح، حينما لم يبق من ارسطو ومدرسته سوى عناوين عامة وبضعة كتب ورسائل.

التلميذ المشهور لارسطو ـ ووريثه في الواقع ـ هو ثاوفرسطس

(Theophrastos) الذي تولى ادارة اللوقيون من بعد ارسطو بناءً على وصيته، وتابع مهمته هذه حتى توفي في سنة ٢٨٧ ق.م. وجاء من بعده تلميذه الآخر اسطراطون من أهالي لمبسكس (Straton/Lampsaque) الذي أدار المدرسة حتى سنة ٢٦٩ ق.م، تلاه لوكون (Lycon) الى سنة ٢٢٥ ق.م. وترأسها لفترة من الزمن شخص يدعي كريتولوس (Critolaos) وبموته في سنة ١٤٣ ق.م، لم يبق من المدرسة حتى العنوان، وانقرضت كلياً في عام ٨٤ ق.م.

مع انقراض مدرسة ارسطو والمشائين ـ التي تألقت كحكومة الاسكندر لفترة قصيرة وآلت فجاة الى الافول ـ لم يبق من ارسطو سوى بعض كتبه التي احتفظ بها تلاميذه في اللوقيون ككتب مدرسية وراحوا يستنسخونها، الى ان أولاها ـ نصارى سورية وماوراء النهر بعض الاهتمام في القرنين الخامس والسادس للميلاد، ثم جاءت ترجماتها العربية في القرنين الاول والثاني للهجرة (السابع والثامن للميلاد) حيث تعاضد السياسي والديني والعلمي في اطار الحضارة الاسلامية، وتفتحت ابواب المدارس الاسلامية على الفلسفة والعلوم اليونانية، فنفخت في المدرسة المشائية روحاً جديداً أعادها الى الحياة. أما قبل ذلك فقد بقيت هذه المدرسة جامدة في طيات كتب وأوراق ميتة.

من الخصائص التاريخية للمدرسة الارسطية، هي أن تلاميذه لم يلتزموا بتعاليمه وآرائه، ولم يحتذوا حذوه كما حصل في المدرسة الاشراقية حيث تعاضد الجميع وتحدثوا بصوت واحد عن الكشف والشهود والحقيقة الواحدة. النقطة الاخرى هي أن مدرسته لم تخرّج حكماء، انما كان معظم طلبتها ورجالها من علماء الطبيعة والتجريب والعلوم الجزئية، فمثلاً كان ثاوفرسطس اكثر ما كان عالماً طبيعياً يدرس علم النبات والارض.

تلميذه الآخر اسطراطون لم يحبذ آراء ارسطو في علم الهيئة والافلاك، ووريثه الآخر وخليفته كريتولوس ادار ظهر المجن لمدرسته في لوكيون ولم يكن مؤمناً باستاذه.[1]

خلافاً للوقيون ارسطو، كانت اكاديمية افلاطون ـ وهي المدرسة السقراطية في الواقع ـ ذات ثمار وخيرات جمة، ولم ينطفئ سراجها ابداً، وعلى حد تعبير صدرالمتألهين والسهروردي (والاشراقيين الايرانيين) لن ينطفئ الى الابد، رغم تبدل الوجوه فيها، وتلبسها بصور متعددة عبر الاحقاب.

الكلبيون

كانت هنالك في غرب آسيا ومنطقة البحر الابيض المتوسط مدرستان أو في الواقع شخصيتان وحكيمان كبيران تركا في عهديهما ومابعد ذلك اثراً عميقاً في عالم الفكر، احدهما فيثاغورس والثاني سقراط.

بعد استشهاد سقراط، اختفى تلاميذه الذين جاءوا من مدن شتى وهرب كل واحد الى ناحية. وقد دفعت المدرسة الاكاديمية، ومدرسة اللوقيون من بعدها، الحكماء وسائر رجال العرفان الى الظل وهمّشتهم، ولكن جرت على الألسن اسماء حكماء آخرين بعد ارسطو وافلاطون، وتحول كل واحد منهم الى مدرسة وتيار فكري.

من هذه التيارات التي عاصرت افلاطون وارسطو في ارض اليونان هم الكلبيون (أو الكونيكال Cynical) الذي كان ديوجينس (ديوجان بالفرنسية Diogenos) اشهرهم ورمز منهاجهم، ويقال انه عاصر ارسطو وكان تلميذاً لآنتيشتنوس (أو انتيستنيس) أحد طلاب سقراط وجورجياس.

---

۱) تاريخ الفلسفة، اميل برييه، ص ۳۲٦.

بقيت عن هذه الجماعة فلسفة اخلاقية أو حكمة عملية، وكان منهجهم قائماً على تحمل الرياضات الصعبة والآلام والمصائب التي يكابدونها بصبر وشجاعة وثبات، فهم يشبهون «الملامتيّة» في سلسلة المتصوفة المسلمين.

يعتقد البعض انهم سمّوا الكلبيين لأنهم اكدوا على ضرورة أن يعيش الانسان كالكلب. وذهب فريق الى ان هذه التسمية مستقاة من اسم محلة فيها تمثال كلب ابيض، وكان فيها ايضاً مدرسة هذه الجماعة.[١]

كان ديوجينس من اهالي مدينة اسمها سينوب على سواحل البحر الاسود، وذاع انه كان يعيش في كوز أو تابوت طيني، وحينما ذهب الاسكندر لزيارته وقال له اطلب مني شيئاً، اجابه مستغنياً أطلب منك ان تتنحّى جانباً ولا تمنع سطوع الشمس.[٢]

كان افراد هذه الجماعة ذوي ترفع وتعفف وعدم اكتراث للذات الدنيوية والمادية، بل ينشدون حيازة الفضائل تبعاً لمنهج سقراط والحكمة المشرقية، ويرون أن أرقى مراتب الفضيلة تكمن في مخالفة اهواء النفس وبالتالي الزهد في الملذات المادية. وقد اشتهرت عن ديوجينس قصة تجوله في المدينة نهاراً وبيده مصباح مضاء بحثاً عن الانسان الحقيقي المتسامي، وهي قصة تطرقت حتى للادب الفارسي اذ جاء في بيت شعري جد مشهور:

دي شيخ با چراغ همي گشت دور شهر   كز ديو و دد ملولم و انسانم آرزوست

[شيخ يتجول في المدينة وبيده مصباح، ينادي لقد سئمت الشياطين والعفاريت وأريد

---

١) زبدة الصحائف، نعمة نوفل افندي، ص ٢٦. موسوعة الفلسفة، عبدالرحمن بدوي.

٢) لما كان الحكماء الاشراقيون يتحدثون بلغة رمزية، فقد تكون مقولته هذه اشارة الى مواجهته هو وارسطو للحكمة الاشراقية، ونصيحة له بعدم مجابهة الانوار الالهية الساطعة في حكمة الاشراق والهجوم على الشرق، والله اعلم.

أن أرى انساناً].

مع أن ديوجينس واستاذه ورجال المدرسة الكلبية كانوا يولون بالغ الاهمية للرياضة وتهذيب النفس والحكمة العملية حتى اشتهروا بها بين الناس وقد حدث مثل هذا على مر التاريخ، الا انهم كسائر الحكماء الاشراقيين كانوا اصحاب قواعد فلسفية، وقيل (صواباً كان ذلك أم خطأً) ان استاذهْ «انتيستنيس» لم يوافق نظرية المثل الافلاطونية.

نسب الى ديوجينس ايمانه بالاشتراكية بين الزوجات واباحة العلاقات غير الزوجية، بيد أن هذا الكلام اشبه بالاتهام منه بالرواية الصحيحة، فرواية ناقله (ذيوجانس اللايرتي) لا تتوافر على الاعتبار الكافي. فيما يتعلق بالنظرية السياسية لهذه المدرسة قيل انهم نادوا بالوطنية العالمية أو الأممية (كوسموبوليتان) ورفضوا وجود الكثير من الدول، وربما كان رفضهم موجهاً للمدن ذات الحكومات المستقلة في اليونان.

في مستهل القرن الثالث ق.م ذاع صيت هذه المدرسة في كافة الارجاء المتوسطية حتى مصر، وكان لها اتباعها وقد لعبت الى حد ما دوراً في ظهور التيارين الرواقي والابيقوري.

الحقبة اليونانية

نرى من الضروري هنا القاء نظرة على علم اجتماع الثقافة في ذلك العهد الذي سماه الاخلاف الاوربيون الحقبة اليونانية أو الهيلينية (Helleniatique). عمد مؤرخو الفلسفة والعلم الغربيون في القرون الاخيرة الى ترويج كذبتين كبريين كمؤامرة منسقة تلاحظ بصماتها في كل موضع من كتب تاريخ الفلسفة وتاريخ العلوم، ونقلها عنهم

اتباعهم الشرقيون في آسيا وافريقيا كحقائق موثوقة نزل بها الروح الامين.

الكذبة الاولى هي التي أوردناها في صدر هذا المقال الا وهي تجاهل قرون بكاملها من الماضي العريق للحكمة المشرقية الايرانية والعلوم الاخرى ـ التي هاجرت على يد فيثاغورس وحكماء آخرون من ايران وبابل والهند ومصر الى المناطق المتوسطية وسواحل الرومان واليونان ـ وردوا كل ذلك الى انفجار في أنوار الفلسفة والعلم، واعتبروه حصيلة نضج العرق اليوناني في عهد ما قبل سقراط وما بعده حتى ميلاد المسيح!

الكذبة الاخرى التي كان يجب اصطناعها لاتمام وتكميل الكذبة السابقة، ولاثبات التفوق الازلي والابدي للروح والثقافة والموهبة التي تحلى بها العنصر الغربي على باقي الاعراق والاقاليم والقارات، وتقرير أن العالم بأسره كان طوال ٢٣ قرناً من الزمان مديناً لنبوغ اليونانيين وثقافتهم، هي أن من الثمار العالمية لهجوم الاسكندر وزحفه على آسيا والشرق انتقال واشاعة الثقافة واللغة والحكمة والعلوم اليونانية الى كافة ارجاء العالم غير اليوناني، وقد اطلقوا على هذه الحقبة التي تعولمت فيها الثقافة والفلسفة والحضارة اليونانية وامتزجت بغيرها من الحضارات والثقافات، اسم الحقبة الهيلينية اشتقاقاً من الاسم القديم لليونان Hellas ـ Hellena.

ان تحريف تاريخ العلم لم يتوقف عند هذه الحدود، بل قالوا أن الاسكندر نقل الثقافة اليونانية الاصيلة الرفيعة الى المشرق، الا ان هذه الثقافة والفلسفة والعلوم الاصيلة اختلطت هناك بعناصر التفكير الخرافي والسحري للشرق فتفسخت ونسفت. ومن المشكلات التي يزعمون أن الاسكندر خلقها في غمرة هذا المزج بين الثقافتين، زوال «الفكرة القومية للمدن اليونانية المستقلة» وتحولها الى فكرة «الوطنية العالمية» أو الأممية، والى المساواة بين العنصر اليوناني الراقي و«البربر»! والاقوام الوحشية غير

المتحضرة، بما فيها الايرانيين الذين سُجلت واثبتت درجتهم الثقافية والحضارية في كتب اليونانيين قبل قرون من انطلاق الحضارة اليونانية.

ثمة هاهنا جملة نقاط تتعلق بدراسة الحقائق التاريخية بمعزل عن كل ضروب العصبية (القومية، والعرقية، والدينية، والاقليمية، والجغرافية) نشير اليها بايجاز:

النقطة الاولى: ماذا كان للاسكندر الشاب وبطانته الذين زحفوا بجيوشهم نحو آسيا طمعاً في نهب خزائن مصر والعراق وايران، من ثقافة اصلاً حتى نقول أنهم أشاعوها ونشروها؟! يعلم كافة المؤرخين انه رغم وجود حكماء كبار في اثينا وباقي المناطق المتوسطية، لكن الثقافة اليونانية لم تكن غير ثقافة الالياذة الهومرية وعبادة آلهة الالمب واتباع السيرة الوحشية الظالمة البعيدة عن الانسانية للآلهة القديمة في اثينا، حتى ان سقراط أعدم بجريرة المعارضة الباطنية لذلك الشرك وتلك العقيدة البدائية التي جاء بها المتوحشون من شمال اوربا، أما سائر الحكماء فلم يكونوا يجرؤون على معارضتها خشية على أرواحهم. ورغم التأثيرات البالغة التي تركتها الحكمة والعقيدة التوحيدية في ايران القديمة على المفكرين الغربيين آنذاك، بيد أنها لم تفلح اطلاقاً في محو الشرك الهومري وعبادة الآلهة المتعددة عن صفحة الثقافة اليونانية.

واذن، لم يكن في أي بقعة من مقدونيا واثينا واليونان والروم آنذاك، ثقافة راقية متقدمة تضيف شيئاً الى الثقافة العريقة الممتدة لألف عام في ايران والهند وبابل ومصر، حتى يحملها الاسكندر الى هذه البلدان.

أن الذي صاحب جيوش الاسكندر الى الشرق، هو شهوة تدمير الحضارات القديمة والمعابد والمكتبات والقصور والمدن وقتل الناس الابرياء واحراق الآثار التاريخية العظيمة.

النـقطة الثـانـية: مايسميه المؤرخون المعاصرون خرافات وسحراً وعرفاناً، ربما كان مبادئ الافادة من النجوم واحكام شؤم الاوقات وسعدها، أو قراءة الطالع كما تسمى، والتي يقول عنها أحد علماء الفيزياء المعاصرين[١] أن العلم الحديث يؤيدها، أو لعلها الايمان بتأثير بعض الاعمال والرياضات في بث قوة روحية هائلة في الانسان، وهي حقيقة تجريبية خارجية، رغم صعوبة ادائها وعدم قدرة أي انسان على ممارستها والتمتع بنتائجها.

والأمر الآخر هو التأثير العجيب للاعداد والحروف في الواقع الخارجي، حيث تظهر بتركيب الحروف والاعداد احياناً اشياء جديدة أو حدث مذهل، وهذا كله قائم على مبادئ خاصة وكذلك على نظرية الاعداد التي بدأ العلم الحديث يتوصل اليها تدريجياً. وبالتالي فقد كان ثمة في الشرق علوم متطورة انتقلت قبل الاسكندر على يد ثاليس وفيثاغورس وربما حكماء آخرون الى الانحاء التي سكنها اليونانيون في آسيا الصغرى والمناطق المتوسطية، وقد أدى هجوم الاسكندر الى مزيد من اطلاع اليونانيين عليها واقتباسهم منها عن قرب، وقد رأينا أن الكتب المنهوبة كانت تنتقل الى الاسكندرية واثينا.

النـــقطة الثـــالثة: لو كان للحضارة والثقافة في مدينة صغيرة مثل اثينا أو مقدونيا أو اسبارطة، من القوة والعظمة والعمق والرفعة ما يعتد به، لما تأثرت بالحضارة الشرقية اطلاقاً، فكما ان الماء في المرتفعات لا يستمد اطلاقاً من المياه التي هي دونه ارتفاعاً، ومياه النهر لا تجري من الاسفل الى الاعلى، كذلك ما أن وصل الاسكندر الى

---

١) طاويّة الفيزياء، فريتيو كاپرا.

ايران حتى نبذ الثقافة اليونانية وخلع عنه وعن جنوده الثياب اليونانية، وتمسك بدل ذلك بالآداب والاعراف والثقافة الايرانية، وأمر قادته وجنوده بتقمص الثياب والاعراف الايرانية، بل وترك حتى اللغة اليونانية تدريجياً، ولم يستطيعوا طوال نحو قرن من نفوذهم وحكومتهم اشاعة لغتهم اليونانية في ايران وباقي المستعمرات. وما ذلك الاّ بسبب قوة وسمو الثقافة واللغة الايرانية، وضعف الثقافة واللغة اليونانية، وهذه حقيقة يؤيدها التاريخ وعلم الاجتماع وعلم الثقافات.

كتبت جميع التواريخ ان الاسكندر واليونانيين ذابوا في الحضارة الايرانية القديمة وثقافتها، وقيل ان هذا أسفر عن غضب ارسطو واضطراب علاقته بالاسكندر، ومقتل ابن اخته على يد الامبراطور المقدوني. فكما جاء في التاريخ كان احد دروس ارسطو للاسكندر هو التفوق الذاتي لليونان على ايران والشرق،[١] إذ كانوا يعتبرون سكان الشرق بربراً متوحشين وعديمي التحضر.

* * *

وعليه، لو أردنا وصف الحقبة المعروفة بالحقبة الهيلينية على نحو صحيح نابذين العصبيات الاقليمية والقارية والعنصرية جانباً، وجب القول أن تلك الحقبة كانت حقبة النهاية للمنطقة اليونانية الغربية. فلو اعتبرنا دخول الحكمة والثقافة والفلسفة الايرانية القديمة الى اليونان قبل سقراط ضداً (آنتي تز) للثقافة الجاهلية الميثولوجية في اليونان، وأن صراعهما استمر حتى ايام ارسطو، وكذا لو اعتبرنا المدرسة المشائية الارسطية ضداً آخر للحكمة الاشراقية (صبت كل جهودها لهدم مبادئ الاشراق والعرفان والوعي الروحي والشهودي لمدرسة السلف)، تعين القول أن الثقافة والافكار

---

١) المفكرون اليونانيون، غمبرتس، ص ١٥٧١ (بالفارسية).

المتبقية عن هذا الصراع بعد موت الاسكندر كانت النتيجة أو التركيب (سنتز) بين تلك المتناقضات، وثمرة لذلك الصراع.

لقد كانت حصيلة هذين الصراعين (بين الحكمة الاشراقية الايرانية من جهة، والجاهلية اليونانية القديمة، والمادية النسبية الارسطية من جهة ثانية) أن زال هذان المعارضان للحكمة الاشراقية بعد قرنين من الصراع - انتهيا بهجمات الاسكندر وفتوحاته - وتغلبت تيارات الثقافات الوافدة من البلدان المفتوحة التي استعمرها الاسكندر كمصر وصقلية وكريت وجنوب ايطاليا وآسيا الصغرى وبابل وايران، على بقايا الثقافة اليونانية الجاهلية المغلقة والضيقة الحدود، فحلت محلها ثقافة شرقية انتقائية غير خالصة تعد من افرازات الحكمة الايرانية القديمة.

ولهذا نجد أن كافة التيارات والمدارس المعروفة في ذلك الزمان كالكلبية والرواقية والافلاطونية المحدثة وحتى الابيقورية نصف المادية، كلها ذات صبغة مستمدة من الحكمة الاشراقية، وتعد تفريعات مختلفة لها، ولا أثر فيها للميثالوجيا اليونانية أو الفلسفة الارسطية.

انطلاقاً من هذا، كان يجب قبل دراسة هذه التيارات التي شاعت في تلك الحقبة التاريخية، تسليط الاضواء على الظروف والاحوال الثقافية والمجتمعية لذلك العهد، وتمحيصها بوعي مختلف، وتطهير صرح البحث من غبار مؤامرات المؤرخين المغرضين أو غير المطلعين في العالم الغربي المعاصر، وخلع نظارات المركزية الاوربية وعبادة القارات عن أعيننا.

وفيما يلي نطل على مسار الحكمة في المنطقة الغربية لآسيا الصغرى، ونستهل مقالنا بالمدرسة الابيقورية.

الابيقوريون

تنسب المدرسة الابيقورية الى حكيم يدعى ابيقور (ابيكوروس Epicuros) ولد بمدينة ساموس في حدود عام ٣٤١ ق.م تزامناً مع ولادة زينون. استهوته الحكمة منذ صباه وبدأ دراسته عند أحد تلامذة افلاطون يدعى (همفيلس). توجه في سن الثامنة عشرة الى اثينا، وكان له ٣٢ عاماً حينما أعد حديقة على اسلوب الافلاطونيين، وقضى أخريات أيامه هناك يلقي الدروس، ويعيش مع طلابه ويشاركهم العمل في الزراعة.

كانت فيه ميول الى فلسفة ديمقريطس، وقد تتلمذ على أحد طلابه يدعى فيوسيفانوس. كان يعتبر الذرات البسيطة هي المادة الاولى للعالم، الا انه رفض ان تكون حركاتها جبرية قهرية، انما عزاها الى روح ذات ارادة، وكان يُشبِّه هذا الذرات بالحروف، ويعتقد أن للروح ذرات خاصة بها.

أصاب معظم شهرته من ايمانه المتطرف باللذة التي اعتبرها مساوقة للفضيلة والسعادة (اللتين كانتا موضوع مدارس الفلاسفة آنذاك). ولكن خلافاً للمشهور فإن اللذة في عقيدته ليست لذة الشهوات المادية الحيوانية، انما هي اللذة الروحية الحقيقية التي تعادل قيمتها قيمة «الخير» و«الفضيلة» وكان يعتقد أن اللذة تتأتّى عن طريق الحكمة وتبلغ بالانسان السعادة الابدية.

تولي هذه المدرسة اهمية كبرى للاعمال والظواهر الخارجية، وتعتبر الحكمة العملية والاخلاق وتهذيب النفس غاية الحكمة النظرية، ومع ذلك ترى الحس والمحسوسات المواد الاولية للعلم والمعرفة.

لم يكن لهذا الحكيم وريث وتلميذ معروف، لذلك لم يترك تراثاً يعرفنا عمق فلسفته وافكاره. وبعد قرنين نظم شاعر يسمى لوكرتيوس افكاراً نسبها اليه وتعرف اليوم باسمه، ولأن ظاهر فلسفته مادي منحاز للذة، فقد حظي باهتمام واسع من قبل

المؤرخين الغربيين.

نسبت لابيقور في كتب الفلاسفة المسلمين وتاريخ الفلسفة (الذي تضمنه كتاب الملل والنحل أو لوائح اخرى) آراء اخرى. فصدرالمتألهين مثلاً يعتبره في نطاق البحث عن حدوث العالم، من القائلين بحدوث العالم، ويقول في هذا الصدد: اعتبر ابيقور مبدأ الخلقة شيئين: الفراغ والصورة. الفراغ شيء عدمي، أما الصورة فهي مبدأ الموجودات وغايتها.

ثم يأخذ في تأويل رأيه وتسويغه فيذهب الى أن مراد ابيقور من القول بأن الفراغ والصورة هما المبدأ، ليس انهما مبدأ الوجود، بل مبدأ وسبب قوام الاشياء، ومراده من الفراغ هو الهيولى الاولى أو العدم.[١]

الرواقيون

لم يكتب للمدرسة الكلبية الاستمرار، ربما بسبب تطرفها، لكنها تمظهرت بعد ذلك بصورة اكثر اعتدالاً وتوسطاً ـ كما لدى الافلاطونيين ـ وعرفت بالمدرسة الرواقية. يعد زينون الكيتيوني (شيتيكوس) ممثل هذا الاتجاه ومؤسسه. كان في الاصل من اهل فينيقية (لبنان الحالي) لكنه ولد في قبرص حوالي سنة ٣٣٥ ق.م، وتعلم الحكمة هناك على أحد تلاميذ (انتيستنيس) الكلبي اسمه كرايتوس، ثم تتلمذ لكل من سيليبونوس ميغاريكوس، وثيودوس، وفرونوس، وبوليمونوس،[٢] الى أن وفد على اثينا نحو سنة ٣١٢ ق.م، وشرع بنشر تعاليمه وافكاره.

لما كان زينون (أو ذينون) قد تعرف على الحكمة الاشراقية بعيداً عن اثينا، فقد

---

١)الاسفار، ج ٥، ص ٢٣٩، الملل والنحل، الشهرستاني، ج ٢، ص ٣٣٣.

٢) زبدة الصحائف، نوفل افندي، ص ٢٧.

كان قليل التأثر بأفكار تلك النواحي، ولأن المكان الذي اختاره للتدريس كان سقيفة أو رواقاً (Stoa باليونانية) في أحد أبنية اثينا، فقد اطلقوا عليه وعلى اتباعه اسم الرواقيين أو «أهل المظال».

رغم أن زينون اختلف في بعض القضايا التي طرحها في مدرسته مع المبادئ الافلاطونية، ولكن ينبغي اعتباره وارثاً وتبعاً للحكمة الاشراقية وسقراط وافلاطون. كان له العديد من الاتباع وقد استطاع الهيمنة على الساحة الفكرية يومذاك، ومع نفوذ الرومان وتسلطهم على اليونان وكل المناطق المتوسطية، ازدهرت المدرسة الرواقية هناك ايضاً، ونشط فرع منها في روما.

توفي زينون سنة ٢٦٢ ق.م وخلِفه تلميذُهُ كليانتس (Cleanthes) المعروف بالحمال. وحل بعده تلميذ آخر لزينون هو خُريسيبُس (Chrysippus). وقد كان ابكتاتوس الحكيم وهو عبد رومي اعتقه سنكا، ومن بعده الامبراطور ماركوس اورليوس (Marxus Aurelius) (١٨٠ ق.م) من اتباع وممثلي هذه المدرسة المشاهير.

* * *

بتأثير من المناخ الصاخب والضاغط للمدارس الفكرية المختلفة، ارغم الرواقيون على اذاعة معتقداتهم الاشراقية والسقراطية والافلاطونية. وكان من عقائدهم وتعاليمهم الاقانيم الثلاثة (ذات الاحدية، والعقل، والنفس) التي اشتهرت لاحقاً في مدرسة افلوطين واستلهمتها المسيحية والكنيسة.

يقول الشهرستاني في هذا الاطار أن زينون وخريسيبس كانا يعتقدان أن البارئ تعالى واحد محض، خلق العقل والنفس دفعة واحدة وفي زمن واحد، وخلق بهما كل ما في العالم من اشياء. والعقل والنفس أبديان لايزولان. وللنفس كتلتان أحداهما من النار والهواء والثانية من الماء والتراب. وتتجسد النفس بالكتلة التي هي

من نار وهواء، وتتجسد هذه الكتلة بالكتلة الثانية المادية التي هي من ماء وتراب. والنفس تمارس اعمالها وتظهرها بواسطة هذه الكتلة المادية الثانية. وينبغي توكيد أن مرادهم من الكتلة والجسم ليس هذا الجسم التعليمي ذو الابعاد الثلاثة والمحتاج الى المكان.

الكتلة المادية الترابية فانية، والكتلة المعنوية النارية لطيفة وعديمة الوزن وغير ملموسة. اذا كانت طاهرة ـ مهذبة شقت طريقها الى العوالم الروحانية، وما دامت مقيدة بالجسم المادي فهي عاجزة عن القيام بأي شيء من دون أدوات مادية، فلا تستطيع القيام بالاعمال من دون الحاجة للادوات والوسائل، الا اذا تحررت من قيود الجسم.[١]

كما نُقل عنهم قولهم ان الله تعالى خلق العالم بنفخة (Pneuma) من النار الازلية. واحياناً كانوا يسمون هذه النفخة بـ «الكلمة» أو الـ «لوغوس» الذي اعتبروه مرادفاً للعقل، وقد صدرت عنه طبيعة العالم «العالم الكبير» في مقابل «العالم الصغير» الذي هو الانسان.

عقيدة اخرى من عقائدهم هي الدورة أو تكرر التاريخ والزمان على شكل دورات كبرى تستغرق الواحدة منها آلاف السنين،[٢] ونعلم أن هذه عقيدة انتقلت من ايران والهند وبابل الى تلك المناطق، وأنها ذات سابقة طويلة.

مع ان جميع هذه العقائد وتشعباتها ـ وهي من خصوصيات الحكمة الايرانية القديمة والمدرسة الفيثاغورية والاورفية ـ تعد لدى البعض من الافرازات الفكرية لسقراط وافلاطون، الا أن الرواقيين لم يعدموا آراء اخرى تتسم بالطابع الانتقائي لأنها

---

١) الملل والنحل للشهرستاني، ج ٢، ص ٣٥٨.

٢) ظهور علم النجوم، واندر وردن، ص ٢٢٧ (بالفارسية). مسار الحكمة في اوربا، ج ١، ص ٤٢.

مستلهمة من الآثار المشائية، وتعتبر في ظاهرها معارضة لافلاطون والتيار الاشراقي.

ذهب الرواقيون الى أن المدارك والعلوم ناشئة عن الحواس الظاهرية مباشرةً. واعتقدوا ان العلم كلي وأن وعاء الكليات موجود في الذهن، وقد اضحت هذه الفكرة اليوم من المبادئ الراسخة في العلوم.

على أن الجزء الاهم لهذه المدرسة وخلافاً للمنحى المشائي، يقوم على الحكمة العملية بمعنى التهذيب العملي للنفس،[١] ويرى الحكمة النظرية المحضة خالية من شرط الصلاح والخير، بل هي ضرب من اتباع الهوى.[٢] كانوا يقولون ان الحكمة الحقيقية هي الحكمة العملية، وما الحكمة النظرية الّا مقدمة لها. وحيث انهم آمنوا بترابط الكون أو العالم الكبير مع الانسان أو العالم الصغير، فقد قالوا أن العقل أو حاكم العالم الكبير متطابق مع الطبيعة، واكدوا أن اتباع قوانين الطبيعة يوجب التحلي بالفضيلة، ولما كانت الغاية من الحكمة هي بلوغ الفضيلة وبالتالي الوصول الى السعادة، فقد شددوا على ضرورة أن يتبع الانسان الحكيم العقل ويتناغم مع الطبيعة حتى يكون حكيماً.

ومع كل هذا الاهتمام بالحكمة العملية، فقد أكبَّ الرواقيون على علم المنطق ايضاً، والذي يبدو انه مقتبس من المنطق المشرقي والايراني، وربما كان مختلفاً عن المنطق الارسطي. كانوا يناقشون المنطق في بابين هما الجدل والخطابة، ويولون أهمية

---

١) تتضمن الفلسفة المشائية في ظاهرها هي الاخرى كلاماً عن الاخلاق والتهذيب والسياسة. ولكن حتى حكمتها العملية كانت ذات جنبة نظرية ذهنية. فعلم الاخلاق الارسطي هو نمط من علم النفس وليس من التربية العملية، لذلك بدا مفتقراً للجانب البناء.

٢) خريف الفكر اليوناني، عبدالرحمن بدوي، ص ١٠.

بالغة للالفاظ وعلاقتها بالمفاهيم، وهذا هو اسلوب سقراط في مواجهة السفسطائيين، وكأنهم لم يطلبوا المنطق لصيانة تفكيرهم انفسهم، بل لصيانة ذهن المستمع والمخاطب والحيلولة دون المغالطة، وهذا هو اسلوب المنطق المشرقي الذي نرى ما يشابهه في القرآن الكريم.

انطلاقاً من نقاط التشابه العديدة بين الرواقيين والحكمة الايرانية القديمة والمدرسة الفيثاغورية وسقراط، وفوارقهم الجمة عن المنحى الارسطي، عدّهم فريق من المؤرخين الغربيين مفتقرين للطابع الفلسفي اليوناني (الهيليني) وقالوا أن مردَّ غربتهم عن النزعة الهيلينية هو أن أياً من زعمائهم لم يكن يونانياً[١] رغم أن تعليمهم كان في اليونان. زينون نفسه كان لبنانياً واتباعه المبرزين كانوا غالباً سوريين أو روميين، مع أنهم وجدوا في سقراط قديسهم الاعلى.[٢]

ولمّحوا الى الشبه الكبير بينهم وبين الحكمة الاشراقية والايرانية بتعابير من قبيل «من المحتمل تأثير الكلدانيين فيهم»[٣] «ربما كانوا باحيائهم المفاهيم الاورفية واشراك العقائد الفيثاغورية المحدثة، قد مهدوا السبيل الى الغنوصية Gnosticism»[٤] «تأثرها بالمدارس الشرقية واضح جداً»،[٥] حتى أن الحزن والأسف ينتابهم احياناً لأن الفلسفة اليونانية (الثمينة!) بميلها الى الفلسفةالشرقية، سلكت [ومرادهم في اغلب الظن منجزات ارسطو] سبيل الانحطاط (!)[٦]

---

١) م.س.

٢) تاريخ الفلسفة (زينون)، برتراند رسل.

٣) م.س .

٤) م.س.

٥) م.س.

٦) يقول عبدالرحمن بدوي في ص ١٠ من كتابه «خريف الفكر اليوناني»: «... إن انحطاط الفلسفة قد اقترن بانتقال مركزها الرئيسي من اثينا نحو الشرق» وهذا يدل على

المشككون

الظاهرة التاريخية ـ الفلسفية التي برزت الى السطح تزامناً مع هاتين المدرستين المتنافرتين تقريباً هي تيار الشك (Sceptique) أو تيار المشككين.

من بعض الجهات، يتسنى اعتبار هذا التيار أو المدرسة تتمة خفية لظاهرة السفسطائيين، ولكن خلافاً للمسفسطين ذوي الطابع الايجابي الفاعل والذين زعموا لنفسهم المعرفة، واعربوا عن شكوكهم حيال مبادئ الحكمة بتحريفات لفظية أو معنوية، والتشبث بأنماط كاذبة من الحكمة نظير القول بأن «الانسان هو معيار الحقيقة»، أبدى المشككون الطابع السلبي والانفعالي لهذا المنحى، فرفضوا إمكانية أية معرفة تحصل لهم أو لغيرهم من البشر.

ومثلما انبثقت السفسطة عن التعارض الظاهري بين المدرسة الايلية والايطالية والايونية والمشرقية الايرانية والافكار السائدة، توالد مذهب الشك بدوره عن الصدامات الشديدة بين الحكمة الافلاطونية والفلسفة الارسطية والتيارين الابيقوري والرواقي.

يعتقد انصار هذه المدرسة ـ واشهرهم بل مؤسس تيارهم شخص يدعى فورون أو پورون Pyrrhan ـ أن الحس يخطئ، والادراكات الحسية نسبية وعرضة للخطأ، وهي بالتالي ليست مطلقة، والعقل غير قادر على اكتشاف الاخطاء المعرفية، واذن فالمعرفة البشرية لا تنهض على اساس قويم وهي غير حَرِيّة بالثقة ولا بمقدورها تحقيق السعادة للبشرية، انما تسفر غالباً عن إقلاق البشرية وافسادها، وعلى ذلك ليست أصالة الحس ـ لدى الرواقيين والمشائين ـ بالفكرة الصائبة، ولا أصالة المعنى

العبودية الفكرية التي هيمنت على ورثة هرمس حيال دجالي الفلسفة.

عند الاشراقيين والافلاطونيين، انما ينبغي النظر لكل هذه العناصر الفكرية بمنظار الشك، والعيش بسعادة في ظل نبذ المعرفة وعدم تحرّيها.

من زاوية نظر علم النفس الاجتماعي الراصد للمعرفة والحكمة والفكر، بالمستطاع ملاحظة مثل هذا التيار خلال القرون الحديثة في اوربا وفي مسار الحكمة في العالم الغربي، فبعد انقراض أو عزلة الفلسفة المدرسية المسيحية (الاسكولاستيكية) وظهور ديكارت وبايكون وكوكبة من المفكرين البريطانيين والالمان، برزت تعارضات شديدة بين الافكار الفلسفية الحديثة أفضت في القرن العشرين أخيراً الى احياء مدرسة الشك القديمة، ولكن بصور جديدة.

ان مدارس من قبيل الحسية (أو الوضعية) والحسية المنطقية (الوضعية المنطقية) واللغوية التحليلية (أو التحليل اللغوي) والتجريبية وما الى ذلك، رغم تسليمها لامكانية معرفة الامور التجريبية، لكنها تقوم في حقيقة الامر على اساس الشك في المعرفة، وقد كان من شأن تطورات الفيزياء الحديثة أن ضاعفت من تضعضع ايمانهم بالادراكات الحسية. اكد هؤلاء أن القضايا الفلسفية (الميتافيزيقية) خالية من المعنى، لأنها قضايا لاسبيل الى اثباتها وهي مشكوك فيها دوماً. انها ليست عبارات حقيقية (Factual)، بل لغوية ونمط من التعريف اللفظي لاسبيل للقول بصدقه أو بكذبه على السواء.

«تكون العبارة صادقة منطقياً حينما لا تقول شيئاً عن العالم الخارجي. هذه العبارة يمكن ان تكون صادقة لمجرد معاني المفردات المستعملة فيها، أما قوانين الطبيعة فهي محتملة...»[1] القانون الذي يتحدث عن نظام طبيعي «صادق دوماً» ينبغي اعتباره عبارة مؤقتة، قد يتبين خطؤها مستقبلاً...» «يقول هيوم: لا دليل اطلاقاً على

---

١) مقدمة لفلسفة العلوم، رودولف كارنب، ص ٢٩٣.

وجود ضرورة ذاتية في الاحداث العلية المتعاقبة، فتعاقب العلة والمعلول ليس سوى توالي زمني بين الاحداث. وتحليل هيوم هذا صحيح في اساسه».[1]

ويرى هذا الفيزياوي المتفلسف ذاته أن «اللغة العلمية» لها ثلاث مجاميع من المفردات: ١. المفردات المنطقية، ٢. المفردات المشاهداتية، ٣. المفردات النظرية التي تسمى احياناً المفردات الممتنعة. وهو يرى حتى مصطلحات نظير «البروتون، المجال المغناطيسي، والشحنة الالكترونية» مفردات نظرية «لايمكن مشاهدتها بالاساليب البسيطة والمباشرة نسبياً».

ويقول آخر: «ان العالم كما افترضه الوضعيون بصراحة، لايمكن وصفه بمنح احداثيات فيزياوية دقيقة لكل نقطة موجودة في العبارة، ثم المبادرة من بعد ذلك لفحص «صدق» العبارة أو «كذبها». كل اساس احداثي ينبغي ان يتضمن في داخله جانباً من عدم الجزم واليقين، وبالتالي سيكون هذا الفحص غير قطعي، ولابد من القول بامكانية خطئه».[2]

«حينما نريد فحص واختبار عبارة (هذا أحمر) فلا (هذا) ممكن الاختبار بدقة ولا (الاحمر). اضف الى ذلك ان العلم مجموعة غير مركبة من الاجزاء المنفصلة عن بعضها، وفي مثل هذه الحالة سيكون تحليله الى جملات وعبارات متعذراً».[3]

النظرية التي تربط بين كون الشئ حقيقياً وبين قابليته للدحض،ترى في النهاية الحالية لتلك النظريات المشككة في المعرفة، أن الحقائق المفترضة مجرد حدس و «المشاهدة والعقل لايمكن اعتبار أي منهما مصدراً للمعرفة بالمعنى الذي طرح لهما

---

١) م.س.

٢) المعرفة العامة بالعلم، يعقوب برونوفسكي، ص ١١٧.

٣) م.س، ص ١١٥.

لحد الآن».[١]

ولتسويغ شكها في طائفة من حقائق عالم الوجود، بادرت هذه الجماعة اولاً الى سلب حيثية المسائل الفلسفية (أو حيثية الفلسفة في الواقع) وادرجتها ضمن ابواب العلوم الاخرى وفي خاناتها، ثم جعلت مناط «علمية» المسائل والقضايا هو «المعنى» كما زعمت، وبشرط ان يكون الاشتمال على معنى رهناً بالتجربة والاستقراء والقابلية للاختبار، أو القابلية للاثبات. وانطلاقاً من أن القضايا العلمية كلية ومطلقة، فقد شدد مؤلف كتاب «الاحتمالات والدحوض» على أنها (أي القضايا العلمية) مهما تم استقصاؤها واستقراؤها، فلن تكون قابلة للفحص العلمي أو للاثبات، لهذا جعل مناط الطابع العلمي للمسألة أو القضية هو امكانية دحضها! فلو كان المناط هو القابلية للاثبات، لما امكن دحض بعض النظريات العلمية المعروفة.

هذه الآراء وامثالها، التي ما تزال تتوالد بصور شتى واحياناً على شكل اصالة اللغة أو النزعة الظاهراتية وما الى ذلك، هي في الواقع نماذج لسطوة الشك على الفكر الفلسفي الغربي، والتي تسفر احياناً كما حصل بالنسبة لمشككي القرون الاولى، عن نزعات «نفعية» و«مصلحية» تقول: «خذ الغايات واترك المبادئ». وبنظرة فاحصة للاوضاع المضطربة التي سادت الفلسفة الاوربية في اعقاب ديكارت ومونتنيه (القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد)، يتسنى بكل سهولة رصد مواطن الشبه بينها وبين عهد المشككين القدماء.

في خاتمة هذا القسم لابد لنا من اشارة قصيرة لحياة وافكار فورون أو پورون Pyrrhon الذي يسمى خطأً پيرهون. كان من اهل أليسا (Elisa)، ولد حوالي سنة ٣٧٤

١) الاحتمالات والدحوض، كارل ريموند بوبر، ص ٤.

ق.م[1] وقضى نحبه عام ٢٥٧ ق.م. عمل في شبابه في صفوف جيش الاسكندر، وسار معه الى الاسكندرية ومنها الى الهند، وقيل انه تعرف هناك للحكماء الهنود العراة.[2] لم يترك أي كتاب، ويظهر من كل ما نقل عنه انه كان في الواقع «مناهضاً للحتم» وليس مشككاً بمعنى المنكر للحقائق.

تلاميذه ورجال مدرسته هم تيمون الفيلونتي (Timon philonte) وآرقاسيلاس البيتاني (Arcesilas Pitane) الذي توفي سنة ٢٤٠ ق.م، وكرنيادس (Carnead) ـ كاريِنادوس ـ كليتوماخوس (حدود ١١٠ ـ ١٨٠ ق.م) وانطيوخوس (توفي ٦٩ ق.م) وانسيداموس الكريتي (Enesidemus) وسكتوس امبريكوس (Sectus Empricus) (٢١٠ ـ ١٨٠ ق.م) واعتبروا ارقاسيلاس مؤسس الاكاديمية الجديدة.

١ ـ ٤. افلوطين

جميع هذه المدارس والتيارات التي ظهرت تزامناً مع المشائين وفي اعقابهم الى حين ظهور الدين المسيحي، يمكن اعتبارها من ثمار هجوم ارسطو على الحكمة الاشراقية وردود الفعل المختلفة التي ابدتها هذه المدرسة حيال الضربات التي سددها نحوها ارسطو، واظهر مسيرتها الطبيعية على شكل منحنيات تسلك سبل الافراط والتفريط، رغم اننا يجب ان لاننسى ايضاً العوامل النفسية وتأثيرات الطبيعة اليونانية في هذا الخضم.

تارة تنحسر الحكمة العملية بمعناها الاشراقي والسقراطي جانباً، وتتبدى على

---

١) زبدة الصحائف.

٢) تاريخ الفلسفة الغربية، برتراند رسل، خريف الفكر اليوناني، عبدالرحمن بدوي، ص ٦٩.

شكل فلسفة نظرية طبيعة محضة وقواعد منطقية، وتارة تسود الحكمة العملية الخالصة ولاسيما الاخلاق مُقصيةً عن الساحة لا الفلسفة النظرية فقط، بل اساس المعرفة ايضاً. من زاوية شاعرية يمكن تشبيه هذه الاضطرابات والفوضى في الفكر الفلسفي بحمى وهذيان يتمظهر على شكل مدرسة فكرية، كما يمكن تشبيه مبدّدي الحكمة المتقمّصين رداء الفلاسفة بافراد مصابين بالحمى، والقول: «هذا الهذيان هو نتيجة تلك الحمى».

ولكن، سطعت شمس المشرق تارة اخرى، وانبثق العرفان والحكمة المشرقية (أو حكمة الاشراق) من الاسكندرية بمصر فتضوع اريجها في فضاءات الفكر والفلسفة رغم ان هجوم الاسكندر على الشرق ادى الى كثير من الخسائر المادية والمعنوية، ولكن تشكيل حكومته الواحدة التي ارادت في الظاهر اشاعة اللغة والثقافة اليونانية، اضحى في الواقع منبراً رسمياً لنشر الحكمة والعلوم الشرقية والايرانية بخاصة، ومن ناحية اخرى، أدى نقل كتب الحكمة والعلوم والنجوم والطب والرياضيات المنهوبة من القصور والمعابد الايرانية الى الاسكندرية، وهي العملية التي استمرت حتى الى عهد دولة البطالسة المصريين ذوي الاصول اليونانية فتم بذلك تشييد المكتبة النادرة المعروفة في الاسكندرية واثرائها، أدى الى نقل سريع لحكمة المغان الايرانيين الى مصر والاسكندرية.

مثلما اسلفنا، فإن طرق التواصل بين ايران ومصر والمناطق المتوسطية كانت مفتوحة دوماً عن طريق بابل وسورية وكذلك آسيا الصغرى، وهي التي حكّمت الاواصر الثقافية وكانت بمثابة الجسور التي انتقلت عليها الثقافة والحكمة الايرانية الى اقاليم بعيدة. بيد أن حكومة الاسكندر سرّعت من وتيرة هذه الوشائج وزادت من سعتها وحجمها، فقد زادت حالات نقل القوات العسكرية وكذلك رحلات السياح،

وأمست مدينة الاسكندرية التي مزجت تراثها القديم منذ زمن كمبوجيه بالثقافة والحكمة والعلوم الايرانية، محوراً مستقلاً مع انها لم تتنافس في البداية مع اثينا وسائر المناطق المتوسطية، لكنها بسبب بعدها عنها لم تتأثر بتذبذباتها وامواجها. وكان جنين الحكمة الايرانية ينمو هناك ليصنع مدرسة عميقة حية متوثبة جعلت الاسكندرية لاحقاً اكبر مركز للعلم والفلسفة.

هذه المدرسة التي سميت بعد ذلك الافلاطونية المحدثة، كانت عرفاناً خالصاً، وكان أشهر حكمائها هو افلوطين (Plotinus).

الفارق بين هذه المدرسة ومدرسة سقراط وافلاطون، هو أن افلوطين استقى حكمته وتياره الفكري من ايران والمصادر الايرانية بصورة مباشرة وبلا وسائط شأنه شأن فيثاغورس.

من هنا يمكن اعتباره «فيثاغورس الثاني» ظهر بعد قرون من فيثاغورس الاول لا في ساموس أو ايطاليا بل في القارة الافريقية وفي نقطة افتراق (التقاء) القارات الثلاثة عن بعضها.

قالت طائفة من الباحثين انه يوناني الاصل، والغربيون يعتبرونه يوناني الاصل من باب اولى، ومرد الالتباس الذي وقعوا فيه هو اسمه اليوناني أو (الرومي)، والحال أن هيمنة الاسكندر والمقدونيين واليونانيين لقرن كامل على الشرق ترك بطبيعة الحال مثل هذه التأثيرات بكثرة،[١] وأن يحمل الرجل اسماً يونانياً ليس دليلاً على أصله اليوناني.

---

١) لايزال البعض في ايران يسمون ابناءهم «اسكندر» وهو عدوهم التاريخي الكبير، وكذلك الحال بالنسبة لاسماء اخرى مثل جنكيز وتيمور.

وفي سياق البرهنة على يونانية افلوطين، بذلت جهود عبثية لتكريس ان مدرسته كانت حصيلة تاريخية للمدارس اليونانية القديمة والثقافات التي ظهرت في الانحاء التى سكنها اليونانيون، والحال ان عناصر هذه المدرسة بعيدة عن عناصر الفلسفات السابقة الى درجة تجعل استقلالها امراً مفروغاً منه.

يقول باحث مصري في كتاب له:

... ولو أن (اتسلر) ينكر ان تكون المذاهب الشرقية قد اثرت تأثيراً كبيراً في الفلسفة، فاننا نجد كثيراً من الباحثين المعتمدين ـ مثل فاشيرو ـ يقول: «ان الفلسفة الافلوطينية كانت فلسفة شرقية بكل معنى الكلمة، فهي في روحها وجوهرها وطبيعتها شرقية. واما المظهر الخارجي لها فإنه وان كان يونانياً، فإن هذا لايوجب ان يجعلنا نعتقد أن له روحاً يونانياً وهذا ظاهر خصوصاً فيما يتصل اولاً بما قلناه عن الطابع التام لهذه الفلسفة، وثانياً ان كثيراً من الافكار التي كانت منتشرة في البيئة الهندية الفارسية، اي البيئة التي ظهرت فيها الحضارة العربية (الاسلامية)قد أثر كل التأثير في هذه الفلسفة.

ففكرة الملائكة ـ أو الوسطاء، أو العقول المتوسطة ـ ثم فكرة «الصدور» خصوصاً، كل هذه افكار شرقية من ألفها الى يائها.

فكرة الصدور ـ وهي التي تلعب اخطر دور في هذه الفلسفة وتكون الفكرة السائدة في كل اجزائها ـ فكرة شرقية مأخوذة عن المذاهب الهندية والفارسية... فقد كانت هذه العناصر الشرقية تحلق في الجو الذي وجد ابان ذلك العصر، في القرون الثلاثة الاولى للميلاد بوجه أخص، وكانت منتشرة الى حد بعيد جداً في جميع الاوساط الشرقية التي

استوطنت المدن المتوسطة بين الشرق القريب والشرق اليوناني أي مصر خصوصاً، فكان هذا كافياً لانتشار هذه الأفكار والمذاهب الشرقية في هذه الاوساط. فلا سبيل اذن الى أنكار تأثر الافلاطونية المحدثة بالعناصر الفكرية الشرقية.[١]

تعقب البعض علاقاتٍ بين افلوطين والمدرسة المعروفة بالغنوصية،[٢] التي سجلت حضورها طوال عدة قرون في تلك المناطق بعد ميلاد المسيح وقبله، واستدلوا على ذلك بمواطن الشبه العديدة بين المدرستين في علم الوجود وعلم النفس وعلم الكون، وتعبيرات من قبيل الانسان الكبير والعالم الصغير.

تعزا مثل هذه الابحاث العبثية الى ان معظم الباحثين الغربيين واتباعهم من الشعوب الاخرى، لم يمسكوا برأس الخيط، ولا هم مستعدون لقبول أن المدارس والاسماء المختلفة لها في بعض الاحيان جذور واحدة، ورصيدها الاصلي فكرة واحدة متحولة ومتحركة هي التي عاشت وتفاعلت يوماً ما (قبل حوالي ٢٦ قرناً من الآن) في الشرق وفي ايران خاصة. وما اسماء من قبيل الغنوصية والفيثاغورية والافلاطونية والاشراقية ومدرسة سقراط وافلاطون وافلوطين و... الّا شئ واحد هو من افرازات تلك المدرسة الاشراقية أو المشرقية التي كانت تسمى في ايران القديمة «خرد جاويدان» أو الحكمة الخالدة والتي جاء الاسلام بعد ذلك بشئ قريب لها.

ان اضاعة رأس هذا الخيط، سبّب للبعض احياناً حيرةً كبيرةً من الشبه الشديد

---

١) خريف الفكر اليوناني، عبدالرحمن بدوي، صص ١١٥ ـ ١١٦؛ فاشيرو: التاريخ النقدي للمدرسة الاسكندرية.

٢) الغنوص (بمعنى المعرفة) مشتق من گنوسس اليونانية، وهي كلمة معروفة ذات مصداق تاريخي جد غامض ومعتم، بل وتطلق خطأً حتى على المذاهب الصوفية احياناً.

بين افلوطين وفيثاغورس على سبيل المثال، فراحوا يسألون انفسهم كيف يمكن ان تكون «أحدية» افلوطين قريبة الى هذه الدرجة من «موناس/ Monas/ Moras» فيثاغورس؟ وكذا الحال بالنسبة لسائر مواطن الشبه! ولماذا لم يتحدث افلوطين رغم اطلاعه على المدرسة المشائية، عن «المحرك الاول» و«الحركة» وتطرق بدل ذلك لـ«الصدور» و«الفيض» ووسائط ايجاد المخلوقات كالعقل (وليس العقول) والنفس (لا النفوس)؟

نعتقد اننا اذا لم نعتبر الغنوصة جماعة خاصة، بل قلنا انها هي نفسها مدرسة فيثاغورس والحكمة الايرانية، فإن افلوطين كان غنوصياً، وينبغي الاستعاضة عن مصطلح «الافلاطونية المحدثة» الخاطئ واللادقيق باسم «الغنوصية»، اما اذا كان المراد من هذه الكلمة جماعة خاصة نشطت تزامناً مع افلوطين وفي النواحي نفسها،[1] وجب القول أنه ليس منهم اطلاقاً، بل لقد وضع رسالة حسب رواية فورفوريوس في الرد عليهم جاءت في مجموعة التساعات.[2]

أياً كان الأمر، فإن افلوطين (أو پلوتين، أو پلوتينوس Plotinus) كان مصرياً يقال انه ولد في مدينة اسمها لوكو (لوكوبليس) في مصر العليا حدود سنة ٢٠٤ بعد الميلاد، وتوجه في الثامنة والعشرين من عمره الى الاسكندرية، وصاحب اوريجانوس في حضور دروس عارف وحكيم يدعى عامون (آمونيوس) سكّاس (Ammonius Saccas) أو حمال الحكمة، ورافق في التاسعة والثلاثين من عمره قوات قائد روماني اسمه (غورديانوس) في زحفه صوب ايران أملاً في الاغتراف من ينابيع الحكمة.

---

١) تاريخ الفلسفة، اميل برييه، ج ٢، ص ٣١٠.
٢) انياد ٢، الرسالة ٩ (مجموعة رسائل افلوطين، ج ١، ص ٢٥٥).

ومن المعروف أن مقتل ذلك القائد، حضه على العودة الى آسيا الصغرى وانطاكية، بيد أن هذا الرأي لايصمد للبحث التاريخي، لأن مصدره الاصلي هو تلميذه فورفوريوس الذي يعترف انه لا يعلم شيئاً عن ماضي استاذه، ولم يكن افلوطين مستعداً للتحدث بشئ عن حياته لتلاميذه. من جهة ثانية، يُستبعد جداً أن يأتي حكيم الى ارض ايران أملاً في تحصيل الحكمة والعلوم المشرقية، ثم يندم ويعود لمجرد مقتل قائد عسكري.

والشبه الكبير بين اعماله واعمال الهنود كرّس هذا الشك والاستغراب لدى الباحثين، إذ يبدو من الطبيعي جداً انه تجول لسنوات في ايران، وسار حتى الى الهند، والتقى بحكماء وعظماء في هذين الاقليمين.

ومن الحري في هذه الفرصة ان نتطرق بعض الشئ لآمونيوس. ومع أن بداية اسمه كتبت بحرف الألف (آ) ولكن من المحتمل ان يكون اسمه الحقيقي (عامون) وهي كلمة مصرية، خصوصاً وان القفطي اعتبره تلميذاً لهرمس الاول. ان تحريف الاسماء وتبديلها الى اسماء يونانية كان دارجاً آنذاك. فمثلاً يقول فورفوريوس وهو لبناني من أهالي صور أن اسمه هو «مَلِك» لكنهم كانوا ينادونه مالخوس (Malchus)، ويؤكد أنهم لم يكتفوا بذلك، بل ان صديقه وزميله في المدرسة آمليوس سماه «بازيليوس» التي تعني باليونانية الملك أو السلطان، وهو في الواقع مرادف لاسمه فورفوريوس من ناحية الأم.[1]

يرى المؤرخون أن آمونيوس هو مؤسسة مدرسة الاسكندرية أو (الافلاطونية

---

١) آثار افلوطين، لطفي، ص ١١١٤.

المحدثة)[١].كما يعبر الغربيون. وقيل ان ابويه كانا مسيحيين وانه عاد الى الدين اليوناني القديم،[٢] غير أن هذا الرأي لم يثبت واحتماله ضعيف جداً.

يبدو أن افلوطين استلهم جل معارفه من آمونيوس (عامون) فقد كان يظهر نفسه على انه راوية مدرسته، ولما كان افلوطين حكيماً اشراقياً (أو حسب التعبير المعروف: افلاطونياً أو غنوصياً) بدا جلياً أن آمونيوس كان هو الآخر حكيماً وعارفاً اشراقياً، رغم اطلاعه، كما هو الحال بالنسبة لافلوطين، على المدرسة المشائية والمدارس الاخرى.

عاد افلوطين سنة ٢٤٤ م الى موطنه،[٣] ثم اختار روما الفتية والمستعدة لقبول تعاليمه، فهاجر اليها، وشرع هناك بمزاولة التدريس ونشر افكاره، وتوفي في حدود ٢٧٠ للميلاد.

أبرز آثار افلوطين ما يربو على خمسين رسالة جمعها تلميذه فورفوريوس في مجاميع تساعية وضمن ستة فصول، وهي كلها تقريراته وأماليه وفي المصطلح الجامعي «ملازمه التدريسية» التي أعدها تلاميذُهُ. وبسبب تقسيماتها التساعية سميت هذه الرسائل في العربية «التاسوعات» أو «التساعات» وفي اليونانية Eneads.[٤]

وكسائر الحكماء الاشراقيين، استطاب الحكمة النظرية بمعية الحكمة العملية (الاخلاق وسياسة البلاد) وكان يُدِّرس هذه الى جانب تلك. حظي في روما بمنزلة

---

١) هذا مصطلح جديد وضعه المؤرخون المتأخرون.

٢) تاريخ الفلسفة، د.مرحبا، ص ٣٢٥. ٣) التصوف والادب، برتلس، ص ٢٧.

٤) بعض اجزاء الالهيات من التاسوعات واسمها «ثيولوجيا» سماها المترجمون تحريفاً «اثولوجيا» بل واعتبروها من كتب ارسطو، الامر الذي أضرَّ ضرراً بالغاً بتطور الفلسفة، وادى الى سمعة حسنة لا اساس لها احرزها ارسطو في انظار الحكماء المسلمين.

جليلة لدى الامبراطور «غالينوس» وزوجته الملكة، وطلب اليهما أن يمنحاه مدينةً ليجعلها «مجتمعاً مثالياً» باسلوبه الخاص، ويطلق عليها اسم «مدينة افلاطون» فمنحوه لفترة من الزمن انقاض مدينة باسم افلاطون، الا ان خصومه اخبروا الامبراطور بعد مدة بنيته، فمنعه من تنفيذ مشروعه.

الخصوصية التي تمتاز بها مدرسة افلوطين، هو طابعها العرفاني والنفسي. مع انه لا يذكر اسم «الله» أو «الصانع» بيد أنه يرى منح الوجود والخلقة خاصاً بـ «وجود مطلق» وحقيقي ومحض، يتسنى ان نطلق عليه صفة واجب الوجود أو الموجود الضروري الوجود كما في الفلسفة. انه حقيقة واحدة لا تتصف بصفة ولا مثل لها، ولا سبيل للعقل الى معرفتها. وقد تسببت فيوضه الغامرة، وهي من ضروريات ذاته، في خلقة الصادر الاول المسمى بـ «العقل» أو (نوس) والعقل هذا هو حقيقة واحدة ساكنة غير متغيرة انبثق منها موجود اسمه «النفس» أو (پسوخه) خلقت تجلياتُهُ المختلفة الانسانَ والعالم.

تمثل هذه الحقائق الطولية الثلاث المترابطة مع بعضها برباط العلية، تمثل ثلاثة اركان أو «اقانيم» في الرؤية الكونية الافلوطينية، افضت لاحقاً الى التثليث المسيحي الذي تبدى على شكل ثلاث حقائق عرضية متوازية. ويعادلها في العرفان الاسلامي: الأحدية بالعماء المطلق، والفيض الاقدس، والفيض المقدس.

ثمة بين المدرسة العرفانية الافلوطينية والعرفان الاسلامي قواسم مشتركة نخوض فيها لاحقاً، الا أن تفسير العرفان الاسلامي او الايراني بعد الاسلام باعتباره «فلسفة افلاطونية محدثة ايرانية» ليس في محله اطلاقاً، فهو فهم خاطئ بعيد عن

اصول البحث التاريخي وحقائق التاريخ.[١]

يرى افلوطين ذات الباري أو الوجود الاول،الكمال المحض، وصفاته صفات سلبية تنزيهية. انه بسيط وواحد من جميع الجهات (في الخارج وفي الذهن)، ليس بجوهر ولا عرض، ولا هو بشئ انما فوق الاشياء، الّا انه في الوقت ذاته كل الاشياء، لأنه مصدر كل الاشياء.

ليس الصادر الاول أو العقل (نوس)[٢] ازلياً، بيد أنه أبدي، وساكن ومؤثر كل التأثير، وهو الفياض الثاني الذي يدبر الروح أو النفس.

والنفس هي الصادر الثاني والرابط بين العقل والعالم المصنوع، وملهم النفوس والعقول الجزئية ومدبرها. يشبهها افلوطين بالنار الابدية،[٣]وهي من باب اولى: «روحانية الحدوث والبقاء» ويقول: اذا كانت مصنوعة من العناصر الاربعة أو الامزجة الاربعة فكيف يمكنها الامساك بها وحفظها؟ وقد شبه النفس بدائرة مركزها العقل وليس لها ابعاد، والشوق والعشق هو الذي يدفع النفس للدوران حول المركز.[٤]

يظهر ان مراده بالنفس هو الروح التي يعبر عنها احياناً بـ«اللوغوس» ،وقد تعلمها المتكلم اليهودي فيلون من الاشراقيين الذين سبقوه. ثم طبّقها النصارى بعد ذلك على السيد المسيح.

---

١) أخذ المرحوم محمد اقبال بمثل هذا التفسير في ايران، ص ٤٣.

٢) يقول برتراند رسل ان الغربيين لم يجدوا معادلاً لـ(نوس) nous واعتبروها معادلة لـ Mind أو Intellctual ونعتقد ان هذا ادى الى جملة اخطاء اخرى.

٣) عبر عنها السهروردي بـ «الملكة النورانية» (المطارحات، ص ٤٥٢) وسماها صدرالمتألهين «الشعلة الملكوتية» (في المبدأ والمعاد، ص ٦، على سبيل المثال) وقد اسلفنا ان هيراقليطس كان يرى النار الخالدة اصل الاشياء.

٤) في الملل والنحل للشهرستاني، وهو ما نقل ايضاً في كتب الميرداماد والملاصدرا.

ليس للمادة مكان في فلسفة افلوطين سوى انها ظل وعتمة (غَسَق) وفقر محض. ولا قيمة للمدارك الحسية لدى الانسان الا القليل جداً، وبالمقدور حيازة العلم الحقيقي بالشهود.

افلوطين نفسه كان من اهل الشهود، وقادراً على (خلع البدن) والادراك المباشر للحقائق بالعيون غير المادية، وهذا ما ورد في كتابه وفيشرح سيرته. يكتب فورفوريوس ان تلاميذه اصروا على رسم شكله، لكنه أبى عليهم وكان يقول: وما هو هذا الجسم الذي ليس سوى ظل حتى ترسموا عنه ظلاً آخر؟ اتبع اسلوب المغان والحكماء الايرانيين والفيثاغوريين في الامتناع عن أكل اللحوم، وقلة النوم، وعدم الاهتمام للجسم.

كتبوا عنه انه كان ضليعاً في كافة علوم زمانه، ومتبحراً «في الهندسة والرياضيات والميكانيك وعلم المناظر والموسيقى، الا انه لم يكن مستعداً لانفاق وقته بالبحث التفصيلي في هذه العلوم».

«كان يأمر في دروسه بقراءة شروح للفلسفة المشائية، لكنه لايكرر بنفسه ما يطرح في هذه التفاسير، انما كان يسلك طريقه الخاص، ويحاول اثبات ارجحية نظريات آمونيوس فيما يتعلق بموضوع البحث».[١]

* * *

تتوزع المدرسة الاسكندرية بعد افلوطين الى شعبتين احداهما مسيحية والثانية غير مسيحية. مثّل الشعبة المسيحية اوريجانوس (Origenus) (تقرأ احياناً اوريجن أو اوريژن) واشتهرت الشعبة الاخرى باسم فورفوريوس (پرفوريوس Perphyrios)

---

١) الأعمال الكاملة لأفلوطين، لطفي، ص ١١١١.

واضع الكليات الخمسة أو الايساغوجي (Isagoge) في المنطق، وكتاب في اتحاد العاقل والمعقول، واشتهر فيها ايضاً مليوس ويامبليخوس وابرقلس (بروكلوس) وآخرون.

اننا لانصر على هذا التقسيم، وربما كان الاحتمال الاقرب الى الصواب هو كما ان اوريجانوس ـ زميل افلوطين في الدراسة ـ اعتنق المسيحية، كان افلوطين قد اعتنقها هو الآخر، فالاساس في حكمة الاشراق هو الايمان بالانبياء وقبول الوحي، وكما جاء في انجيل متي، فقد توجه عدد من المغان الايرانيين من بلادهم الى بيت لحم قبيل ولادة المسيح لكي يروه، وكانوا قد علموا بزمان ميلاده ومكانه بناء على خبراتهم في علم النجوم والافلاك، وقد علم الحاكم الرومي هناك (هيرودوس) بهذا الامر وعزم على قتل المسيح كما جاء تفصيل ذلك في الانجيل.

وكذلك كان حال سلمان الفارسي وهو من كبار المغان الايرانيين، إذ تحمل متاعب جمة واسفاراً طويلة ورد ذكرها في التاريخ للقاء نبي الاسلامﷺ والايمان به. من هنا يبدو مستبعداً جداً لشخص عارف ذي خصال روحية مثل افلوطين له صديق كأوريجانوس، أن يجهل المسيح ونبوته وصدق رسالته، أو انه كان على علم بها لكنه أعرض عنها، واختار مذهب الشرك او الوثنية رغم ايمانه بالروح الالهية ـ أو النفس أو الكلمة ـ والسيد المسيح من مصاديقها.

ومع أن ما كتبوه واشتهر عن فورفوريوس هو أنه وضع كتاباً ضد المسيحيين، الّا أن من الصعب القول عن هذا التلميذ الوفي[1] لافلوطين انه لم يكن مؤمناً بالمسيح،

---

١) يقول فورفوريوس: ألقيت في حفل ميلاد افلاطون قصيدة اتسمت بالرمزية والالهام، فناداني افلوطين بصوت عال: أنت شاعر، وفيلسوف، ومفسر للاسرار المقدسة في آنٍ واحد. وواضح أن امين الاسرار المقدسة لايعارض رسول الله.

وربما كانت معارضته موجهة للتيار المعادي للعرفان الذي شاع بين بعض المسيحيين، وأدى حتى الى تكفير اوريجانوس.

واذن، ينبغي اعتبار توجه المسيحيين الاوائل وليد الاعتقاد والتناسق بين العرفان الاشراقي والحكمة المشرقية وبين نبوة عيسى عليه السلام، وليس العكس، ولكن حيث أن العرفان المسيحي في القرن الثاني والثالث ظهر على شكل حركة مستقلة في تاريخ الفلسفة، فقد انتهجنا نحن ايضاً هذا التبويب.

يعد اكليمنضُس الاسكندراني واوريجانوس اول الفلاسفة المسيحيين. ولد اوريجانوس سنة ١٨٥ للميلاد، وتوفي عام ٢٥٤ م، وكما ذكرنا فقد درس مع افلوطين على آمونيوس. يكتب فورفوريوس: «حضر اوريجانوس يوماً في مجلس افلوطين، فاستحى افلوطين وأراد أن يقطع الدرس، وحينما طلب منه اوريجانوس مواصلة درسه، قال: حينما يرى المرء أن مستمعيه يعلمون الذي سوف يقوله، سيخسر أي حافز على الكلام. وبعد وقت قصير لزم الصمت وانفض المجلس».[١]

يتجلى من هذا الخبر مدى شموخ المرتبة التي بلغها اوريجانوس في حقل الحكمة والعلوم. قالوا أنه وافلوطين وايرنيوس تعاهدوا ـ طبقاً لسنة المغان الايرانيين القديمة في الحكمة وكذلك سيرة فيثاغورس ـ أن لايكتبوا شيئاً عن اسرار الحكمة، بيد أن ايرنيوس نكث العهد، لذلك سمح الآخران بنشر دروسهما للحيلولة دون تحريف الحكمة.

لا تصطبغ فلسفة هذا الحكيم بألوان الكلام المسيحي، انما هي حكمة اشراقية خالصة تتبنى الاقانيم الثلاثة ـ الاحدية، والعقل، والنفس ـ ولكن بتراتبية طويلة. وبعد

---

١) م.س، ص ١١١٢.

ذلك حينما شاعت معتقدات الشرك عن الشمس و (ميترا) وعبادة الزهرة، اضحى التثليث عند بعض المسيحيين في صورة اقانيم ثلاثة تترتب أفقياً على عرض بعضها، حتى انهم اعتبروا الترتيب الطولي للاقانيم كفراً.

وجاء من بعده حكماء مسيحيون آخرون كانوا على نفس العقيدة (الجمع بين المسيحية والعرفان الشرقي). فريق منهم نظير آريوس (Arius) (نحو ٢٥٦ ـ ٣٣٦م) تعرضوا للتكفير شأنهم شأن اوريجانوس،[١] وفريق آخر مثل اوغسطين Aagustinus (٣٥٤ ـ ٤٣٠ م) غدوا من القديسين في عرف الكنيسة. كان اوغسطين في الاصل من اهالي شمال افريقيا، آمن لفترة بالحكمة الايرانية ثم اتجه صوب المانوية، واستقر به المطاف اخيراً في المسيحية، فمزج الحكمة المشرقية بالمسيحية، وبدل الثنوية الى التثليث. انحرافه الاساسي يكمن في فصله بين الحكمة والسياسة، فالوحدة بينهما هي اساس الحكمة الاشراقية وغايتها. لقد أفتى بفصل الكنيسة عن الحكومة وأمر الدنيا عن أمر الآخرة، وعموماً يمكن اعتباره معرضاً عن الحكمة.

الحكيم المسيحي الآخر هو بويثيوس Boethius (نحو ٤٨٠ ـ ٥٢٤ م) مؤلف كتاب (عزاء الفلسفة) الذي ابدى ميولاً نحو ارسطو والمشائين، وكتب اشياء عن المنطق، واشاع الحكمة العملية لافلاطون، وقد اعدمته الحكومة آنذاك بسبب معتقداته.

تحولت المدرسة الاسكندرانية والرومانية الافلوطينية في القرون التالية الى مراكز اخرى في سورية واثينا. فقد اسس يامبليخوس (Iamblichus) تلميذ

---

١) اعتبرت نظريته كفراً في المجلس الكنسي في نيقية عام ٣٢٥ م، و مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ م.

فورفوريوس (المتوفي سنة ٣٣٠ م) مركزاً في سورية، وافتتح تلميذه ايدسيوس (Aedsius) مدرسة فلسفية في برغامو (Pergamon) وفعل مثله نستوريوس أو نسطور (Nestorius) وابنه بلوتارخُس في اثينا، وكذلك ابرقلس أو بروكلوس (Proclus) (٤١٠ ـ ٤٨٥ م) في بيزنطة و القسطنطينية، فنشروا المدرسة الافلوطينية أو الافلاطونية، وكما قلنا فقد كان العرفان والمسيحية والفلسفة والكلام حقولاً معرفية مختلطة ببعضها.

في منطقة سورية التي كانت حداً فاصلاً بين الامبراطوريتين الايرانية والرومانية الشرقية، كانت المراكز العلمية والفلسفية تصاب احياناً بالاضطراب والتخلخل، فكان انعدام الأمن بالنسبة للحكماء أشد في المملكة الرومانية. المدن المهمة في تلك المنطقة مثل «رها» و «نصيبين» ومن بعدهما «حران» كانت مزدهرة جداً، وخلافاً للفترة القصيرة في مطلع المسيحية حيث عمت موجة من الميل للغة اليونانية، كانت المدارس الشرقية ترجح اللغة السريانية، حتى ان الكثير من كتب الحكماء اليونانيين القدماء ترجمت الى السريانية.

مدن «الرها» و«نصيبين» كانت تابعة للامبراطورية الايرانية وذات صلات بالحكماء الايرانيين والمغان العاملين في بلاط الملوك الساسانيين، فكانت المدرسة الايرانية مشهورة في كلا المدينتين، والعديد من الحكماء فيهما كانوا ايرانيين. حينما وقعت مدينة «الرها» بيد الرومان، طرد الامبراطور الروماني (زينون) في سنة ٤٨٩ م حكماءها وكان معظمهم من النساطرة وحسني الديانة في عرف الايرانيين (لأنهم يعتقدون بأن المسيح حادث و مخلوق لله وليس قديماً بالذات) ولم يتخلوا عن حكمة

الاشراق ومدرسة افلوطين واوريجانوس وآريوس، فانتقلوا الى ايران ولقوا حفاوة واستقبالاً من قبل الايرانيين ونالوا حظوة ومكانة في البلاط الايراني. وكانت مدرسة نصيبين تدار بواسطة الايرانيين الى أن شيدت مدرسة اخرى في غنديشابور (جندي شابور) فتوجه نحوها حكماء سورية وفاقت شهرتها شهرة المدارس الاخرى.

في زمن انوشيروان، اخرج سبعة حكماء أفلاطونيين من اثينا (٥٢٩ م) فتوجهوا فوراً الى ايران التي كانت قد اضحت انشط المراكز الفلسفية والعلمية يومذاك، ومكثوا فيها فترة من الزمن، فافادوا الكثير من الفرصة التي توفرت لهم للتعرف على الحكماء والمغان الايرانيين عن كثب، وقد كان افلاطون يتمنى مثل هذه الفرصة، ونقلوا في عودتهم الى اثينا الكثير مما اكتسبوه في ايران والهند.

يمكن اعتبار فترة انوشيروان الاكثر ازدهاراً بين عصور الفلسفة والعلم من بعد حملة الاسكندر، فقد حاول فضلاً عن التراث الايراني القديم، أن يجمع الكتب وآراء العلماء والحكماء من الهند وسورية والاسكندرية واليونان وروما، ويبلغ بها الذروة. بعد انقراض فلول الاسكندر وزوال الاقوام الاشكانية الضئيلة التحضر، وقيام الدولة الساسانية، عادت الحكمة الايرانية الى سابق ازدهارها، وتطورت الحكمة والعلوم خصوصاً الطب والنجوم والى حدما الرياضيات. وقد بذل اردشير وشابور الساسانيين بدورهما جهوداً جمة لاستعادة كتب الحكمة والعلوم الايرانية المنهوبة من بلاد اليونان والرومان والهند، بل وترجموا الكتب التي وضعت بالسريانية واليونانية الى الفارسية.

من المحتمل ان يكون هدم مكتبة الاسكندرية ذائعة الصيت ـ وفيها الكثير من الكتب الايرانية ـ على يد الامبراطور الروماني ونهبها واحراقها، قد اتاح لاحقاً وصول

بعض تلك الكتب المنهوبة الى ايدي مبتاعين ايرانيين، ما اعادها الى الخزائن والمكتبات الايرانية.

من سمات العصور التالية لارسطو ـ ولاسيما في الاسكندرية وخلفائها السوريين والآراميين ـ الطابع التخصصي الذي اكتسبته علوم الطب والنجوم والرياضيات (والهندسة بخاصة) وانفصالها عن العلم الأم أي الفلسفة والحكمة.

نواجه في هذه العصور اطباء ومنجمين ورياضيين معروفين، حيث اشتهر بقراط وجالينوس في الطب، واقليدس في الهندسة، وبطليموس في علم الهيئة والنجوم، مضافاً الى اتباع مدارسهم الذين اشتهروا هم ايضاً في هذه الحقول العلمية.

❊ ❊ ❊

الباب الثاني

مَســارُ الفلسفة بَعد الإسلام

بظهور الدين الإسلامي (٦١٠ م) ونزول القرآن الكريم؛ تم تقديم رؤية كونية جديدة للمؤمنين والمسلمين لم تكن مسبوقة في كل الجزيرة العربية، فضلاً عن عقيدة التوحيد المناهضة بشدة للشرك وعبادة آلهة متعددة. كانت الجزيرة العربية نظراً لترامي صحاريها وجفافها وحرارتها الشديدة وبعدها عن مراكز الحضارة، في حكم جزيرة نائية منعزلة لم تأخذ عن الثقافة الايرانية والرومانية سوى عبادة الاوثان أو النجوم، أما الافكار الفلسفية والعلوم وحتى الخط والادب فبقيت أرض الجزيرة العربية محرومةً منها، وباستثناء الشعر الذي كان يتدفق من معدن الموهبة الطبيعية وله قيمته الاجتماعية المساوقة للشجاعة والثروة، لم يكن لسكان تلك المنطقة من شئ أو منجز يذكر.

سكان المدن القلائل هناك كانوا يزاولون التجارة أو خدمة الاثرياء، أما البدو فكانوا إما مزارعين أو قطاع طرق. أما أولو الثقافة منهم فهم اليهود والنصارى في بعض المناطق، وحتى هؤلاء كانوا اصحاب عقائد خرافية ودينية ساذجة، ولانصيب لهم من العلوم والفنون، لاسيما الحكمة والعلوم العقلية.

إن الانبثاق المفاجئ للمعارف والمسائل الفلسفية المهمة ذات الصبغة الدينية عن طريق الوحي في مثل ذلك المجتمع، كان بمثابة ينبوع متفجر بالخير في تلك البادية القاحلة، ولذلك فقد استقطب اليه أهل الفكر والتأمل ولاسيما الشباب.

ان قضايا من قبيل احدية الذات الالهية وصمديتها، وأن الله غير مولود ولا هو بوالد، وأنه قديم وأبدي، وقضايا اخرى مثل القضاء والقدرة والارادة الالهية القاهرة

الممتدة على طول الارادة البشرية الحرة، مضافاً الى افكار القيامة والحشر والمعاد والجنة والجحيم، وعشرات المفاهيم الخطيرة الاخرى في الرؤية الكونية للبشر، احتلت مكانها في أفكار المسلمين فجأةً، ما أدى الى توالد الاسئلة التي أجاب عنها الرسول الاكرم(ص) باجابات مثلت بداية تفسير القرآن الكريم.

ولم يتوقف تدفق هذه الاسئلة بعد رحيل الرسول(ص) انما اشتد وتضاعف. وكان الرسول(ص) قد عين خليفة له قبل وفاته، هو ابن عمه وصهره وبوابة علم النبي كما وصفه هو نفسه، والمفسر المتعالي للوحي.[۱] انه الامام علي(ع) الزعيم الاول للشيعة أو الامامية، والذي حرم من خلافة الرسول بسبب بعض الاحداث السياسية والاجتماعية التي اعقبت وفاة النبي(ص) مباشرة، ولم يتولَّ الخلافة الّا بعد أمد طويل كخليفة رابع، ولمدة قصيرة جداً.

ونتيجة للخلافات والتشعبات السياسية والاجتماعية التي تبلورت لاحقاً في عناوين التشيع والتسنن، لم ينتفع من مدرسة الامام علي(ع) الّا عدد من الناس اتبعوه أو كانوا اصحاب نظرة ايجابية حياله. واستمرت حركة هذه المدرسة كسلسلة مترابطة من بعده، وافصح خلفاؤه كل واحد منهم حسب مقتضيات عصره ودرجة استيعاب الناس، عن جانب من حقائق هذا العالم وعن المسائل الفلسفية القريبة من حياة الناس والمؤثرة في التحولات الروحية والاجتماعية، وهي مسائل كان لها رغم طابعها النظري، بعد حكمي عملي وتأثير اخلاقي، فاغترف منها عوام الناس وعلماؤهم في تلك الازمان. وقد كانت تلك التعاليم متطورة وعميقة الى درجة أنها في زمن الامامين الخامس والسادس (خليفتي الامام على(ع)) أي الامام محمد الباقر(ع) والامام جعفر الصادق(ع) (مابين ۸۰ – ۱٤۸ هـ / ۷۰۰ – ۷٦۰ م) كانت تدرَّس في جلسات دراسية

---

۱) حديث نبوى: أنا مدينة العلم وعلي بابها.

كبرى لتلاميذ يصل عددهم احياناً الى عدة آلاف، واضحى البعض منهم تالياً من اعظم المتكلمين في عصورهم.

الفئة الاخرى التي ابعدتها سياسية الحكومات وقتئند عن خلفاء الامام علي (الذين اشتهروا باسم اهل بيت النبى(ص)) ظلت تتخبط وتتحير في معتقداتها الدينية وتصوراتها الفلسفية القرآنية لجملة من الاسباب:

السبب الاول هو أن الخليفة الثاني منع بشدة رواية احاديث الرسول وسنته. وقد أدى هذا المنع ـ الذي استمر حوالي قرن من الزمان حتى خلافة عمر بن عبدالعزيز أو بعد ذلك ـ الى بون زمني بين المجتمع واحاديث الرسول ورواتها الصادقين، فاندثرت الكثير من الاحاديث النبوية القيمة، رغم أن اهل البيت (سلسلة الائمة الشيعة) حفظوها عندهم بالكامل، واذاعوها في كل مكان وفي المدينة المنورة بالحجاز غالباً حيث كانت مقرهم.

كان هذا البون بين المجتمع واحاديث الرسول وسنته خسارة كبرى وضرراً فادحاً منيت به المعارف الاسلامية والتفسير النبوى للقرآن، وأدى الى أن يتهافت ادعياء معرفة القرآن من كل صوب وحدب يقصفون اذهان الناس بما لديهم من معتقدات وتصورات شخصية للقرآن يزرعونها في عقول ابناء الأمة باسم الاسلام.

والسبب الثاني هو أن فظاعة الدعاية المعادية التي اطلقها حكام بني امية والمروانيون ضد الامام علي (عليه السلام) وابنائه، والمجازر المروعة الشرسة التي ارتكبوها ضد اتباع اهل البيت، عملت طبعاً على هلع الناس وابتعادهم عند اهل البيت فحرمتهم من انتهال سنة رسول الله(ص).

والسبب الثالث هو أن اهل البيت وائمة الشيعة سكنوا بعد خلافة معاوية المدينة المنورة غالباً، بينما كانت البلاد الاسلامية ـ الممتدة من خراسان الى شمال افريقيا ـ أوسع وأبعد من أن يصل اليهم الناس بسهولة وينتهلوا من علومهم وسط كل تلك الاخطار والضغوط التي احاطت بهم.

وهكذا لم يكن لعامة المسلمين من مصدر يجيب عن اشكالياتهم العقيدية خصوصاً في فهم القرآن المجيد الذي يحتوي الكثير في الشذرات حول قضايا القضاء والقدر والمشيئة الالهية والعدل الالهي وصفات الباري تعالى.

أسفرت هذه الظاهرة عن انبثاق تيار فكري اطلق عليه فيما بعد اسم «علم الكلام» وعلى رجاله اسم علماء الكلام أوالمتكلمين. فمثلاً زعم شخص يدعى الحسن البصري كان من تلامذة الامام علي(ع) (توفي ١١٠ هـ / ٧٢٨ م) معرفة اصول العقيدة الاسلامية والتفسير الصائب للقرآن. لذلك كان على عهد بني امية يجلس في مكان من المسجد حينما يتدفق الناس إلىٰ الصلاة، فيشرحهم لهم افكاره وتصوراته حول العقيدة الاسلامية.

الظاهرة التاريخية الاخرى التي نشّطت تيار المتكلمين هذا، وضاعفت من اقبال الناس عليهم هو الاحداث والمشكلات السياسية التي كانت تتفاعل غالباً بالاعتماد على آيات قرآنية أو احاديث نبوية. وخصوصاً في عهد خلافة الامام علي(ع) ولاسيما بعد الصلح مع معاوية وقبول التحكيم المفروض، اثيرت مسائل وقضايا هي في ظاهرها حول معنى الكفر والفسق والايمان، لكنها ذات تطبيقات سياسية خطيرة.

معارضو الامام علي(ع) الذين اشكلوا على سياسته، قالوا أن أي ترك للواجب (دينياً كان أو سياساً أو عسكرياً) هو كفر وخروج عن الدين. وهذه عقيدة ازعجت الحكومات الاموية فيما بعد، لأن حكام تلك الدولة لم يكونوا ملتزمين بالقرآن وباحكام الاسلام، فهم بناء على هذه النظرية كفار لا يصلحون للخلافة ورئاسة الحكومة الاسلامية.

لهذا شجّع الخلفاء الامويون على تشكيل نظرية اخرى باسم «الإرجاء» فكان دعاتها هم «المرجِئة» الذين يروجون لنوع من الجبر والحتمية ويحظون بدعم الامويين وتأييدهم. ومع أن الحسن البصري كان مؤمناً بالمصير أو التقدير الالهي، الا انه عارض الجبر بشدة، وكان يعتقد بالارادة والاختيار الانساني التام، مصطفاً في ذلك قبالة

«القدرية» أو الجبريين والمرجئة. سياسياً، كان معارضاً لمعاوية والامويين ويعتبرهم جميعاً ظلمة وفاسقين، ويقول أن الامويين الذين يسفكون دماء الناس بالباطل ويسلبون اموالهم عنوة، وينهبون بيت مال المسلمين، ولاينهون عن أي فسق، ويقولون أن «الافعال تقدير الهي ينبغى أن لايعارض» إنما هم كذابون واعداء لله وسوف يعذبهم الله «جزاءً بما كانوا يعملون».[١]

وتلاميذه من بعده، ومنهم معبد الجهني (توفي ٨٠ هـ / ٦٩٩م) وغيلان الدمشقي (١٢٥ هـ / ٧٤٣ م) اللذان انتقلا الى الشام، كانا يعارضان ايضاً نظرية الجبر والقدر التي يدافع عنها انصار الامويين، وقد أُعدما لهذا السبب.

ولقد كان للحسن البصري تلميذ آخر هو «واصل بنعطاء» (توفي ١٣١هـ/٦٩٩ م) اختلف مع استاذه حول احدى المسائل فانفصل عنه واقام لنفسه حلقة دراسية مستقلة، لذلك يعد في التواريخ المؤسس الاول والرسمي لفرقة «المعتزلة» فيما يعتبر الحسن البصري مؤسس علم الكلام غير الشيعي، رغم انه يعد من اتباع الامام علي(ع).

واذن، يتوزع تيار الفكر الفلسفي الناجم عن العقائد الاسلامية ـ الذي سمي تالياً علم الكلام ـ الى أربع شعب[٢] اصبحت خمساً بعد انشقاق ابي الحسن الاشعري:

١. الشيعة اتباع الإمام علي(ع) وهم الحماة الحقيقيون لاسرار القرآن وتفسيره.

---

١) الواقعة / ٢٤.

٢) كانت المدارس الكلامية والفقهية كثيرة في القرون الاسلامية الاولى، الا أنها انمحت تدريجياً، اما المدارس الكلامية التي بقيت على مر التاريخ الاسلامي بموازاة بعضها أوعلى الضد من بعضها فهي اولاً الكلام الشيعي، وثانياً الكلام الاشعري. وفي القرون الاخيرة، لاسيما في اطار المدرسة الشيرازية، استطاع الكلام الشيعي بصبغته الفلسفية ان يستقطب الاشعرية ويهمّشها. أما المدارس الفقهية في القرون الاسلامية الاولى، فقد تقلّصت هي الاخرى الى المدرسة الفقهية الشيعية (المعروفة بالفقه الجعفري نسبة الى الامام جعفر الصادق(ع) والمدارس (أو المذاهب) الاربع: الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية.

٢. الخوارج، وهم جماعة سياسية مناهضة للسلطة، بل هي مناهضة للسلطة بشكل اساسي (أي أنها فوضوية).

٣. انصار الامويين والخلفاء، وهم المحظيون بدعم السلطة.

٤. المعتزلة الذين يجوز اعتبارهم فلاسفة ظهروا تلقائياً بعد الاسلام.

٥. الاشاعرة، وهم منشقون عن المعتزلة سرعان ما اتخذوا مواقف مضادة لهم، ولأنهم تماشوا مع سياسات الخلفاء الحاكمين خلافاً للمعتزلة والشيعة، فقد حظوا بدعمهم وتشجيعهم، وكانوا اصحاب مكانة افضل وانصار اكثر في معظم فترات التاريخ وحتى بعد انقراض سلالات الخلفاء.

مع زوال آثار فئتي المرجئة (القدرية) والخوارج، وخروجها عن صفوف اصحاب الكلام، تلخّص تيار الفكر الكلامي بعد ذلك في ثلاث فئات، وسنلاحظ ان تيار الفكر المعتزلي لم يستمر لاكثر من قرن فانقرض لعدة اسباب، وما يمكن تسميته علم كلام كان إما كلاماً شيعياً له قواعد استدلالية أمتن وأرصن، وإما كلاماً أشعرياً وهو الكلام غير الشيعي الوحيد.

ما ينبغي التنبه اليه من زاوية تاريخية والحيلولة بواسطته دون الاخطاء المتعمدة وغير المتعمدة للباحثين غير المسلمين، هو الفاصلة بين الكلام الاسلامي الخالص والكلام الممزوج بفلسفات ما قبل الاسلام، والذي ظهر بعد ترجمة الكتب الفلسفية عن السريانية واليونانية.

لا مراء أن ترجمة الكتب الفلسفية عن السريانية واليونانية الى العربية في زمن الخلفاء، أخضع علم الكلام وبشدة لتأثيرات الفلسفة اليونانية بل ولسطوتها، بيد أن هذا لم يحصل الاّ في مستهل القرن الثالث الهجري إبان خلافة المأمون العباسي.[1]

---

١) مع انهم يعتبرون بداية ترجمة الكتب السريانية واليونانية في زمان المنصور أحد

وبالتالي، يجوز القول ان فترة قرن ونصف القرن عن البحث والدراسة والتأليف في معارف القرآن وقضاياه الفلسفية قبل عهد الترجمة، هي ما يمكن تسميته بفترة «الكلام الاسلامي الخالص» البعيد عن مصطلحات الفلسفة اليونانية ومفاهيمها. أما علم الكلام الذي تلا الترجمة فهو «علم الكلام غير الخالص». ولهذا يصر معظم الباحثين الغربيين على ان الكلام الاسلامي وليد الفلسفة اليونانية والاسكندرانية، وهذا خطأ وتهافت لا يخلو من عصبية عرقية ودينية وقومية.

قلنا أن الكلام الاسلامي كان في بدايته حركة فكرية وفلسفية خالصة مستقاة من القرآن، ومصطلحاته هي نفسها المصطلحات القرآنية المألوفة في البلاد الاسلامية، ولكن بعد شياع الفلسفة اليونانية، اختلط هذان التياران كنهرين أحدهما مالح والآخر عذب، فأوجدا علم الكلام المصطلح، مع ان جهود الحكيم نصيرالدين الطوسي اسفرت اخيراً عن خلع اللبوس الفلسفي على علم الكلام.[1]

حول اسباب ومحفزات ما يسمى بنهضة الترجمة في زمن العباسيين، طرحت بعض الآراء والتصورات، لكننا لو أردنا التبصر بالمحفزات الداخلية والعميقة لها، لوجدنا ان أحد عواملها ودوافعها المهمة هو مواجهة الخلفاء العباسيين لأهل البيت (والامام جعفر الصادق(ع) المزامن للمنصور، والامام الرضا(ع) المعاصر للمأمون) وافتتاح دكان يختطف انظار المفكرين والمتكلمين آنذاك ليصرفهم عن هذه الشخصيات المبرزة الذين اعتبروهم أهم منافسيهم السياسيين ذوي السمعة الحسنة، واشغال الناس بسلسلة من المباحث النظرية.

مؤسسي الدولة العباسية، الاّ ان هذا الخليفة لم يكن ذا رغبة في الحكمة والمنطق، وكان يرمي الى ترجمة كتب الطب اليونانية التي ذاع صيتها في الآفاق، وبالدرجة الثانية كان يهتم بكتب النجوم وأحكام التنجيم وقراءة الطالع.

١) وهذا ما سنتناوله في مظانه.

المحفز الآخر الذي ساعد ذلك العامل السياسي الاول، هو الاهداف التي كان يرمي اليها المترجمون المسيحيون الذين وجدوا هذا المشروع مفيداً لمواجهة الاسلام والنيل من محورية القرآن والكلام الشيعي، وليس من قبيل الصدفة أن يكون اغلب هؤلاء المترجمين رجال دين نصارى ومبشرين بالنصرانية في بلادالمسلمين.

وبكلمة ثانية، لم تكن ترجمة الكتب اليونانية والسريانية الى العربية في زمن العباسيين حدثاً طبيعياً اتفاقياً يراد منه طلب الحكمة والعلم، انما كانت له منطلقاته السياسية، وقد كان الخلفاء العباسيون ـ لاسيما المأمون ـ يستفيدون عن وعي من غير المسلمين، ومن غير الايرانيين غالباً، ومن الاساقفة والقساوسة المسيحيين على وجه الخصوص. لذلك نرى ان غالبية الكتب الفلسفية التي ترجمت هي من كتب ارسطو، إذ أن الرؤية العرفانية والاشراقية الافلاطونية والافلوطينية قريبة من المدرسة الشيعية، ولهذا انتفع منها الاسماعيليون بعد ذلك.

كان المأمون العباسي مؤيداً للمعتزلة، والظاهر انه توخى من مشروع الترجمة تعزيز مواقفهم، الا أن غايته الاصلية هو ضرب الامامية والزعامة الفكرية والعلمية لأهل البيت، بل انه بذريعة اقامة حوارات دينية حرة، كثيراً ما جمع بين امام الشيعة الثامن علي بن موسى الرضا(ع)، وبين جهابذة علماء الاديان والمتكلمين يومذاك، عسى أن يقلل من شأن الامام، رغم ان النتيجة الفعلية كانت بعكس ما اراده، فقد شهد التاريخ أن الامام الرضا(ع)، خرج منتصراً من جميع تلك المناظرات.

اياً كان، تركت ترجمة الكتب الفلسفية اليونانية والسريانية بصماتها على الفكر الاسلامي، وكما سنذكر أدت هذه الحركة الى تغييرات بنيوية في شتى المذاهب الكلامية الاسلامية.

كان المعتزلة اكثر من تأثروا بالفلسفة اليونانية، فغدا علم الكلام الاعتزالي خليطاً فيه عناصر من القرآن والحديث والمنطق وآراء الحكماء ماقبل سقراط والمشائين.

ويعد النّظام (المتوفي ٢٣١ هـ) وابوالهذيل العلّاف (المتوفي ٢٣٢ هـ) من الاقطاب المعروفين، وطليعة صفوف المعتزلة بعد اختلاط الكلام الاسلامي بالفلسفة اليونانية، حيث تلمح في آرائهم بصمات وآثار الفلسفة اليونانية.

ومن رموز المعتزلة الآخرين يمكن الاشارة الى هشام بن عمرو الفوطي (٢٢٦ هـ) وابي علي الجبائي (٣٠٣ هـ) وابنه ابي هاشم الجبائي (٣٢١ هـ) والجاحظ عمرو بن بحر (٢٥٥ هـ) والشحّام (٢٣٢ هـ) وعبّاد بن سليمان (٢٥٠ هـ) وكلهم من معتزلة البصرة، وهناك ايضاً بشر بن المعتمر (٢١٠ هـ) وثمامة بن أشرس (٢١٣ هـ) وابوموسى مردار (٢٢٦ هـ) وجعفر بن مبشر (٢٣٥ هـ) والاسكافي (٢٤٠ هـ) وابوالحسن الخياط (٢٨٩ هـ) وابوالقاسم البلخي الكعبي (٣١٩ هـ) والقاضي عبدالجبار (٤١٥ هـ) وهم من معتزلة بغداد.

هذه التأثيرات الشديدة للفلسفة المشائية (وماقبل السقراطية احياناً) في المتكلمين المعتزلة، أدت الى ردود فعل شديدة من المحدثين والمتعصبين غير الشيعة، تمادت حتى الى تكفير المعتزلة والشيعة في بعض الاحيان.

خلافاً لما جاء في تعريف علم الكلام أنه «علم الدفاع عن الشريعة» فإنه لم يكن للدفاع عن الشريعة، انما هو كما اسلفنا عبارة عن بواكير انبثاق الفلسفة الاسلامية، لذلك ربما لم ينطبق احياناً مع ظواهر الشرع. ومن هنا ينبغي اعتبار المذهب الاشعري ـ وهو انشقاق عن المعتزلة واعتزال لهم ـ ردة فعل ازاء المناحي اللادينية في المذهب الاعتزالي. ولهذا لم تمض فترة طويلة حتى طاب الكلام الاشعري في مذاق أهل الحديث، وتبلور بوصفه الجبهة المنافحة عن الشريعة الإسلامية.

من جهة ثانية استساغ معظم الساسة والخلفاء نكهة الكلام الاشعري، لذا نجد أن أهل الحديث والاشاعرة احتلوا في بلاط الخلفاء العباسيين مكان المرجئة في بلاط الامويين، وتولوا مهمة الدفاع عن سياسة الخلفاء والامراء.

لقد استعان خلفاء بني العباس بهذه المدرسة لمجابهة الخلفاء الفاطميين

وانصارهم أي الاسماعيلية والباطنية، وفي الواقع لمجابهة اهل البيت وسلسلة الأئمة الشيعة، وكان نظام الملك الطوسي وزير السلاجقة وهو من أعدى أعداء الاسماعيلية والفاطميين في مصر، يدعو متكلمين اشاعرة معروفين من قبيل ابي المعالي الجويني (المعروف بإمام الحرمين ٤١٩ - ٤٧٨ هـ) والغزالي لتدريس الكلام غير الشيعي في المدارس النظامية ظاهراً، وفي الحقيقة لمواجهة الاسماعيلية والشيعة، واخيراً جعل المذهب الاشعري رسمياً واجبارياً ووحّد بينه وبين الفقه الشافعي والسني.

الكثير من المتكلمين الاشاعرة كانوا من الفقهاء والمحدثين المالكيين أو الشافعيين والحنابلة، وربما تولوا منصب القضاء، واذا كان ثمة في السابق تعارض بين المحدثين، لاسيما الحنابلة، والمتكلمين الاشاعرة، فإنه تعارض آل اخيراً الى الصلح والصداقة، وطفق الاشاعرة يدافعون عن الحشوية والاخبارية.

على أن مسار العلوم العقلية (والكلام الاسلامي كما في الظاهر) اعتورته تعقيدات ومنعطفات كثيرة ومتنوعة، فالشيعة الذين بقوا على شكل اقلية تضطهدهم اجهزة الخلفاء بلارحمة، بل وتدسّ السم لأئمتهم سراً وتقتلهم، اضطروا الى ترتيب تشكيلات وتنظيمات معقدة تستلهم فكرها العقيدي والكلامي من القرآن والسنة عن طريق ائمة اهل البيت(ع)، ولها فقهها المستقل، واسلوب حياة سياسية واجتماعية مميزة، حتى تستطيع الحفاظ على حياتها والنهوض بالمهمة التي ألقاها الرسول الاكرم(ص) على عاتق خليفته علي بن ابي طالب(ع) وخلفائه الأحد عشر من بعده، وتثمير هذه الشجرة ورعايتها.[١]

ينبغي تحري هذه المواقف الشيعية في التحولات السياسية والاجتماعية لتلك

---

١) كان علي بن ابي طالب(ع) الخليفة المباشر للرسول الاكرم(ص) بحسب حادثة غدير خم ونصها الصريح، وقد اشار الرسول في سنته صراحة الى الائمة الاحد عشر من نسل الامام علي، لكن بعض المحدثين غير الشيعة لايوافقون ذلك.

الحقبة التاريخية. لم يكن عامة الناس ـ باستثناء الساكنين في دمشق عاصمة الامويين، بعيداً عن مركز الوحي والرسالة، وتحت الضغوط الدعائية لاجهزة معاوية ـ راضين عن خلفاء بني أمية، بل موتورين منهم ومستعدين للثورة عليهم. وكان المحور الوحيد الذي يتفق عليه الناس هو «أهل البيت» أي سلسلة ائمة الشيعة، أو ما عرف آنذاك بـ «الرضا من آل محمد». وقد انتهزت جماعة من ابناء عمومة اهل البيت ـ عرفوا لاحقاً بالعباسيين وأسسوا دولة وخلافة لهم ـ حاجة الناس هذه سياسياً وعسكرياً، وألّبوا الناس في خراسان، أبعد مناطق الامبراطورية، ضد الحكومة المركزية، ونجحوا أخيراً في القضاء على الامويين.

الخطوة التالية التي بادر اليها العباسيون هي التظاهر بأنهم ورثة الرسول أو «الرضا من آل محمد» وقمع آل علي(ع). وكان امام الشيعة السادس جعفر بن محمد الصادق(ع) الذي عاش في ذلك الزمان وكان مرشحاً لتولي الخلافة والحكم، هدفهم الرئيس والخطر الاكبر الذي يهددهم.

لهذا تعرض الائمة واتباعهم بعد ذلك لمزيد من الضغوط والقمع والاخطار، وقد اضطر الشيعة الذين كانوا يستعدون لاقامة حكومة اسلامية على غرار حكومة الرسول الاكرم(ص) والامام علي(ع)، الى انتهاج التنظيم السري والنشاط الخفي.

كان للامام جعفر الصادق(ع) عشرة من الاولاد والبنات اكبرهم «اسماعيل» الذي كان مقرباً الى أبيه جداً ومحباً له وقد تتلمذ عليه فأحرز منه العلوم ذات الصلة بوحي الرسول(ص) والتي كانت تسمى «الحكمة» في العالم القديم. ورغم انه توفي شاباً وفي حياة والده، ولكن من غير المستبعد أن يكون قد ساهم في الترويج السري لتلك العلوم الخفية، أو في التفسير الباطني والفلسفي والعرفاني للقرآن، وأن يكون له تلاميذ وخواص، وأن يكون أمين سر أبيه فيما يتعلق بتنظيمات الشيعة السرية.

ومع ان المنصب الرسمي لامامة الشيعة كان من نصيب الامام الكاظم(ع) بعد

موت اسماعيل، الا ان نجل اسماعيل ويدعى محمداً وهو من ورثة علوم الامام الصادق(ع) وابيه اسماعيل حافظ على مدرسة أبيه وجده. ولابد من التدقيق والتعمق في هذا الطور من تاريخ الشيعة، لأن وثائقه التاريخية مشوشة وغامضة، وبسبب حساسية الظرف ومافرضته الخلافة العباسية آنذاك من احوال جد عصيبة على أهل البيت والعلويين، حيث كانوا يتعقبون علاقاتهم وارتباطاتهم السرية بكل دقة وتشدد ـ ناهيك عن علاقاتهم الظاهرية ـ يمكن تشبيه تلك الحقبة بأشد الحكومات بوليسية في زماننا.[١]

لقد جاء في التواريخ ان نجل اسماعيل[٢] لم يرضخ لامامة الكاظم(ع)، بل أوجد الفرقة الاسماعيلية، غير أن التبحر في تحليل الاحداث التاريخية يدلنا على أن هذه الإدعاءات ذاتها كانت جزءاً من اجراءات التنظيم السري للشيعة، وسنرى كيف ان

---

١) جاء في التواريخ انه كان هناك في كل الطرق والجادات بين المدن جنود يفتشون الرسل ويلقون القبض على العلويين، وفي المدن كانوا يضعون العيون والمخبرين على منازل الائمة والعلويين، بل جاء انهم كانوا يراقبونهم من على جدران وسطوح الجيران، واحياناً كان جنود الخليفة يقتحمون منزل الامام أو منازل اصحابه في ساعة متأخرة من الليل للعثور على اسلحة أو وثائق تدل على تحركات عسكرية أو سياسية معادية للخلافة، ويأخذونهم في أي حال كانوا عليها الى الخليفة للتحقيق معهم واستجوابهم. وردت في كتب التاريخ العامة والتواريخ الخاصة بهذه الدولة اخبار هذه الضغوط والاساءات والقساوات والتعذيب، وقد كتب المؤرخون ان الخلفاء كانوا يدفنون العلويين بين الجدران وتحت اعمدة القصور، أو يقتلونهم في السجون تجويعاً وتعذيباً.

٢) بعد اسماعيل بن جعفر تولى ابنه محمد بن اسماعيل ابن اخ الامام الكاظم(ع) ادارة التنظيم السري للشيعة (الذي سمي فيما بعد الاسماعيلية والباطنية والقرامطة). روى البعض انه وشى بالامام الكاظم(ع) لدى الخليفة هارون الرشيد، ومات بعد ذلك مباشرة بشكل مفاجئ، ولكن هذا الخبر غير صحيح لأن محمد بن اسماعيل عاش الى ايام المأمون، وكما جاء في مقاتل الطالبيين لأبي الفرج، وعيون ابن بابويه، والارشاد للمفيد، فإن الذي وشى بالامام الكاظم هو ابنٌ آخر من ابناء اسماعيل اسمه علي. راجع: قاموس الرجال، ج ٨، ص ٦٤).

الشيعة الامامية الاثنى عشرية كانت دائماً مواكبة للاسماعيلية في الشؤون السياسية وترمي الى نفس اهدافها.

كان ائمة الشيعة مكلفين بالنهوض والثورة في أقرب فرصة مناسبة، وكلمة «اذا قام قائمنا» الواردة في الروايات الشيعية لها معنى أعم من قيام الامام الثاني عشر. من جهة أخرى تم قمع ثورات علوية اندلعت سابقاً مثل ثورة زيد ابن الامام الرابع (السجاد(ع)) وثورات الحسنيين (محمد ذي النفس الزكية واخيه ابراهيم) مما ضاعف المشكلات والحساسية، وكان مقتضى السياسة وبعد النظر تحكيم مرتكزات العمل السياسي، وان تكون كافة التنظيمات والانشطة مستورة وسرية تماماً.

يبدو أن الامام الحقيقي في هذا التنظيم كان مسؤولاً عن بيان الاحكام الظاهرية والرد على الشبهات والمسائل ورواية الاحاديث للشيعة، أما الشئ الذي سمي لاحقاً بالعرفان والحكمة الايمانية أو الفلسفة الاسلامية، مضافاً الى التفاسير العرفانية والرمزية للقرآن، وبيان تأثيراته الحروفية والعددية، وتدريس العلوم الخفية (كعلم الحروف والاعداد والجفر وما الى ذلك) فكان من مهمة الممثل الموثوق للامام وابن اخيه. ولعل هذا الاسلوب أسهم في ان تكون الاسماعيلية الذراع العسكري والحزبي والسياسي لأهل البيت والتشيع، والجماعة التي صرفت ضغوط الخلفاء عن الامام الاصلي نحوها، وجعلها من جهة أخرى الفئة التي درّست واشاعت حكمة اهل البيت، وهي الحكمة التي تعذر على الامام الحقيقي في معظم العصور والادوار اعلانها وتعليمها للناس.

* * *

واذا عدنا الى تاريخ العلوم العقلية لدى الشيعة، قلنا أن الباحث في تاريخ الفلسفة لايستطيع حيال هذه الظروف السياسية والاجتماعية البالغة التعقيد والغاصة بالعناصر والمكونات الخفية، أن يتتبع بسهولة المسار الحقيقي للكلام أو الفلسفة عند

الشيعة. ولكن يتسنى من خلال نظرة تحليلية دقيقة الاعراب عن مسار الحكمة والعلوم عندالشيعة ـ الكامنة الجذور في التنظيمات السياسية والاجتماعية الخفية ـ بالقول أن أمواج الغزو الثقافي اليوناني التي تدافعت على مجتمع المسلمين تحت طائلة النهضة العلمية والثقافية لترجمة الكتب الفلسفية والعلمية اليونانية والسريانية، وافرزت المعتزلة المتأخرين أي المتكلمين ذوي النزعة الفلسفية، ومن جهة اخرى ظهور ردود الفعل ازاء هذا التيار على شكل مذهب كلامي اشعري وفرقة أهل الحديث الحنابلة المتعصبين في تلك الآونة، أدى كل هذا الى أن تتعامل مدرسة الشيعة الامامية بنحو آخر مع تلك الاحوال، وينبغي دراسة حصيلة ذلك التعامل ضمن أربعة فروع مستقلة (الكلام الشيعي، والعرفان أو النزعة الباطنية، والتصوف أو الاشراق، والفلسفة المحضة) يصار الى الربط بينها في نهاية المطاف.

* * *

٢ ـ ١. الكلام الشيعي

خلافاً للمعتزلة لم يتأثر الكلام الشيعي تأثراً كبيراً من دخول الفلسفة والمنطق الى العالم الاسلامي (باستثناء بعض المصطلحات اليونانية) ولم يضيّع طريقه الصحيح الى غيره، وذلك بفضل ومعونة أحاديث ائمة اهل البيت(ع). وفي مقارنة للكلام الشيعي بالمدرستين المعروفتين الأخريين، من المتاح اعتباره نقطه اعتدال بين الاشاعرة والمعتزلة، والحد الوسيط بين تلكم المدرستين.

على سبيل المثال، اعتبر الاشاعرة صفات الله زائدة على ذاته، بينما لم يذهب الشيعة الى مثل ذلك شأنهم شأن المعتزلة، لكنهم في الوقت ذاته لم يجاروا المعتزلة في التفويض المطلق بخصوص افعال البشر، ومع أنهم لا يؤمنون كذلك بـ «الكسب» الذي قالت به الاشاعرة، الا أنهم رأوا الفعل الاختياري والارادي للبشر فعلاً للباري عزوجل

ضمن السلسلة الطولية لمبادئ الفعل، ورفعوا شعار «لاجبر ولاتفويض بل أمر بين أمرين»[1] وهذا ضرب من التوسط وتحاشي الافراط والتفريط في معرفة الله، تأتّى ببركة حديث أهل البيت وتعاليمهم.

ومثال آخر هو أن المعتزلة تؤمن بالعدل الالهي، وترى افعال الله خيراً وحسناً ذاتياً، وقد قالوا بما أن الله عادل إذن ينبغي ان لايصدر عنه فعل الشر أو الظلم. وقد وافقت الشيعة هذا الرأي وآمنت بالعدل والحسن والقبح الذاتيين خلافاً للاشاعرة الذين انكروا العدل والحسن والقبح الذاتيين للافعال، ولم يروا لها من قاعدة تكوينية سوى المشيئة الالهية.

مع أن الاشاعرة ترى خلافاً للمعتزلة ان افعال الله لا تستند الى اي غرض أو غاية، بيد أن الشيعة تؤمن ان الافعال الالهية لها غايات بحسب طبيعة كل فعل حكيم، لكن هذه الغاية أو الغرض ليس لاستكمال الذات الالهية أو دفع الضرر عنها، انما هو بمعنى الفيض الابدي الأزلي من الله وغايته في العلم الالهي هو ارادة الخير والصلاح للبشر.

للشيعة قواعدهم أو مبانيهم الخاصة التي لايرى لها نظير في أي من المدارس الكلامية الاخرى، ومنها مثلاً «الامامة» حيث يعتقد الشيعة أن الامامة أو الولاية (أو بعبارة فلسفية: حكومة الحكيم الالهي المعصوم) من فروع أصل النبوة، وأن غاية كل نبوة إقامة حكومة شعبية عادلة، ومن واجب كل نبي فضلاً عن حمل الرسالة وتبليغ الشريعة والوحي، أن يحكم قومه ويدير شؤون امته ويدبرها.[2] ومن مميزات الكلام الشيعى الايمان بـ«البداء» لله تعالى، فكما يستطيع الله نسخ القوانين والشرائع التي يبعثها،

---

١) حديث.

٢) هذه العقيدة والنظرية موجودة بالضبط في حكمة الاشراق القديمة.

بوسعه في عالم الطبيعة ايضاً تغيير قوانين الطبيعة وسننها، وقد تم اثبات وبرهنة هذه المسألة بنحو رصين في فلسفة المتأخرين، ومنها الحكمة الايمانية للميرداماد والحكمة المتعالية لصدرالمتألهين.

لم تعترض مسار علم الكلام الشيعي كثير من المنعطفات والتقلبات، فباستثناء بضع حوادث صدرت عن الحكومات، لم يشهد هذا العلم احوالاً اجتماعية عسيرة، الا ان موضوع الامامة والولاية اختلق الاحداث للشيعة دوماً وفرض عليهم الكثير من الصعوبات والويلات على طول الخط. وهو موضوع لايعده الشيعة حقوقياً وفقهياً فحسب، بل يرون له ابعاداً اصولية وعقيدية، ويؤكدون ان حكومة المسلمين بحسب النص والعقل مختصة بالائمة الاثني عشر من أهل البيت(ع)، وبالتالي فهم لايعتبرون بني العباس المفتقرين لشروط الحكومة والمنسلخين عن التقوى والعصمة والتدبير والحكمة، جديرين بالحكومة، انما هم حفنة من المغتصبين و«الانقلابيين» حسب التعابير السياسية المعاصرة.

شهد علم الكلام الشيعي طوال القرون الاسلامية الاولى، ظهور متكلمين مشهورين وفطاحل منهم هشام بن الحكم، ومؤمن الطاق، وهشام بن سالم، ويونس بن عبدالرحمن، والفضل بن شاذان، وآل النوبختي (الفضل، اسحاق، على بن اسحاق، ابوسهل اسماعيل، حسن بن موسى و... الخ).[1]

ظل هذا الفرع من علم الكلام بمعزل عن الطابع الفلسفي الى زمان نصير الدين الطوسي، ولايبدو ان متكلمي الشيعة الاوائل كانوا على معرفة بالفلسفة السريانية

---

۱) ثمة متكلمون معروفون آخرون مثل ابن مسكويه، وابن قبه، والشيخ المفيد الملقب بأبن المعلم (المعاصر للباقلاني) وتلميذه السيد المرتضى (المعاصر للاسفرايني) وتلميذهما المشترك اي الشيخ الطوسي... عاشوا كلهم قبل نصير الدين الطوسي.

واليونانية، ولكن كما سنرى، أفرغ نصيرالدين الطوسي باسلوبه الخاص علم الكلام من محتواه القديم الضعيف، وزيّنه بأعمق المسائل الفلسفية، ومن بعد ذلك اختلط علم الكلام المعتزلي والاشعري بالكلام الشيعي، واكتسى صورة جديدة.[١]

النقطة المهمة هي أن الكلام التشيعي ـ إذ حافظ على الجانب العقلي والفلسفي ـ لم ينأ اطلاقاً عن القرآن والحديث، ولهذا ترك اثراً متقابلاً في الفلسفة، وقرب الفلسفة الاسلاميةِ من النصوص الاسلامية (القرآن والحديث) الى درجة ان الحكمة المتعالية ـ أي مدرسة صدرالمتألهين المعروفة ـ طرحت العقل والوحي كعنصرين غير منفصلين وغير مختلفين، بل ويصدران عن ينبوع واحد ويسيران في جادة واحدة.

الكلام الاشعري ـ الذي كان المنافس الوحيد للكلام الشيعي ـ آل رويداً رويداً من القرن الخامس والسادس للهجرة الى الافول على يد الغزالي وفخر الدين الرازي، واقترب في معظم المسائل (فيما عدا الامامة وموضوعات اخرى) من الكلام الشيعي، الى أن اتحدا تماماً في مدرسة شيراز ولم يبق بينهما فرق يذكر.

الفلسَفة عِنْد الشّيعة[٢]

كانت ترجمة الكتب اليونانية والسريانية الى العربية، وهي تضم كل فروع الحكمة يومذاك (الالهيات، المباحث الراقية في الفلسفة، المنطق، الرياضيات، الطبيعيات، الطب، والنجوم) بمثابة تدوين موسوعة كبرى تحتوي بين دفتيها كل الموضوعات المذكورة اعلاه بصورة متفرقة، حتى انه لم يجر التمييز بصورة دقيقة بين

---

١) سنتطرق لهذا في القسم الخاص بمدرسة شيراز في القرنين التاسع والعاشر للهجرة.

٢) كما سنرى في هذا الفصل، لم تتوزع الفلسفة الى شعبتين: شيعية وغير شيعية، وما عنوان «الفلسفة عند الشيعة» الا لمراعاة نسق البحث الذي يدرس مسار العلوم العقلية لدى الشيعة.

المدارس الافلاطونية والارسطية والاسكندرانية، وربما لهذا السبب اشتهر كتاب التساعات لافلوطين باسم الالهيات (اثولوجيا) لارسطو.

إن دراسة سير مترجمي هذه الكتب ـ وحتى الكندي الذي يسمى فيلسوف العرب ـ لا ترشدنا الى كونهم كانوا حكماء أو فلاسفة، انما تدل الآثار المتبقية عنهم انهم كانوا في الحقيقة موسوعات تروي الفلسفة وعلومها التابعة لها، وكان لكل واحد منهم مدرسة في احدى المدن العربية والايرانية وحران وربما انطاكية، يدرسون فيها الكتب المترجمة.

أما اول شخص عمد في أواخر عمره الذي امتد ثمانين سنة، الى تخطي تفسير الكتب الفلسفية، وكان حكيماً تقليدياً أو فيلسوفاً مصطلحاً، فهو ابونصر الفارابي. اعتبروه خراسانياً، وابن قائد عسكري من الفرس القاطنين اقليم خراسان، وكان الأب يعمل في خدمة السامانيين في فاراب تركستان، وقد ولد ابنه ابونصر الفارابي هناك، لهذا عرف بالفارابي (واحتمل البعض أن تكون فاراب هذه غير فارياب في تركستان الحالية). أصاب تربية جيدة نظراً لترعرعه في احضان عائلة اصيلة ربما لم تكن عديمة الثراء. تتلمذ ـ كما قال البعض ـ على يد يوحنا بن حيلان المسيحي النسطوري الذي يحتمل انه سكن مرو ثم انتقل بعدها الى بغداد.

قضى الفارابي شطراً من عمره في البحث واستكمال العلوم النقلية ببغداد، ومع انه كان قريب السن من متي بن يونس، الا ان البعض اعتبروه تلميذه في المنطق.

نزع الحكيم الفارابي غالباً الى المدرسة الاسكندرانية (مدرسة الاشراق الافلوطينية)، ولكن يبدو انه وكغيره من مفكري ذلك العصر، لم يتنبه الى المغايرة التامة بين هذه المدرسة والاشراق الافلاطوني وبين المدرسة المشائية، فنظر اليها جميعاً بعين واحدة، ولهذا عكف على شرح كتب ارسطو ايضاً، بل وحاول في رسالته «الجمع بين

الرأيين» التوفيق بنحو من الانحاء بين الآراء المتضاربة لافلاطون وارسطو.

ورث آثار الفارابي، الحكيم الفذ الشيخ الرئيس (رئيس الفلاسفة) ابن سينا الذي انبرى بدل شرح كتب ارسطو وتفسيرها ـ وكانت المدرسة الارسطية آنذاك محور الفلسفة، والمدرسة الوحيدة السائدة ـ الى ارساء دعائم فلسفة عميقة تراعي القواعد الاسلامية، فوضع حجر الزاوية للفلسفة الاسلامية الحالية التي عرفت باسمه «الفلسفة السينائية».

رغم انه اشتهر بالفيلسوف المشائي، ووضع كتابه ذائع الصيت (الشفاء) ـ وهو دورة كاملة في الحكمة الالهية، والرياضيات، والطبيعة، والمنطق ـ على اسلوب المشائين، الا انه اطلع ايضاً على ما ترجم من نصوص الحكمة الاشراقية الاسكندرانية، ومن الجائز ان يكون قد أفاد الكثير من تراث الحكمة الايرانية العريق الذي وجده في مكتبات العوائل الايرانية المعروفة، وفي مكتبة الامير الساماني ايضاً، فوضع اخيراً كتابه «حكمة المشرقيين».

خلافاً لعلم الكلام الذي يسهل تشعّبه الى مذاهب ومدارس، وقد تفرّع الى كلام شيعي وآخر غير شيعي، لم تكن طبيعة الفلسفة تسمح لها بالاصطباغ بطابع شيعي أو غير شيعي، ومع أن ابن سينا كان شيعياً اماميا ذا معرفة جيدة باعمال الاسماعيلية ورجالهم في حقول العلم والسياسة، الا ان مثل هذه النزعة لا تلاحظ على مدرسته، انما تتسم فلسفته بالاطلاق والشمولية العالمية.

يتصف مسار الفلسفة الاسلامية بعد ابن سينا بالوضوح والجلاء، فهو في غنى عن الايضاح. وكما ذكرنا مراراً، رغم صدامها الشديد مع الحكمة الاشراقية (السهروردي وتلاميذه) من جانب، ومع التصوف والعرفان الاسلامي من جانب آخر، وكذلك الجبهة المعارضة من علماء الكلام والمتكلمين الاشاعرة مضافاً الى اهل

الحديث واهل الظاهر، بيد أن الفلسفة الاسلامية تابعت مسارها الى أن استقر بها المقام اخيراً في افكار نصيرالدين الطوسي ومدرسته.

من المناسب أن ندرس مسار حكمة الاشراق بشكل مستقل والى جانب المذهب الباطني، ونفصل حساباتها عن حسابات الفلسفة المشائية التي احتلت بين المسلمين تالياً مكان الفلسفة على وجه الاطلاق.

الباطنية الشيعية

على الضد من المسار البسيط للتيارين الشيعيين السابقين أي الكلام والفلسفة، كان تيار المذهب الباطني شديد التعقيد والصخب، وقد رسم مصير العديد من الاحداث والانساق السياسية والاجتماعية، ومر بموازاة الكثير من احداث التاريخ.

اشرنا الى ان الاسلام لم يقتصر على الرؤية الكونية واصول العقيدة وحقوق الانسان المدنية والجزائية، انما هو الى جانب ذلك مدرسة فلسفية لها عناصرها الدقيقة والراسخة والمتعالية، وموضوعات يعجز عامة الناس عند ادراكها.[١]

---

١) مثلاً ورد في حديث ان النبى هو اول المخلوقات (وفي هذا ومضات عرفانية واشراقية ممكنة المقارنة مع العقل الاول لدى افلوطين والنور الاول في الاشراق الايراني القديم) بينما نجد في حديث آخر أن المخلوق الاول هو العقل. وادراك مثل هذه الاقوال والاحاديث فلسفياً متعذر على عامة الناس.

وفي القرآن والاحاديث تعابير جد دقيقة حول ذات البارى واحديته، لايطيق تحليلها إلّا القلة من الحكماء، فمثلاً ورد في حديث للامام علي(ع): (ما وحّده من كيّفه، ولاحقيقته أصاب من مثّله، ولاإياه عني من شبّهه، ولاصمّده من اشار اليه وتوهّمه، كلّ معروف بنفسه مصنوع، وكلّ قائم في سواه معلول. فاعلٌ لاباضطراب آلة، مقدِّر لابجول فكرة، غني لاباستفادة، لاتصحبه الاوقات، ولاترفده الادوات، سبق الاوقات كونه، والعدم وجوده، والابتداءَ ازلُهُ...) (نهج البلاغة، خطبة ١٨٦).

وثمة احاديث اخرى في معرفة الله فلسفياً وردت عن الامام علي(ع)، وسائر اهل البيت،

بمستطاع المسلم المفكر الباحث عن الحكمة، ومن دون أي حاجة الى معرفة المدارس الفلسفية الاخرى، الوصول عبر تعلم دقائق القرآن والحديث وسبر اغوارهما والتمكن من لغتهما الخاصة، الى نظام فلسفي لايقوم على الاشراق فقط بل على البرهان المنطقي أيضاً. كانت تعاليم الرسول(ص) واهل البيت(ع) بحيث تستطيع الاخذ بيد المسلم الموهوب وصاحب القابلية الى رحاب فلسفة متعالية (اطلق عليها فيما بعد اسم الحكمة الإيمانية أو الحكمة المتعالية) واحلاله محل فيلسوف حقيقي.

ان حيوات الائمة علي بن ابي طالب وابنيه ـ تولّي الخلافة والحكومة والاستشهاد في غمرة ما واجهوه من مشكلات سياسية ـ لم تسمح لهم كما حصل لابنائهم من بعدهم، أنْ ينشئوا تلاميذ ومدارس، كما ان الظروف الدموية العصيبة التي صاحبت خلافة بني امية ـ حيث كان انصار علي(ع) يقتّلون ويقطّع نسلهم ـ لم تكنْ ملائمة لتطور هذه المدرسة وازدهارها. بيد أن نهاية العهد الاموي وبواكير الحقبة العباسية، وفرت مناخاً سياسياً منفتحاً نسبياً، فاستطاع اثنان من ائمة اهل البيت هما محمد الباقر(ع) وابنه جعفر الصادق(ع) تخريج الطلاب والعلماء في غضون تلك الفترة القصيرة.[١]

وقد ذكرنا ان من تلامذة الامام الصادق(ع) البارعين ابنه اسماعيل رأس الفرقة الاسماعيلية، وقد خلفه من بعده ابنه الذي مزج بين تعليم الفلسفة والعلوم الاخرى التي لم يطلع عليها الناس قبل ترجمة الكتب اليونانية، وبين الطابع السري لتنظيماته الخفية

تذهل معانيها كل فيلسوف وعارف، ولايعجز عن ادراكها العوام فقط، بل كثير من العلماء ايضاً.

١) تلميذه المعروف الآخر هو جابر بن حيان الذي يقول عنه القفطي (تاريخ الحكماء، ص ١٦٠) انه كان باطنياً ورأساً لمتصوفة مثل الحارث بن اسد المحاسبي وسهل التستري.

تحت الارض، والانشطة السياسة والاجتماعية لرجال فرقته. وقد اقتربت هذه التنظيمات لاحقاً من تجارب المغان الايرانيين القدماء والفيثاغوريين وتعرفت عليها، وانشأت اول منظمة سرية سياسية ـ فلسفية بعد الاسلام توخت الى جانب تدريس الحكمة النظرية، اقامة حكومة الحكماء ـ أي الحكومة الحقة ـ وممارسة الحكمة العملية بمعناها الصحيح، وعُرِفت باسماء من قبيل الباطنية والاسماعيلية والتعليمية، واسماء اخرى ذات طابع دعائي مضاد ومخرب.

ان دخول كتب الفلسفة والمنطق والعلوم الاخرى، وحركة الترجمة عن السريانية واليونانية الى العربية، والحرية الاكبر التي احرزها الايرانيون في زمن المأمون، لاسيما في أمر السلطة والحكم، كلها عناصر تركت تأثيراتها على معارف الفرقة الاسماعيلية، وجعلت بيان المعارف الاسلامية ـ التي دخلتها مفردات جديدة ـ أجزل وأسهل، وتحولت محافلهم السرية تدريجياً الى حلقات تدريس الفلسفة والمنطق والعلوم الرياضية والطبيعية والنجوم. وفي اواخر القرن الرابع الهجري (٣٧٣ هـ) فما بعد حيث مثّل اخوان الصفا هذه الحركة السياسية الفلسفية، كانت الاسماعيلية حتى في الظاهر رمزاً ونائبةً للفلسفة المشائية اكثر منها تابعةً وناشرةً للحكمة الاشراقية.

في حدود ٣٧٣ هجرية بدأت توزع رسائل اخوان الصفا في المدن المختلفة وعاصمة الخليفة ببغداد سراً، وهي في الحقيقة أول موسوعة للفلسفة والعلوم التجريبية انتظمت في ٥٢ رسالة ولم يعرف مؤلفها (أو مؤلفوها). اعتبرها لفيف من الباحثين حصيلة جهود مجموعة من الكتاب تألفت من: المقدسي ابوسليمان محمد بن معشر البستي، وابوالحسن علي بن هارون الزنجاني، وزيد بن رفاعة، وابوالحسن العوفي، ومحمد الشهرجوري المهرگاني (المهرجاني)، واذيع ان جماعة من المصلحين ومحبي

العلم ـ يؤمنون باسلوب الحياة الاسلامية، وبالاخوّة التي يسودها الصفاء والمودة، ويسمون انفسهم اخوان الصفا ـ هم الذين دوّنوا هذه الرسائل بهدف إفشاء العلم وتربية ارواح وعقول الشباب وسائر الناس، غير أن الخواص ذهبوا الى انها من تدوين امام الاسماعيلية آنذاك احمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق(ع).

قيل الكثير عن هذه الرسائل، وما يستشف انه الأقرب الى البحث والتحقيق والمستفاد من عدم تجانس الرسائل فيما بينها هو انها دونت من قبل مجموعة كبيرة من المتخصصين في فروع علمية مختلفة، مثل معظم الموسوعات الحالية، وربما تولى مراجعتها وتنسيقها احمد بن عبدالله بن محمد. وحيث ان اللغة التي كتبت بها هذه الرسائل لغة بسيطة لا تماثل لغة الكتب التخصصية، يظهر أنها كانت عملاً دعائياً لاستقطاب الشباب وكسب الاعضاء الجدد الى الفرقة، كما هو اسلوب كل الدعاة الاسماعيليين، إذ كانوا في البداية يطرحون على الناس اسئلة لاجواب لها، ثم يجيبون عنها اعتماداً على القرآن والحديث والادلة العقلية والفلسفية، فيثبتون الله والنبوة، ثم ضرورة الامامة ووجود شخصية ملكوتية تمثل القرآن الناطق، الى أن يثبتوا وجوب اتّباع امام الاسماعيلية عبر تأويل آيات القرآن.

على كل حال، كان الاسماعيليون أو الباطنيون (الى زمن هولاكوخان المغولي واندحار اسماعيلية ايران) اساطين الفلسفة وحملتها في العالم، سواء كانت فلسفتهم مشائية او اشراقية. وعلى الرغم من معاداة الخلفاء وحكوماتهم في ايران وباقي مناطق آسيا وشمال افريقيا ـ التي كانت تتبدّى احياناً على شكل معارضة صريحة للفلسفة من قبل الاشاعرة أو اهل الحديث ـ لكنهم استطاعوا تشكيل مدرسة ومذهب على غرار مدرسة المغان الايرانيين، والمدرسة الفيثاغورية في ايطاليا، وآمونيوس سكاس وافلوطين في الاسكندرية،ولكن بابعاد أوسع شملت كل انحاء العالم الاسلامي.

ابتعد الباطنيون مع مرور الزمن عن عناصر العقيدة الاسلامية لأهل البيت، واستغرقوا في المعارف الاشراقية الايرانية والاسكندرانية، وهذا ما أدى الى عكوف الباطنية الذين اشتهروا بالاسماعيلية، على الجانب السياسي واسقاط جهاز الخلافة العباسية وحكوماته التابعة له. ورغم ما تفشئ بينهم من زهد اسلامي، ورياضات المغان، واهتمام بالكشف والشهود، وحتى الاستعانة باشياء من قبيل نبات «العَلْد» لاعداد المتدربين الجدد ـ على اسلوب المغان (ما جعل اعداءهم يسمونهم في دعايتهم المضادة بالحشاشين) ولكن لم يبق من أثر لذروة العرفان الاسلامي في آثارهم واحوالهم، الا اذا اعتبرنا التصوف الممتزج بالحكمة الاشراقية والذي ازدهر في القرن السابع الهجري فصاعداً، فرعاً للباطنية والاسماعيلية وامتداداً لها.

لقد كان هذا النشاط الدعائي والتنظيمي السري في الوقت ذاته نشراً للعلم والمعرفة ولاسيما العلوم العقلية. وبفضل الكفاح الخفي لهذه الجماعة الشيعية ضد العباسيين وفقههم وكلامهم وحديثهم ـ وقد قضوا في الواقع على الفلسفة وكل انواع التعقل من بعد المعتزلة، وعززوا مكانة الحشوية والاشعرية ـ بقيت الفلسفة المشائية والمنطق الارسطي وعلوم الرياضيات والطبيعيات مصونة منيعةً، وكذلك واصلت حكمة الاشراق حياتها السرية الصعبة في احضان التصوف والباطنية.

بفعل التنظيم الخفي الذي التزمه الاسماعيلية وانضباطهم[١] وافادتهم الصحيحة من الكتاب والسنة والعقل والحكمة، فقد كانت الحكومة الحقيقية في ايديهم، بل لقد شكلوا في بعض الاحيان حكومات قوية على غرار ما كان للفاطميين في مصر، وحسن الصباح في ايران، وجماعات اخرى في آسيا وافريقيا، وربما جاز اعتبار

---

١) انظر «القرامطة بين المد والجزر» للدكتور مصطفى غالب.

السطوة التي تمتع بها البويهيون منوطةً بمساعداتهم المعنوية لهم.

العرفان الشيعي والتصوف

لهاتين المفردتين عدة معان، وينبغي اعتبار كل واحدة منهما لفظاً مشتركاً له معان متضادة في بعض الاحيان. لو قلنا ان العرفان رؤية كونية تبتني على اساس الشهود والاشراق، لكان مفهوماً واسعاً جداً يتسع للحكمة المشرقية في ايران القديمة وللمدرسة الفيثاغورية ولسقراط وافلاطون وافلوطين والتعاليم الاسكندرانية والاورفية والغنوصية، وكذلك لمدرسة أهل البيت(ع) والفرقة الباطنية الشيعية، والمتصوفة، وحتى لبعض فرق الشرق الاقصى أو اليهودية والمسيحية.

والتصوف ايضاً مفردة اطلقت في التاريخ على عدة فرق سيكون لها قهرياً حكم اللفظ المشترك. لذا حينما نصادف هذه الكلمة في التاريخ علينا التبصر والتدقيق وتشخيص الفرقة الصوفية المقصودة منها، والّا انقلب البحث والتحقيق شططاً.

ثمة اختلاف بشأن أصل هذه الكلمة. قال البعض أنها من لبس الصوف، وذهب آخرون الى أنها مشتقة من كلمة «سوفيا» Sophia اليونانية.

على صعيد الثقافة الاسلامية، اطلقت الصوفية اول مرة على الزهاد وتاركي الدنيا من خيرة اصحاب رسول الله(ص) واشهرهم سلمان وابوذر. كانت تعاليم الاسلام تحضُّ الناس من ناحية على العمل والنشاط والجهاد والنكاح والبناء، وتدعوهم من ناحية ثانية الى تطهير نزعاتهم نحو اللذة (اهوائهم النفسية) وتهذيب اخلاقهم. فشعار الاسلام هو الحديث الشريف «اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

على أن بساطة البعض وصفاء قلوبهم، دفعهم الى الظن بأن الاسلام والرسول يطالبانهم بترك الدنيا وكل مافيها، والعزوف نهائياً عن النساء والاولاد والعمل والكسب،

والاعتزال في زوايا العبادة والزهد. وقد منع الرسول بنفسه هؤلاء لعدة مرات عن هذا الزهد المفرط ولامهم عليه، ودعاهم الى الاعتدال. ورغم تعاليمه هذه واوامره ونواهيه، لم يفتأ البعض طوال قرون يتذرعون بالزهد لترك الدنيا وكل مافيها من حلال وحرام.

الفئة الثانية هم الزهاد والعلماء الذين كانت لهم معرفتهم بالحكمة الاشراقية الايرانية فضلاً عن الحكمة الايمانية الاسلامية، ويمكن اعتبار هؤلاء المتصوفة في القرن الثاني والثالث للهجرة، فرعاً من فروع الباطنية، ومعظمهم يرفعون تسلسلهم التعليمي وسلسلة اساتذتهم الى الامام علي(ع) أو غيره من الائمة. ومثال ذلك بشر بن الحارث (الحافي) أحد خلّص اصحاب الامام الكاظم(ع) ومعروف الكرخي (توفي ١٩٩ هـ / ٨١٥ م) خادم الامام الرضا الذي يبدو أنه كان ايراني الاصل ومسيحياً تحول الى الاسلام، ورئيساً لجماعة من المتصوفة.

ومنهم جابر بن حيان الكوفي[١] أحد اشهر تلاميذ الامام الصادق(ع)، وحسب الشواهد كان كاسماعيل وريث علومه الباطنية، وقد اشتهر بـ «الصوفي» ويعد رائد الكيمياء وأول علمائها. يقول عنه القفطي:

> جابر بن حيان الكوفي كان متقدماً في العلوم الطبيعية... وكان مع هذا مشرفاً على كثير من علوم الفلسفة ومتقلداً للعلم المعروف بعلم الباطن وهو مذهب المتصوفين من أهل الاسلام كالحارث بن أسد المحاسبي وسهل بن عبدالله التستري... .[٢]

جاء في دائرة المعارف الاسلامية بريلز (الانجليزية) أنه مؤسس علم الكيمياء، وكان يرى للمواد الكيمياوية اسراراً، ويعتقد أن لها روحاً وجسماً. تدل هذه المعتقدات

---

١) قاموس الرجال، ابوعبدالله جابربن حيان بن عبدالله الكوفي المعروف بالصوفي (توفي ١٥٩ هـ / ٧٧٦ م).

٢) تاريخ الحكماء، القفطي، ص ١٦٠.

الشبيهة بمعتقدات المغان والفيثاغوريين ان هذه الفكرة كانت ذات سابقة في المعارف الاسلامية والقرآنية ايضاً، وتعود جذورها الى الوحي ونبوة الانبياء.

وذوالنون المصري كان هو الآخر من التلاميذ غير المباشرين لهذه الجماعة من العرفاء. اسمه ابو الفيض ثوبان بن ابراهيم، وهو في الأصل من أهل النوبة ومصر، ومن مدينة اخميم، ويظهر أنه من أصل قبطي (توفي سنة ٢٤٦ هـ / ٨٦٠م)[١] وكان تلميذاً لجابر بن حيان وأحد علماء الكيمياء، عرف بالتصوف وكان من اساطين العرفان الالهي اللامعين.

يتسنى اعتبار ذوالنون هذا (وربما كانت في الاصل زينون) جسراً بين العرفان الشيعي الجعفري والعرفان الاسكندراني، بل ويظهر من مقولة شيخ الاشراق السهروردي انه استقى عرفانه من تلك الجهة أي من الفيثاغوريين، وأودعه لدى سهل الشوشتري (التستري) مثلما انتشر - على حد تعبير السهروردي - عرفان المغان الايرانيين عن طريق بايزيد البسطامي ووصل لمن بعده من الحكماء.

يكتب في كتاب «المشارع والمطارحات»:

> وأما انوار «السلوك» في هذه الازمنة القريبة: فخميرة الفيثاغوريين وقعت الى أخي إخميم، ومنه نزلت الى سيّار تستر وشيعته. وأما خميرة الخسروانيين في السلوك، فهي نازلة الى سيّار بسطام، ومن بعده الى فتى بيضاء، ومن بعدهم الى سيّار آمل وخرقان... .[٢]

وترتقي سلسلة اساتذة سهل بن عبدالله الشوشتري (التستري) ايضاً عن طريق ذوالنون المصري الى جابر بن حيان والامام جعفر الصادق(ع)، وعلى حد تعبير شيخ

---

١) تاريخ التصوف، برتلس، ص ٣٠. تاريخ الحكماء، القفطي.

٢) المشارع والمطارحات (مجموعه المصنفات، ج ١، ص٥٠٣).

الاشراق كان هذا السيّار (أو السالك) من أهل شوشتر حاملاً وحافظاً لتراث وخميرة وحكمة الفيثاغوريين والاسكندرانيين، ولم ير تعارضاً بين الحكمة الإسلامية و«العرفان الجعفري» والعرفان الفيثاغوري.

المنصور الحلاج (الحسين بن منصور البيضاوي الفارسي) المتوفىٰ سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢٢ م الذي اشتهر بكشف الاسرار وصراحته الشديدة كان تلميذاً لسهل الشوشتري وذا صلة بالاسماعيلية (والمعنى التاريخي لهذه العبارة هو انه كان من الاسماعيلية) وذكروا في سيرته انه كان على صلة بالقرامطة (الاسماعيلية) وقد أعدم لهذا السبب، رغم ان الخلفاء والامراء كانوا يتظاهرون باكتساب ترخيص من الفقهاء والمحدثين لاعدام مثل هؤلاء العلماء أو العرفاء، ويرمونهم مسبقاً بالكفر والالحاد.

يقول عنه ابن النديم تبعاً لدعايات البلاط:

وكان جاهلاً مقداماً متهوراً جسوراً على السلاطين مرتكباً للعظائم، يروم انقلاب الدول ويدعي عند اصحابه الإلهية (!) ويقول بالحلول ويظهر مذاهب الشيعة للملوك (؟!) ومذاهب الصوفية للعامة...

في اول أمره كان يدعو الى الرضا من آل محمد(ص) فسُعي به وأخذ بالجبل فضرب بالسوط...[١].

وكان يأكل اليسير ويصلي الكثير ويصوم الدهر... .[٢]

---

١) الفهرست، ابن النديم، ص ٢٧٠.

٢) م س، ص ٢١٧: مع انه يصفه هنا بالزهد والصوم والصلاة المستمرين، ولكن قارنوا هذا بما يروجه عنه بعض الشيعة وغير الشيعة من انه كان اباحياً عديم الدين. وقد تأثر الشيخ الصدوق بما شاع في زمانه من افكار بين الناس وكتب في «كتاب العقائد» يقول: «من الغلاة، يدعي التجلي بالعبادة مع تركهم الصلاة وجميع الفرائض ودعوى المعرفة باسماء الله العظمى...»!.

ويذكر في هذا الكتاب دعوته السرية على الطريقة الاسماعيلية والشيعية المنظمة في مدينة سوس (شوش) وكيف ألقي عليه القبض وقتل. ويظهر من شرح الاحداث انهم كانوا يطلبونه في جميع المدن ويضعون له العيون والجواسيس الى أن وشت به امرأة.

فسألوه هل أنت المنصور الحلاج؟ فكان ينكر، ما يدل على أن تهمته الاصلية هي نشاطاته السرية المعادية للسلطة لصالح الشيعة وائمة أهل البيت، الأمر الذي أثار ضده عداء الخليفة، وكل التهم التي اذاعوها ضده من أن قوله «أنا الحق» يعني ادعاءه الألوهية، انما هي من سنخ التهم التي عادة ما تلصقها الحكومات باعدائها السياسيين[١] حتى يمرروا مخططاتهم السياسية ويتمكنوا من اعدام معارضيهم واساءة سمعة كبار رجال السياسة المحترمين لدى الجماهير، واسقاط منزلتهم الاجتماعية، حتى يستطيعوا القضاء عليهم بسهولة. وقد ظل هذا الاسلوب دارجاً في تاريخ الاسلام منذ زمن معاوية والى اليوم.[٢]

يمكن اعتبار هذه الفئة من الصوفية شعبة من شعب التشيع، فهم من الناحية النظرية يتبعون معارف أهل البيت، ومن الناحية العملية يرومون اقامة الحكومة الحقة

---

١) تستدعي حياة المنصور الحلاج وحقيقة اعتقاده مزيداً من البحث والتحقيق، وقد رويت عنه هذه التهم والاعمال والمعتقدات الكافرة المنفورة بين الفقهاء والمحدثين والعلماء ايضاً ناهيك عن المؤرخين، بل حتى المصادر الشيعية روت هذه الأمور بجزم وقطع، ومن ذلك مؤلف «تبصرة العوام» الذي خاطب عامة الناس بكتابه. وبمناسبة عنوان هذا الكتاب، لابأس أن نذكر انه صنف الصوفية من زاوية اخرى الى ست فرق وهذا لا يتعارض مع تصنيفنا، وهناك آخرون طرحوا تقسيمات وتصنيفات اخرى كل حسب تصوراته.

٢) وفي القرن العشرين كان استشهاد الشيخ فضل الله نوري من هذا القبيل.

(الرضا من آل محمد) ويضحون لأجلها.

ان التصوف الاصيل بمعناه العام والذي كان رموزه واتباعه احياناً يصنفون ظاهرياً ومن حيث الفروع الفقهية على مذاهب غير المذهب الشيعي، هو في الواقع نمط من التشيع والاتباع لاهل البيت عقيدياً ونظرياً. والفرق الصوفية التي ينبغي ان لا تعد من الشيعة هي تلك التي لم تحمل من التشيع الاّ الاسم، وكانت عملياً بعيدة كل البعد عن المعارف الاصيلة.

الفئة الثالثة من المتصوفة هم بقايا الفئة الاولى بعد طبقة الاصحاب والتابعين الذين تأثروا اكثر ما تأثروا بالحشوية والظاهرية وتطبيلات أهل الحديث، من دون أي اطلاع على معارف الاسلام واصوله وفروعه، وراحوا يقلدون زهاد اهل الصفة واصحاب الرسول تقليداً اعمى.

كانت تدور بين بعض هؤلاء وبين ائمة اهل البيت(ع) احياناً حوارات ونقاشات ورد جانب منها في التاريخ. ومن ذلك اعتراض سفيان الثوري على الامام الصادق (ع) للبسه ثياباً فاخرة، واعتراض صوفي آخر على الامام الرضا(ع)، واستغرابهم من سماع أن الرسول(ص) والامام علي(ع) كانا يلبسان الخشن بينما يرتدي احفادهم ملابس فاخرة! وكانوا يسمعون اجابات تمثّل عقيدة القرآن والاسلام الحقيقي.

انهم الصوفية المعروفون في تاريخ الاسلام وفي اصطلاح الاحاديث الشيعية، والذين اشتهروا في القرون الثاني والثالث والرابع للهجرة وكان يصدر منهم احياناً ما يخالف الشرع[١] وقد سماهم أهل البيت بالصوفيين المتصنّعين.

---

١) منهم شخص يدعى ابن هلال (راجع: بحارالانوار، ج ٥٠، ص ٣١٨، ج٥١، ص ٣٢٨) لعن في توقيع الامام المهدي(ع) وتنبّئ له بعمر قصير وموت قريب.

الروايات الواردة عن أهل البيت(ع) في لعن الصوفية تختص بهذه الفئة منهم[١]، وهم الذين اصبحوا بعد ذلك دراويش ومتسكعين بين المسلمين وأخيار أهل التصوف، ولم يتورعوا حتى عن بعض المحرمات والفواحش واعمال الفسق والفجور.

عموماً، يتوزع الصوفية، أو العرفاء المسلمون الى هذه المجاميع الثلاث: صوفية ممدوحون، وصوفية ملعونون، وصوفية متوسطون. وكان التصوف الشيعي ضمن المجموعة الاولى. كما لا ينبغي اعتبار الباطنية مجموعة واحدة، فالتيار المعروف بالاسماعيلية تحول بعد قرن من الزمان، علاوة على المدرسة الباطنية الاسلامية، الى تيار فلسفي كبير متأثر بالحكمة الاشراقية الاسكندرانية والايرانية، نمّى ورعرع في داخله لا الحكمة الاشراقية والتصوف وحسب، بل أضحى حامياً حتى للفلسفة المشائية والعلوم الرياضية والطبيعية، وكان سداً منيعاً بوجه المتكلمين من ناحية، وحشوية أهل الحديث من ناحية ثانية، والملحدين وذوي الديانة السيئة من ناحية ثالثة.

فكتب من قبيل «اعلام النبوة» لابي حاتم الرازي الاسماعيلي المتوفي سنة ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م في الرد على زكريا الرازي، و«اثبات النبوة» لابي يعقوب السيستاني (السجزي) صاحب «كشف المحجوب» و«جامع الحكمتين» لناصر خسرو القبادياني (٣٩٤ ـ ٤٨١ هـ) يجب اعتبارها كتباً وضعت للدفاع عن الدين حيال اللادينية أو الديانة السيئة.

---

١) «عن الرضا(ع) قال: من ذكر عنده الصوفية ولم ينكرهم بلسانه وقلبه فليس منا، ومن انكرهم فكأنما جاهد الكفار» «البزنطي: قال رجل من اصحابنا للصادق جعفر بن محمد(ع): قد ظهر في هذا الزمان قوم يقال لهم الصوفية، فما تقول فيهم؟ قال إنهم اعداؤنا...».

وقد شهدت الاسماعيلية ظاهرتين تاريخيتين أخريين، ينبغي التنبه اليهما عند البحث والتحقيق:

الاولى أن بعض المجاميع بادرت ضمن مناطق جغرافية محدودة الى اتخاذ خطوات وتحركات سياسية وحتى عسكرية ينبغي أن لا نسجلها في ملف المدرسة التي ينتمون اليها، انما هي اعمال منفلتة واساءة استخدام للقوة (ومثال ذلك بعض الفجائع التي تنسب الى القرامطة). ومثل هذه التصرفات المنفلتة كانت تنجم عن خلافات تنشب بين قيادات الاسماعيلية، ونزاعات تدور فيما بينهم على الزعامة والسلطة.

الثانية هي أن الفرقة التي عرفت في التاريخ باسم «الاسماعيلية» هي تلك التي عرفت ايضاً بالسبعة ائمة، ولم ترضخ لإمامة الامام الكاظم(ع) ومن تلاه من ائمة أهل البيت، بيد أن عنوان الباطنية الاسماعيلية كان يضم كافة الجماعات الشيعية المعارضة (الاثنى عشرية وغيرهم) التي كانت تزاول نشاطها السياسي السري لهدف واحد هو مناهضة حكومة الخلفاء. وحتى بعض الثورات التحررية الايرانية كثورة مازيار وبابك وامثالها (من الثورات التي شُوهت سمعتها في التاريخ تحت وابل القصف المكثف لدعايات الخلفاء) كانت على صلات خفية بالاسماعيليين.

فعلى سبيل المثال، لا مجال للشك في تشيع ابن سينا ونصيرالدين الطوسي، بيد أن علاقاتهم وتعاونهم مع «الاسماعيلية» و«الصباحية» مما لا يتطرق اليه الشك ايضاً. وهكذا كان ناصر خسرو.

* * *

على أي حال، بعد النظرة التي ألقيناها على الاقسام الاربعة: الكلام، والفلسفة، والتصوف، والباطنية عند الشيعة، يتعين التأشير هاهنا الى نقطتين أخريين: الاولى أن

العرفان والحكمة الجعفرية (نسبةً الى امام الشيعة) لم تسلم بعد ذلك من تطاولات وتأثيرات العرفان الايراني والاسْكندراني. والثانية هي أنه بالرغم من الحملات الشديدة للفرق غير الشيعية ـ من الأشاعرة حتى أهل الحديث، ومن السلطة الى الرعية ـ على الفلسفة العقلانية، فقد واصلت الفلسفة مسيرتها التكاملية في ظل الحماية المنظمة للباطنية واشاعتها لها - الأمر الذي كان قد اكتسب بعداً سياسياً ـ وخلافاً لما زعمه الغربيون من أن الفلسفة تهمّشت بعد الغزالي، فقد تسبب الغزالي في تعزيز أسس الفلسفة ودعائمها، وحتى المتكلمون الاشاعرة والمتعصبون مثل الفخر الرازي كانوا من حيث لايشعرون يخوضون في الفلسفة أكثر من خوضهم في علم الكلام، فعلومهم الكلامية لم تكن اكثر من صورة ظاهرية.[١]

رغم ما كان للشيعة من مدرسة كلامية جامعة ومتعالية، الا انهم وجدوها غير ناجعة لبيان المفاهيم الشيعية العقلية والباطنية والتأويلية العميقة. لذلك اختاروا إطار الفلسفة للتعبير عن المفاهيم القرآنية، الا انهم اعتقدوا أن استيعاب تلك المفاهيم بعمق يستلزم تهذيب النفس، ففضّلوا وفق طريقة الحكماء الايرانيين (الفرس) «الحكمة الكشفية» (بمعنى ادراك القضايا الفلسفية عن طريق الشهود والكشف الباطني) على

---

١) من حقائق تاريخ العلم هو أن الغزالي لم يكن معارضاً للفلسفة بخلاف ما اشتهر به، انما وجّه كل هجماته نحو الفلسفة المشائية التي كان الاسماعيليون يشيعونها في ظاهر الأمر. وكما قلنا فإن مواجهة الغزالي للفلسفة كانت مشروعاً سياسياً عكسياً مدبراً، وجده نظام الملك والسلاجقة ضرورياً للدفاع عن كيانهم والخلافة ببغداد، فقد اضطروا في مقابل «تعليمات» الاسماعيلية الى بناء مدارس باسم النظامية تخرج الدعاة والمتكلمين لمقابلة المبلغين الباطنيين الاسماعيليين. (والاسم الآخر للإسماعيلية هو التعليمية اي انصار العلم والتعليم، وقد اشتهر معظم اهل السنة بالتقليد ومعارضة العلم والتعصب في نصوص الكتاب والسنة).

الحكمة البحثية والاستدلالية، إلّا أن مضامين وماهية هذه الفلسفة الاستدلالية الممتزجة بالحكمة الكشفية والاشراقية، مستقاة من القرآن والسنة والدين الاسلامي عموماً.

وربما لهذا يعزى إعراض البعض عن القالب الفلسفي والاكتفاء بالكشف والشهود والانضواء تحت يافطة الصوفية، وتوزيع العرفان الاسلامي الى قسمين: «الحكمة الاشراقية» و«التصوف»، حيث اضحى التصوف بحد ذاته اسلوباً ونهجاً مستقلاً وقف بوجه الفلسفة، وكان حتى في موضوعه ومسائله ومبادئه ومنهجه ومنطقه منفصلاً عن الفلسفة، رغم أن الاجابات بدت قريبة من بعضها أو مشتركة. وحيث ان التصوف انفصل في مساره عن الفلسفة الاشراقية وغدا مدرسة مستقلة، فإننا بدورنا سنعالجه هنا على نحو مستقل.

التصوّف

بعد الفراغ من هذه التحولات والتشعبات التي ظهرت إثر وفود الفلسفة الاسكندرانية واليونانية على الحكمة القرآنية، حري بنا أن نلقي تحت عنوان «دراسة التصوف» نظرةً جامعةً لهذه التحولات، ونطبق مسار الحكمة والفلسفة على التاريخ هذه المرة.

في القرنين الاسلاميين الأول والثاني، تجلّت الحكمة في شكلي «الحكمة الشيعية» و«الكلام»، ولم يكن التصوف الّا بمعنى الزهد، من دون أية تنظيمات أو تراتبية أو حلقات.[١] وكان دخول مصطلحات الفلسفتين المشائية والاشراقية

---

١) يقول سعدي الشيرازي في كتاب «گلستان»: «سألوا أحد مشايخ الشام عن حقيقة التصوف، فقال: كانوا قبل هذا طائفةً في العالم مشتتة الصورة مجموعة المعنى، وهم اليوم جماعة مجموعة الصورة مشتتة المعنى» (گلستان / الباب الثاني).

وقضاياهما قد أوجد علم الكلام الاعتزالي (والاشعري)، كما خرج الكلام الشيعي عن صورته الاولى واقترب من الكلام اعتزالي والاشعري، وصار حداً وسيطاً بينهما.

كان التصوف في بواكيره زهداً وعملاً، وانتهى نظريةً ومذهباً ومصطلحات خاصة، وبعد محيي‌الدين بن عربي (٥٦٠ ـ ٦٣٨ هـ) اضحى التصوف على يد تلاميذه واتباعه حكمةً افلوطينيةً واشراقيةً تستند الى القرآن والسنة، واصطف الى جوار انماطٍ اخرى كالفلسفة المشائية والحكمة الاشراقية، وتكاملت مسيرته يوماً بعد آخر. ومع أن الكثير من المتصوفة لم يكونوا شيعة في الظاهر، بل من اتباع الفقه والكلام السني، الا انهم في ميولهم الباطنية واعتقادهم بالولاية (وهي تسمية اخرى للامامة) توافقوا دوماً مع الشيعة الامامية الاثنى عشرية، وينبغي اعتبارهم شيعةً في العمل سنةً في النظر.

رغم أن بالمستطاع القول أن التصوف (أو العرفان الاسلامي) يمثل امتداداً للحكمة الاشراقية الايرانية، بيد أنه لم يتمازج معها بسبب صبغته الاسلامية الخاصة، انما تابعت مدرسة الاشراق الايرانية (والفيثاغورية والافلاطونية والافلوطينية) طريقها في ظل سياسات الإسماعيليين الغامضة، والى جانب الباطنية وتأويل القرآن ومواكبة التصوف، الى أن وضع التصوف في القرن السابع الهجري اقدامه في طريق جديد بفضل محيي‌الدين بن عربى وتلاميذه الذين اطلقوا الفلسفة الاشراقية الاسلامية.

عند دراسة مسار الفلسفة والعرفان والكلام في العالم الاسلامي على وجه العموم ومسار الفلسفة والعرفان والكلام الشيعي بشكل خاص، يتعين عدم اغفال حملة المغول الدمويين، فقد أسفر هذا الاعصار المتوحش عن تدمير كل شئ من بشر ومدن وحضارة وثقافة وعلم وعلماء. ان الخسائر التي لحقت بالحضارة والثقافة الانسانية جراء هذه الهجمات، ممالا يمكن تعويضه، إذ احرقت كتب نادرة عملاقة، وقتل علماء وعرفاء افذاذ، ونسفت كميات عظيمة من مكتسبات العلماء المسلمين والايرانيين في

هذه الاحداث المتوالية التي صدت البشرية لسنوات طويلة عن التطور والازدهار.

حدث هذا في مطلع القرن السابع الهجري (١٢٢٠ م) وكان من تبعاته تضعيف انشطة الباطنية التي منيت أصلاً بالضعف آنذاك، وبالتالي تم القضاء على اسماعيلية ايران من قبل هولاكو، ومع سقوط آخر خلفاء الدولة العباسية على يد هذا القائد المغولي، توقفت التحركات السياسة والاجتماعية لهذا التيار التاريخي والثقافي الكبير في تاريخ الاسلام[١]، غير أن حركته الثقافية واصلت تفاعلاتها على شكل حكمة الاشراق والتصوف، وفيما يلى نطل اطلالة سريعة على مسيرة هذين التيارين.

* * *

من زاوية اخرى بالامكان تصنيف التصوف الى مجموعتين رئيستين: (الاولى التصوف بمعنى الحكمة العملية وتهذيب النفس وبلوغ الغاية عن طريق العمل، ومعظم الصوفية من هذا القبيل. والثانية التصوف بمعنى العرفان الاسلامي الذي يُولي اهميةً بالغة للرياضات والعبادات والاذكار من جهة، لكن له من جهة ثانية وكما هم حكماء الاشراق حكمةً نظرية متسامية مستمدة بتمامها من القرآن الكريم، وتعتمد منهج الباطنية عن طريق التأويل ومعرفة تأثيرات الحروف والالفاظ وعرض رؤية كونية توحيدية دقيقة على غرار الاشراق الاسكندراني). بالنظر لهذا التصنيف لم يكن المسار التاريخي للتصوف على نسق واحد، بل كان لكل واحدة من هاتين المجموعتين مسارها الخاص.

مع سيطرة المغول الخاوين من أية معرفة، نال التصوف الخانقاهي من النوع

---

١) بسقوط الخلافة في بغداد، سقطت تقريباً الحركة السياسية الباطنية ـ الاسماعيلية ايضاً، وكأنما لم يبق لهذه الجماعة محفزات كافية للعمل، وهذه بحد ذاتها نقطة سياسية وتاريخية جديرة بدراسة مستقلة.

الاول اقبالاً في اوساط المجتمع، فقد كان بوسعه الى حدما تطبيب جراح الناس ومآسيهم التي لحقتهم على أيدي المغول، واعادة شئ من الطمأنينة والعزاء الى نفوسهم، مضافاً الى انه تفشى بين رؤساء المغول وخوانينهم والملوك الذين اعقبوهم، ولهذا كان معظم كبراء المتصوفة محظيين محترمين عند أمراء الترك.

أما التصوف العلمي والتعليمي المقارب في المعنى لحكمة الاشراق، والذي انتقل غالباً بواسطة محيي الدين بن عربي وتلاميذه من شمال افريقيا وآسيا الصغرى الى العراق وايران، فكان يتعرض احياناً لضغوط السلطات الحاكمة، وبالنظر للدعم المعنوي الذي قدمته هذه الجماعة للتشيع واهل البيت(ع)، فقد كانت تثير ضدها احياناً عواصف غضب ونقمة المحدثين وفقهاء أهل السنة، وتدفع الحكام الى تقتيل رجالاتها أو نفيهم أو قمعهم. ومن أمثلة ذلك استشهاد عين القضاة الهمداني وما تعرض له صائن الدين ابن تُركه من أذىً وضغوط.

لقد تحولت هذه الجماعة الى ملاذ وغطاء للباطنية ولحكمة الاشراق الاسكندرانية، وكما رأينا في كلمات شيخ الاشراق الذي صار شهيد الباطنية والتشيع، فإن بايزيد البسطامي والحلاج كانا ورثة الحكمة الخسروانية الايرانية، وسهل الشوشتري (التستري) كان وريث الحكمة الفيثاغورية.[١] ولم يكن استشهاد هؤلاء على ايدي امراء من السنة بسبب ما حملوه من حكمة، انما لعضويتهم في مجموعات باطنية أو رئاستهم لها.

بعد سقوط قلعة الموت والسلالة الصباحية في ايران (٦٥٣ هـ)، برز الحكيم

---

١) المطارحات (مجموعة المصنفات، ج١، ص ٥٠٣) كان بين محيي الدين وشيخ الاشراق لقاءات واتصالات في سورية، الأمر الذي يدل على علاقات باطنية بين الحكماء والمتصوفة.

نصيرالدين الطوسي الذي نعتقد انه كان من اصدقاء واعضاء الباطنية والاسماعيلية هناك[١]، ومن اساطين علم الكلام وضليعاً في الفلسفة المشائية ومن كبار علماء الرياضيات والتنجيم في عصره، مضافاً الى كونه من اقطاب حكمة الاشراق. وكما سوف نقول، فإن قطب الدين الشيرازي (وربما شمس الدين الشهرزوري) وهما من تلاميذه ولهما شروح على حكمة الاشراق للسهروردي، أحالا هذه المدرسة الى مدرسة شيراز بشكل خفي مبطن. وسوف نتعرض لمدرسة شيراز في فصل قادم من هذا الكتاب.

لحياة نصيرالدين الطوسي (٥٩٧ - ٦٧٣ هـ) وشخصيته خصائص تجعله في طور من أطوار الحكمة والفلسفة محوراً لدراسة الفلسفة والعلوم الاخرى، وتجعل القرن الهجري السابع وهو من اغنى الادوار الاسلامية بالعلم والثقافة مقترناً به مديناً له. بصرف النظر عن الخدمات التي قدمها هذا الحكيم لعلوم الرياضيات والنجوم، كان صاحب أعلى المراتب في المنطق والفلسفة المشائية وحكمة الاشراق وعلم الكلام وعلوم الفقه والحديث في زمانه، كما كان من أهل السلوك والعرفان، وقد صيّره كل هذا كعبة ورمزاً للعلم والحكمة والمعقول والمنقول. فقد نشط للابقاء على هذه المدارس وتطويرها، وايضاً للمزج بينها وتوحيدها واتحاف الاجيال التالية بتركيبتها المتناسقة،

---

١) يظهر من سيرته الذاتية وهي رسالة (السير والسلوك) خلاف ما جاء حوله من انه كان اسيراً لدى الاسماعيلية، اي انه كان من انصارهم. كان لوالده بواسطة خاله «الذي كان من تلاميذ داعي الدعاة تاج الدين شهرستانه» (رسالة السير والسلوك، ص ٤، خطية) وكان هو تلميذاً لافضل الدين الكاشاني (كمال الدين محمد جاسب) مراسلاته معهم في الشؤون العلمية، وقد أعجب بنصيرالدين واخذه عنده، واخيراً رضي بسقوطهم وانهيارهم بسبب فساد اخلاقهم وادمانهم على الخمر وانحطاطهم، وأوصىٰ باستسلامهم لهولاكو المغولي.

ويمكن اعتباره النموذج الذى احتذاه صدرالمتألهين مؤسس مدرسة الحكمة المتعالية، وربما اساتذته واخص منهم بالذكر الميرداماد.

قبل أن نعود لتعقّب مسار الحكمة الاشراقية والفلسفة الاسلامية وعلم الكلام بعد نصيرالدين الطوسي الى أن نصل بها عهد صدرالدين الشيرازي (المعروف بصدرالمتألهين أو الملاصدرا) نعرِّج على حركة الفلسفة والعلوم في المغرب (الاندلس ـ اوربا القرون الوسطى ـ واوربا الحديثة).

٢ـ٢. رِحلَةُ الفلسفة الإسلامية الىٰ أوربا

من أجل متابعة مسار الفلسفة والعلم بصورة صحيحة، ينبغي عدم اغفال اسبانيا الاسلامية وبعض المناطق الاخرى. فالحكومات التي قامت في القرن الهجري الثاني فما بعد باعتبارها خلافةً للمسلمين في مصر[١] والاندلس[٢] (اسبانيا الجنوبية) وبعض المناطق الاخرى في شمال افريقيا[٣]، ساهمت كلها بدرجات متفاوتة في اشاعة العلوم والحكمة والفلسفة والثقافة الانسانية. ومثال ذلك حكومة الفاطميين في مصر التي مالت بسببب مرتكزاتها العقيدية واصولها الباطنية الاسماعيلية والشيعية، الى حكمة الاشراق والعرفان القرآني وكذلك الفلسفة المشائية والمنطق والعلوم الرياضية والطبيعية وغيرها، وأضحت مركزاً للحكمة والفلسفة (في مقابل بغداد التي كانت مركزاً للمحدثين والمتكلمين المعارضين للفلسفة) بل وتابعت ودعمت نشرها السري في كل بقاع العالم الاسلامي. وحيال سياسة القمع البغدادية التي عرفت بالاضطهاد والتقتيل والسجن في التعامل مع المعارضين ومنهم العلماء، انتهجت القاهرة سياسة الكفاح

---

١) ٢٩٧ ـ ٥٥٥ هـ / ٩٠٩ ـ ١١٦٠ م. ٢) ١٣٨ – ٤١٦ هـ / ٧٥٦ – ١٠٢٥م

٣) كالأدارسة، والأغالبة، والمرابطين، والسنوسيين، وحكومات اخرى.

الثقافي، وتغلغلت بواسطتها داخل العديد من اجهزة العباسيين.

وحكومة الامويين الهاربين التي لم تبق هي الاخرى بمعزل عن نفوذ الباطنية، حاولت أن تنافس العباسيين، فعمدت الى اشاعة العلوم والفنون بما في ذلك الحكمة والفلسفة. ومن مصاديق هذه الحركة ان أحد خلفاء هذه الدولة (الحكم الثاني / ٣٥٠ - ٣٦٥ هـ) شيّد مكتبة كبرى لمنافسة العباسيين ثقافياً وراح يقتنص لها الكتب العلمية من كل مكان، وجمع حوله الحكماء والعلماء.

وقد انتهزت حركة الباطنية الشيعية ما اتيح لها وسط هذه الغمرة من فرصة في اسبانيا، كما فعلت في انحاء اخرى، وقد حول ممثلوها ودعاتها الذين يعد بعضهم من اعظم علماء زمانهم، الاندلس الى مدرسة كبيرة لنشر الفلسفة والعلوم الاخرى، حيث اشتهر منهم امثال ابن مسرّة، وابن باجه، وابوالحكم الكرماني (الذي يقال انه اول من نقل رسائل اخوان الصفا الى اسبانيا) والرياضي والمنجم المعروف المجريطي (المدريدي).

في ظل هذا المناخ الملائم، ورغم مشاكسات النزعة اللفظية والظاهرية والحشوية والتسطيحية التي تبلورت هناك في شكل مذهب «الظاهرية»[1] الفقهي، ظهر في تلك البلاد فلاسفة كبار من سنخ ابن الصائغ أو ابن باجه المتوفي حدود ٥٣٢ هـ/ ١١٣٨ م والذي يمكن اعتباره فارابي اسبانيا، وتلميذه ابن طفيل (ابن سينا اسبانيا) مؤلف رسالة «حي بن يقظان» (نحو ٤٩٤ ـ ٥٨٠ هـ) وكذلك ابن رشد (٥٢٠ ـ ٥٩٤ هـ) وابن سبعين (المتوفي سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٦٩ م). وفي زمن ابن رشد ظهر في الاندلس ايضاً العارف الشهير ابن عربي.

---

١) اتباع داود الظاهري الاصفهاني.

مع أن اسبانيا اشتهرت في اوربا بسبب ابن رشد، بيد أن القسم الاعظم من اهميتها التاريخية يعزى الى انها كانت بمثابة الواسطة أو الجسر الذي نقل الفلسفة والعلوم والفنون الى اوربا.

تاريخياً، ينبغي القول ان انتقال الحكمة والعلوم الطبيعية والرياضيات والنجوم وغيرها الى اوربا، تم عن طريقين:

الاول: تتلمذ الطلاب المسيحيين الاسبانيين أو الاوربيين في حواضر المسلمين في الاندلس وعودتهم الى بلدانهم (والى روما خصوصاً) على شكل قساوسة ورهبان مسيحيين أو علماء وحكماء. وقد ساعد هذا الطريق غالباً على نقل الحكمة الاشراقية الى اوربا، واخضع الحواضر المسيحية طيلة قرون لتأثيرات الحكمة الباطنية الشيعية وكتب اخوان الصفا وما الى ذلك (مثل كتب افلوطين المترجمة) مضافاً الى تفاسير المسلمين.

الثاني: ترجمة كتب المسلمين في الفلسفة والمنطق والرياضيات والنجوم والطب من اللغة العربية، وكذا الكتب التي سبق ان ترجمت من اليونانية الى العربية، حيث نقلت الى اللاتينية اولاً ومنها الى سائر اللغات، وشكلت رصيد ابحاث القساوسة في القرون الوسطى.

حول الطريق الاول، يرى أحد الباحثين العرب[1] أن الحكمة الاشراقية انتشرت قبل السهروردي في المغرب عن طريق مدرسة ابن مسرّة الاندلسي (قرطبة من ٨٨٣ حتى ٩٣١ م) التي تضمنت شيئاً من فلسفة انبادوقليس. وقد تغلغلت هذه المدرسة الاشراقية الى صفوف المدرسيين المسيحيين في الغرب، وتركت بصماتها على امثال

---

١) محمد علي أبوريان، اصول الفلسفة الاشراقية، ص٤٨.

اسكندر هيلز، وريمون لول، وروجر بايكون، ودون اسكوتوس.

لم يكن الطريق الاول بمعزل عن الطريق الثاني ـ أي ترجمة الكتب الى اللاتينية ـ فغالبية الذين درسوا العلوم والفلسفة عند المسلمين ـ سواء في اسبانيا أو في مناطق اخرى كبغداد والشام ـ اشتغلوا ايضاً بالترجمة، وكانوا يشكلون احياناً مراكز للترجمة (دور ترجمة) يستقدمون اليها مترجمين ضالعين متمرسين في اللغة العربية.

لمزيد من التعرف على هذه الرحلة الطبيعية التي انتقلت بها الحكمة والعلوم من الشعوب المتحضرة الى الشعوب المتأخرة ـ والتي تتم بين المجتمعات كقانون ضروري كما تنتقل السوائل في الأواني المستطرقة ـ من الحري إلقاء نظرة سريعة لتاريخ الغرب وظروفه الاجتماعية في تلك الآونة.

بسقوط الامبراطورية الرومانية الغربية وهيمنة القبائل الوحشية (الغاليين والجرمانيين وغيرهم) في القرن الرابع الميلادي، تركت الحضارة الرومانية مكانها لفوضى ثقافية وجهل وتوحش فكري وروحي، وجلس الاقطاعيون والامراء بعد أن خلعوا على أنفسهم ألقاب: بارون ودوق وكونت وشفاليه مكان الامبراطور، وبلغ النظام الاقطاعي ذروته. والوحيد الذي استطاع ترتيب النظام السياسي في اوربا، وتوحيد القبائل والاقطاعيين هو شارلماني (نحو ٨٠٠ م) المعاصر لهارون الرشيد.

ركز هذا الملك الذي جاور الأمة الاسلامية المتحضرة المتقدمة، على انقاذ الشعوب الاوربية، واشتهرت في التاريخ قصة علاقاته مع هارون الرشيد واستلامه هدايا منه (ومنها على مايظهر ساعة لحساب الزمن تعد أول ساعة من صناعة يدوية في التاريخ). أدرك شارلماني جهل الاقوام الاوربية وتوحشهم مقابل تحضر المسلمين وشياع العلم بينهم، واراد احياء عظمة اليونان والروم القديمة، فأمر بتشكيل مدارس في الصوامع كمدارس المسلمين، ولتخريج الاساتذة والعلماء، أوفد عدداً من الطلاب الى

البلدان الاسلامية، وكانت هذه المدارس (التي سميت عندهم اسكولا) حجر الزاوية الذي قامت عليه الحقبة المدرسية، لكنها لم تبلغ ابداً مستوى المدارس الاسلامية.

تسمى القرون التي سبقت شارلماني واعقبته (٦٠٠ ـ ١٠٠٠ م) القرون الوسطى وعرفت ايضاً بالعصور المظلمة. وعلى حد تعبير أحد المؤرخين الاوربيين: «تعطل التفكير في هذه الـ ٥٠٠ سنة بصفة نهائية».[١]

الفلسفة التي وصلت الاوربيين في تلك الحقبة كانت نفسها التي استفادها رجال الدين النصارى من معتقدات اوريجانوس واوغسطين، فاجتزأوا عناصرها الفلسفية، وابقوا على الاقانيم الثلاثة الاب، الابن، وروح القدس ـ وهي اقتباس من ثلاثية «الاحدية» و«العقل» و«النفس» الافلوطينية والاشراقية الاسكندرانية ـ وكانت جميع مباحثهم ـ التي تسمى لاهوتية ـ مسائل فارغة تماماً ولا طائل من ورائها اتخذت شكل الكلام المسيحي الناقص.

حاول المسيحيون الاوائل اضفاء لون وشكل فلسفي (اشراقي) على المسيحية، أما المحاولة التي تبنّتها الكنيسة ومسيحية القرون الوسطى فكانت عبارة عن طبع الفلسفة بطابع المسيحية (التوراة والانجيل)، وقد أدت هاتان الحركتان الى أن لا تُعرف المسيحية الحقيقة، إذ بادر زعماء المسيحية في وقتها الى صياغة اصول موضوعة كانت بطبيعة الحال بشرية لا هي الهية ولا مسيحية.

وقد شاع قسم من المنطق الارسطي والافلوطيني بين العلماء عن طريق فورفوريوس لم يتمتع بالمكانة والاحترام الكافيين، وكان في معترك صراع مع منافس كالأدب، انتهى في القرن العاشر الميلادي الى هزيمة المنطق حيال الأدب،ولذلك أعدم

---

١) اسس الفلسفة الغربية، هالينغ ديل، ص ١١٥.

اثنان من المناطقة هما «بيرنجي» و«روسلان».

كان الجهل والتعصب والتقليد الفكري والعلمي للمسيحية الاوربية، يتعمق بأستمرار آنذاك. وتزامناً مع تلك الظلامية التي تخبطت فيها اوربا المسيحية، بلغت الشعوب الاسلامية ذروة التحضر والسمو الثقافي الاسلامي.

انه العهد الذي ظهر فيه امثال الفارابي وابن سينا والرازي في ايران وباقي البلدان الاسلامية ناشرين الاسماعيلية واخوان الصفا والفلسفة والعلوم الاخرى الى شتى بقاع العالم الاسلامي. وعلى حد تعبير أحد مؤرخي الفلسفة الغربيين: «ان الاكاديميين الغربيين اليوم لا يستطيعون تصور القمة العلمية التي بلغها المسلمون ومدارسهم حينما كان البيزنطيون والمسيحيون الاوربيون يتقلبون في براثن الجهل والخرافات أبان القرون الوسطى»[١] «منذ زمن جربير على الأقل، كانت اسبانيا (شبه جزيرة ايبريا) تلعب دور الجسر الثقافي الموصل بين المسلمين واوربا»[٢].

وقعت آنذاك حادثتان عسكريتان وحربان عظميان لعبتا دوراً مصيرياً غيّر الوضع الاوربي المسيحي بتمامه، واعطى زخماً مضاعفاً لتطور الثقافة والعلوم والفلسفة. احداهما الحروب الصليبية والثانية فتح الاندلس. بمقدار ماكانت هاتان الحربان ضارة للمسلمين، كانتا نافعتين للاوربيين، إذ أحيت ارواحهم وافكارهم واقتصادهم وثقافتهم.

ليس من الواضح من هو الطرف الذي بدأ الحروب الصليبية، يقال أن قساً فرنسياً شجع الناس على فتح بيت المقدس[٣]، أو أن الفقر والبؤس الذي مني به

---

١) تاريخ الفلسفة في القرون الوسطى، بي جوان.

٢) م س.

٣) تاريخ القرون الوسطى، ألبير ماليه، ص ٢٤٨.

الاقطاعيون والامراء الاوربيون آنذاك وطمعهم في الاموال والغنائم ونهب البلدان الاخرى دفعهم الى هذه الحروب، أو أن البابا حينذاك (غريغوريوس السابع) اراد توسعة مملكته السياسية جغرافياً والسيطرة على مسيحيي الشرق، فأشعل أوار هذه الحروب[١]. وقيل أن مسببها الاصلي هو جربير دورياك[٢] العالم المسيحي الذي تبوّأ منصب البابوية وتولى زعامة المسيحيين بلقب سيلفستر الثاني. وربما كانت العلة الأصلية كامنة في السياسات اليهودية السرية التي استبطنت عداءً لدوداً للآخر.

امضى جربير فترة طلبه للعلم في اسبانيا، وتعرف هناك بشكل كامل على الرياضيات والمنطق والاسطرلاب والنجوم والادب العربي، وبعث بدعم من آتون (Atton، اسقف ويش) الكتب العربية لاصدقائه في اوربا، ما أسهم في تأسيس مدرسة شارتر (chartre)، وكان من شأن رؤيته وتجربته ومعلوماته السياسية هذه أن دفعت الى التخطيط للحروب الصليبية مطلع القرن الحادي عشر أو نهاية القرن العاشر للميلاد، واغراء الكنيسة بفتح الانحاء الاسلامية.[٣]

الجيوش الاوربية التي سارت الى الحروب الصليبية كانت مزيجاً من الاقطاعيين والفرسان (شيفاليه) البائسين، وجماعات كبيرة من القرويين الفقراء الجياع، وقطاع الطرق المحترفين والقساوسة والرهبان المسيحيين وعشرات الآلاف من النساء والاطفال، وكان لكل واحد منهم آماله واهدافه الخاصة المستقلة.

الامراء والقادة والبابا كانوا يفكرون في الاراضي والفتوحات ونهب خزائن

---

١) الحروب الصليبية، رينيه غروسيه، ص ٢٢.

٢) تاريخ الفلسفة في القرون الوسطى، بي جوان.

٣) م س.

الملوك المسلمين، وعوام الناس طمحوا الى النهب والثروة وتحسين وضعهم المعاشي[1]، والقساوسة المسيحيون كانوا مكلفين بنقل كافة الكتب العلمية والفلسفية وحتى كتب الصرف والنحو العربي الى اوربا، وقد تمخضت هذه البرمجة المدروسة عن نقل آلاف المجلدات من كتب ارسطو وافلوطين وعلماء ماقبل الاسلام اليونانيين والاسكندرانيين مع كتب ابن سينا والفارابى وغيرهما من الفلاسفة والمنجمين والاطباء والرياضيين، وبعضها بخطوط مؤلفيها، الى البلدان الاوربية.

هجوم المسيحيين الاوربيين على اسبانيا المسلمة كان ايضاً لاسباب ومحفزات عدة. الامراء طمعوا في السلطة على اسبانيا وارض اندلسيا العامرة المتحضرة، والقساوسة راموا فرض الديانة المسيحية الرومانية والقضاء على الدين الاسلامي، والاقتباس من حضارة المسلمين وعلومهم ومهاراتهم، ونقلها الى روما واوربا الغربية.

بعد هاتين الحربين (وقد استمرت الحروب الصليبية سنوات طويلة) طرأت على القارة الاوربية تغييرات عدة. ورغم ما ذهبت اليه طائفة من المؤرخين الغربيين المتعصبين، فقد كان من أبرز آثار هذه الحروب تكريس المناخ المنفتح الذي ظهر بفضل انتشار الثقافة الاسلامية في أوربا. لقد منحت الحقوق والشريعة الاسلامية للانسان منزلة رفيعة، وقررت له حقوقاً منها حريته الفكرية والعقيدية والدينية وحق الملكية الخاصة، وحرية الكسب والعمل والحكم والتصويت والانتخاب. والمرأة التي اعتبرت في الثقافة الغربية حيواناً في بعض الاحيان، أو جارية أو مجرد عاملة،

---

۱) يكتب آلبير ماليه: مسير الناس الى حرب المسلمين كان على غرار هجرة الاوربيين الى امريكا والبرازيل والارجنتين، من اجل المال والتملك والثروة (تاريخ القرون الوسطى، ص ۲۵۰) ويقول ايضاً (كان الصليبيون ينهبون كل مكان يصلون اليه) ص ۲۵۲ (لم يكن الصليبيون متدينين، وقد قتلوا حتى المسيحيين في هجومهم على القسطنطينية) ص ۲٤۷.

أكتسبت في اطار الحقوق الاسلامية منزلة ومكانة عالية. هذا بالاضافة الى الكثير من السنن الاخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والتجارية والصناعية والفنية الى جانب اهمية العلم والفكر، تعلّمها الاوربيون من المسلمين بعد سيطرتهم عليهم، وقدموها هدية للشعوب المسيحية.

التحولات الكبرى التي شهدتها اوربا بعد ذلك كان منها انهيار نظام الملكيات الكبرى، وبدء تحرير الرعية والسرفيين (serf) من حيث الملكية واختيار الوطن والعمل والمهنة. ثم ان التجارة مع الشعوب الشرقية بلغت ذروتها، الأمر الذي ضاعف الثروة الاوربية، وعرّف الاوربيين على الترف والرفاه والاسراف.

وبهذا، طرحت الحقوق الاسلامية بفروعها المختلفة في اوربا، ودرست في مدارسها ورغم عدم وجود دليل على تدريسها، الا أنها ادت بعد ذلك الى كتابة كتب في حقوق البحار وحقوق الانسان والحقوق السياسية. ومن بين ورثة الحقوق الاسلامية، يمكن الاشارة الى غروسيوس، فيتوريا، سواريز، واسكز، جون تيليس، وكلهم من القساوسة المسيحيين عاشوا ما بين القرن ١٥ و١٨ للميلاد.

تبعاً لهذه الموجة، انبثق مركز شارتر (Chartre) وهو من المراكز المزدهرة للفلسفة في اوربا، رغم ان روح الفلسفة الاسلامية لم تكن قد ألقت بظلالها عليه بعد. وقد تغير الوضع فجأة في القرن الثالث عشر وانطلقت نهضة ترجمة واسعة في كل اوربا من اسبانيا الى روما وباريس، فترجمت كتب ابن سينا والفارابي وحتى ابن رشد، وشقت طريقها للتدريس في المدارس والمراكز العلمية، وخلافاً للقرون الوسطى حيث اعتبر ارسطو والمدرسة المشائية منبوذة وشيطانية،[١] منحت المدرسة الاشراقية

---

١) بناء على تعميم مجمع باريس سنة ١٢١٠ كانت قراءة كتب ارسطو وشروحها لاتزال ممنوعة ومحرمة.

المسيحية الناقصة مكانها للفلسفة المشائية.

كان هنالك ثلاثة انواع من المدارس في القرون الوسطى: اولاً المدارس التابعة للاديرة، وثانياً المدارس المسيحية العادية (الكاتدرائيات كما تسمى) وثالثاً: الجامعات التي ظهرت في القرن الثالث عشر، وتمتعت بأجواء حرَة الى حد ما.

ترجمة الكتب الاسلامية من العربية الى اللاتينية، ايقظت القساوسة المسيحيين من نومهم العميق المزحوم بالكوابيس، فتوجهوا بعد ذلك للفلسفة والعلم الحقيقي. وقد حاول المدرسيون ان يفتحوا للعقل ايضاً مكاناً الى جانب الايمان بالمسيح، فاصطلحت الكنسية مع الفلسفة المشائية.

ظهر في تلك الفترة فلاسفة مشاهير، منهم آلبرتس المعروف بالكبير (١١٢٨ ـ ١٢٠٦ م) وروجر بايكون (١٢١٠ ـ ١٢٩٢م) وبونافنتورا (١٢٢١ ـ ١٢٧٤م) وتوما الاكويني (١٢٢٤ ـ ١٢٧٤ م) من أهل نابولي الايطالية وتلميذ آلبرتس، وسيجر (Siger) من أهالي برابانتا (١٢٣٥ ـ ١٢٨٤ م) الذي اعتبر الفلسفة بمعزل عن الحقيقة، وجون دنيس سكوت. بعض هؤلاء كان مشائياً بالتمام، وبعضهم مثل بونافنتورا واكهارت مالوا الى العرفان.

أوجبت يقظة المسيحية تطور المدارس، فانبثقت المجموعة الثالثة أي المراكز التعليمية الكبرى أو الجامعات. تأسست مدرسة شارتر المارة الذكر في نحو ٩٩٠ م، ومدرسة بولونيا في ايطاليا عام ١١٥٨ م. لكن باريس شهدت في القرن الثالث عشر (سنة ١٢٠٠م) تأسيس جامعة تركت بعد ذلك تأثيراتها في كل اوربا، واحتلت مكانة مدرسة نوتردام. وتأسست نظير هذه المدارس لاحقاً في المانيا (هيدلبرغ ولايبزيك) وبلجيكا (لوفان) وانحاء اخرى. في نهايات القرن الثاني عشر كان للطلاب والمدرسين صنف رسمي (سنديكا ـ اكاديمية)، لكنهم خلافاً للطلبة المسلمين لم يكونوا يتحلون

بالاخلاق والتربية الدينية.[١]

نَهضَة الترجَمَة في اوربّا

ذكرنا في بداية هذا القسم أن عاملين اثنين تسببا في كل هذه التحولات: الاول تواجد الطلبة المسيحيين في الحواضر العلمية باسبانيا والبلدان الاسلامية، والثاني نهب النسخ الخطية من كتب المسلمين الفلسفية والعلمية، وانطلاق نهضة ترجمتها الى اللغة اللاتينية التي سادت القارة الاوربية حينذاك. وكما اسلفنا، مع أن الترجمة بدأت في القرن العاشر الميلادي على عهد جربير، الا ان بالامكان رسم عدة أدوار ومراحل لها:

١. الترجمات التي انجزها جربير وتلميذه فولبير (من اهل شارتر)، وكذلك سكوت اريجين (بمعنى الايرلندي) (٨١٠ ـ ٨٧٧ م) الذي ترجم عن اليونانية ايضاً وكان افلوطينياً.

٢. الترجمات التي انجزها اديلارد الباثي (Adelard of Both) (١٠٩٠ ـ ١١٦٠م) بعد عودته من البلدان الاسلامية (صقلية، ودمشق، وبغداد و...) ويمكن اعتباره مؤسس الفلسفة في بريطانيا. يقال أنه أصاب حظاً من كل العلوم الدارجة في الحواضر الاسلامية بما في ذلك الصرف والنحو العربي، وكان له دور في ترجمة كتب طليطلة (توليدو). وكذلك ترجمات قسطنطين الافريقي التاجر التونسي الذي اعتنق المسيحية وأكبَّ على الطب والعلوم الاخرى، ونقل كثيراً من الكتب من بلاد المسلمين الى اوربا، واشتغل بترجمتها في ظل دعم الأسقف آتون (Atton) حتى عام ١٠٨٧ م.

---

١) يكتب آلبير ماليه في «تاريخ القرون الوسطى»: «غالباً ما كان وضعهم ينتهي الى الفساد والكحول والعراك والادمان الشديد» (ص ٤٣٦) ولأنهم لم يكن لهم رواتب ثابتة كثيراً ما كانوا يلجأون الى الجدية أو الخدمة (ص ٤٣٧) وهذا ماحدا صناع الخير احياناً الى بناء مساكن للطلاب، وقد شيد شخص اسمه سوربون المكان الحالي لجامعة السوربون في باريس للطلبة الفقراء (عن الترجمة الفارسية).

٣. الترجمات التي تمت في مركزين مهمين آخرين من مراكز الترجمة هما اسبانيا وصقلية. وقد كان الملك فريدريك الثاني صاحب مراسلات مع ملوك المسلمين، ويطرح عليهم اسئلة فلسفية، وبعد الحروب الصليبية وفتح اسبانيا من قبل المسيحيين، كلّف عدداً من الاشخاص بترجمة كتب المسلمين في الفلسفة والطب والعلوم الاخرى من العربية، وكان من مترجميه الحاذقين المنجم ميخائيل سكوت (١٢٣٢) وليوناردو فيبوناجي الذي عمل منذ طفولته عند المسلمين في الجزائر وكان متمكناً من اللغة العربية. وقد استمرت الترجمة سنوات طويلة بعد فريدريك.

والشخصية الاخرى هو الفونسو العاشر (١٢٥٢ ـ ١١٨٤م) المولع بالنجوم والرياضيات والموسيقى، والذي يعود له الفضل في ترجمة العديد من الكتب من العربية الى الاسبانية،ثم الى لغات اوربية اخرى.

٤. مدرسة طليطلة (أو توليدو) التي وقعت مكتبتها الملكية المهمة في يد المسيحيين بمجرد ان استولوا عليها سنة (١٠٨٥ م)، وانطلقت حركة الترجمة من العربية الى الاسبانية واللاتينية بوتيرة متسارعة، وقد رأينا ان الاسقف ريمون لول هو الذي تزعمها. وكان المترجمون المشاهير في تلك الآونة: جيرار الكريموني، وغونديسالوف، وجون لونائي، وهرمان الألماني، وروبرت من أهل شستر (Chester) الذي ترجم القرآن الكريم علاوة على كتب الرياضيات والجبر للخوارزمي.

٥. بيير آلفونسو (موسى سيفاردي) الطبيب اليهودي لهنري الاول ملك بريطانيا، الذي ترجم مع مساعديه عن العربية العديد من الكتب في شتى العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفية والنحوية: وقد استفاد اديلارد من كتبه.[١]

---

١) تاريخ فلسفة القرون الوسطى في اوربا، بي جوان.

٦. ابراهيم حيّا البرشلوني اليهودي (المشهور بسا باسوردا من أهالي برشلونه) الذي ترجم في الاصل كتب المسلمين العلمية الى اللغة العبرية ليطلع عليها اليهود، ثم ظهرت كلها باللغة المحلية وفيها الكثير من الكتب المهمة في الرياضيات والجبر والهندسة.

وللاختصار نكتفي هنا بالالماح الى أن نقل علوم المسلمين ومعارفهم ـ الذي صاحبه انتقال الكثير من عناصر الثقافة والآداب الاجتماعية وحتى الازياء والمأكولات وتقاليد الحياة وفنون الملاحة والتجارة ـ تم في الغالب عن هذا الطريق أي عن طريق ترجمة ونقل النصوص الاسلامية، وبعض الكتب الفريدة التي كانت موجودة في خزائن امراء المسلمين ـ الأمر الذي غيّر وجه الثقافة والمعارف الاوربية بصورة جذرية.

فمثلاً كان الاوربيون في القرون الوسطى يعارضون كل اشكال التجربة، الا أن هذه النهضة وجهود روجر بايكون وعلماء آخرين كرست اساس الاستقراء العلمي والتجربة في العالم الغربي. وأخرجت الفلسفة عن منحاها المسيحي الى حدما، واكتسبت شكل الفلسفة المشائية، وتركت قضايا مثل البحث حول عينية «الكلي» أو «الاسمية» (نومیناليزم) مكانها للبحث في صفات الباري وعلم الوجود (الانطولوجيا) وسائر مباحث الفلسفة السينائية والرشدية، وقضايا اخرى مستقاة من اشعرية الغزالي وما شاكل.

مع كل ذلك، فإن نظرةً لمسار الفلسفة في اوربا والغرب من الخارج، ومن زاوية الفلسفة الاسلامية والمتأخرة، ترشد بعض الباحثين الى ان الذائقة الاوربية المتعطشة لم تنل طعم الفلسفة الحقيقية لا في الحقبة المدرسية، ولا في عهد التحديث الفلسفي والفكري (بعد ديكارت).

ان مقارنة مدرسة فلاسفة معروفين نظير انسلم والبرتس وتوما الاكويني وسواهم، مع فلاسفة مسلمين مثل ابن سينا والطوسي والفارابي والرازي والميرداماد، ولاسيما صدرالمتألهين، تشي بضعف وقصور الفلسفة الاوربية، وتنشر روائح سذاجتها في مشام كل باحث محقق. والحقيقة التاريخية هي ـ بخلاف ما ذهب اليه امثال جيلسن ـ أن الفلسفة هجرت المدارس المسيحية من بعد اوريجانوس الاسكندراني (اول حكيم مسيحي عرفناه) ولم تفلح حتى جهود شخصيات من طراز توما الاكويني في اعادتها من جديد.

* * *

وفي العصر الحديث ـ أي من القرن السابع عشر فما بعد ـ تغيرت ماهية الفلسفة الغربية بشكل مفاجئ، ورغم التطور المذهل للرياضيات والعلوم التجريبية والتقنية في الغرب، الا ان الفلسفة لم تحتل موقعها الحقيقي، بل ان ظهور مدارس مثل التجريبية المحضة (آمبريسم) وأصالة التحقيق أو الحس (الوضعية) وما الى ذلك، وهي في الواقع (كَسَلٌ فلسفي) وضيق أفق وقصور فلسفي، أسفر عن انحدار الفلسفة في الغرب الى طريق اللاادرية (اغنوسيسم) أو لاأقل من التشكيكية وهي تراث اليونان القديم، فكان أن هَمَّش المنطقُ والرياضيات والعلمُ حركةَ الفلسفة والحكمة الحقيقية.

ولما كانت هذه الفترة معاصرة لعهد صدرالمتألهين في اصفهان وقم وشيراز، سننتقل هنا من مسار الحكمة في اوربا، الى تطوراتها وتفاعلات العلوم في ايران بعد سقوط الخلافة ببغداد، وجهود فرع الاسماعيلية بايران، أي عهد ما بعد الحكيم الكبير نصيرالدين الطوسي (القرن السابع للهجرة / ١٣ م)، لنتابعها حتى القرن الحادي عشر الهجري (١٧ م).

إذن، سيكون لنا مقال مقتضب حول صدرالمتألهين ومدرسته الحكمة المتعالية

التي تعد حصيلة ما يزيد على ثلاثة آلاف عام من الحكمة في ايران والعالم.

* * *

٢ ـ ٣. مدرسة شيراز والتحول التاريخي في مسار الفلسفة

شيراز مدينة امتدحها كل السياح والرحالة الذين زاروها، ووصفوها بالجمال والعمران والسعة وكثرة العلماء والفنانين. وقد سلمت من ويلات المغول المتوحشين إبّان هجماتهم العاتية بفضل التدابير التي اتخذها امراؤها. وقد جعلها هذا الأمن الذي تمتعت به ملاذاً مريحاً للعلماء والادباء والحكماء، يقصدها الخائفون والملهوفون من كل ناحية ومنطقة.

نفوذ الحكم العباسي والمذاهب غير الشيعية (السنية) في ايران وباقي الاقطار الاسلامية، كما إنه لم ينسجم مع كلام المعتزلة، كذلك لم يكن متناغماً مع الحكمة، لذلك اضطر الحكماء والفلاسفة ولاسيما انصار الحكمة الاشراقية ـ الذين لازموا الباطنية الاسماعيلية ما وجّه اليهم تهم التشيع ومناوءة خلفاء بغداد ـ الى نشر الحكمة والعلوم العقلية تحت غطاء علم الكلام، وهذا ما ارتقى بعلم كلام الى القمة، لكنه اكتنف مباحث لم تكن خارج نطاق الفلسفة، انما هي الفلسفة السينائية ذاتها خلعت على نفسها لبوس الكلام.

ينبغي اعتبار عصر نصير الدين الطوسي ذروة علم الكلام وأوجه. فقد تمكن هذا الحكيم الكبير بإسلوبه الحكمي وسياسته وتدبيره أن يشذِّب علم الكلام من الحشو والاضافات ويخلع عليه أردية الحكمة والفلسفة، والواقع انه قضى على علم الكلام التقليدي (باسلوب تدريجي غير محسوس)[1] وأطلق فلسفة تتشح بأزياء علم الكلام.

---

١) كتب بعض خصوم نصيرالدين الطوسي وفريق من المؤرخين المناهضين للتشيع، انه

من هنا يمكن اعتباره وسيطاً أو جسراً لنقل العلوم العقلية من الكلام الى الفلسفة.

يجب أن نعلم انه على الرغم من المناخ المعادي للفلسفة في كل العصور[1] الا ان هذا المفكر ومن سبقه أو تلاه من الحكماء لم يكفوا ابداً عن تدريس كتب فلسفة ابن سينا وتلاميذه، وحتى كتب السهروردي ولاسيما كتابه ذائع الصيت «حكمة الاشراق». وكما مرَّ بنا، يبدو أن الطوسي كان مصراً على تدريس حكمة الاشراق واشاعتها على الطريقة الاسماعيلية، وليس من باب الصدفة أن كتب اثنان من تلاميذه هما قطب الدين الشيرازي والشهرزوري شروحاً لذلك الكتاب وكانا من أشهر مدرّسيه.

لم نعثر لحد الآن على وثيقة لصالح إقامة قطب الدين الشيرازي في شيراز وتدريسه حكمة الاشراق بصفة رسمية، ولكن بالنظر لنفوذ الاسماعيلية في شيراز حيث نشطوا تحت غطاء التصوف والعرفان، لم تكن ثمة حاجة لتواجده في شيراز، ومن البعيد جداً ان لايكون قد تبقى حكماء شيرازيون من بين طلاب الطوسي والشيرازي، أو أن يكونوا قد وفدوا على شيراز من مكان آخر.

يرفع غياث الدين منصور الدشتكي (٨٦٦ - ٨٦٤ هـ) سلسلة اساتذته بأربعة اجيال الى قطب الدين الشيرازي.[2] وعضدالدين الايجي (توفي ٧٥٦ هـ) زعيم

أرغم هولاكو على أن يأخذوا المستعصم آخر الخلفاء العباسيين بعد ان استسلم ووقع في الأسر، ويلفوه في داخل الصوف ويسحقوه حتى الموت. وسواء صح هذا الخبر أو لا، فإن اسلوب هذا العالم في تبديل علم الكلام المتهالك الى فلسفة اسلامية واسعة رصينة، كان يشبه «سحق الصوف» وفي مؤلفاته شواهد كثيرة على ذلك.

١) بلغت حركة مناهضة الفلسفة ذروتها منذ زمن الغزالي في القرن السادس الهجرى، واستمرت حتى العصر الصفوي.

٢) راجع: بحث «شيراز مهد الحكمة» قاسم كاكائي. «خردنامهٔ صدرا» العدد الثاني، ص ٦٣ (غياث الدين منصور —> سيد صدرالدين —> مسلم الفارسي —> عن ابيه —> عن ابيه كمال الدين ابوالمحاسن الفارسي صاحب كتاب «شرح مختصر المناظر» في

المتكلمين الفلاسفة في شيراز كان من طلاب قطب الدين الشيرازي. الحلقة الاخرى في هذه السلسلة ميرسيد شريف الجرجاني (توفي ٨١٦ ﻫ) وبعده السيد سند أي السيد صدرالدين الدشتكي، وفي نفس زمانه جلال الدين الدواني (توفي ٩٠٨ ﻫ) واشهرهم وربما كان آخرهم هو غياث الدين منصور الدشتكي، الذي بدأت حوزة قزوين (عاصمة الصفويين آنذاك) نشاطها في زمانه، وكذلك حوزة اصفهان (عاصمة الشاه عباس الاول بعد ذلك) تحاولان منافسة شيراز، فكان أن هاجر معظم الحكماء والفضلاء بعد ذلك من شيراز الى اصفهان.

يمكن استجلاء نفوذ حكمة الاشراق الايرانية بين فلاسفة شيراز المتقنّعين بعلم الكلام من مبانيهم الفكرية وبعض شروحهم لكتب السهروردي. عُرف الدواني بمباني «ذوق التألّه» ورغم أن نظريته حول حقيقة «الوجود» ودرجاته، تختلف عن نظرية الحكماء الخسروانيين أي حكماء ايران القديمة، ولكن من الواضح انه اراد الذهاب الى هناك، وقد بذل سعيه في هذا السبيل. والمباني الدقيقة للسيد سند حول علم الباري تعالى وبعض المسائل الفلسفية الصعبة شاهد آخر على ذلك. وسننهي الكلام هاهنا عند هذا الحد لأن المجال لا يتسع للبحث المعمق في القضايا المستقاة من حكمة الاشراق.[١]

الملّاصدرا

العهد الذي عاشه الملاصدرا ـ أواخر القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر الهجري ـ شهد شياعاً واسعاً للفلسفة وعلم الكلام على السواء، ويعزىٰ السبب في

ابتيك ‹— قطب الدين الشيرازي ‹— نصيرالدين الطوسي.

١) لمزيد من الاطلاع على حوزة شيراز الفلسفية راجع سلسلة بحوث الاستاذ قاسم كاكائي في مجلة «خردنامۀ صدرا».

انتشار رقعة هذين العلمين الى جانب سائر العلوم ـ كالفقه والاصول والادب الغربي والرياضيات والنجوم والطب والفنون المختلفة لاسيما الخط والعمارة ورصف الكاشي ـ الى الوضع الاجتماعي الناجم عن الواقع السياسي للبلاد، فبحكم قوانين المجتمعات البشرية وعلم النفس الاجتماعي، يتمخض تركيز الحكم وتوفر الاستقلال عن شيوع الأمن، وينجم عن الأمن والحرية ازدهار المواهب وتطور العلوم والصناعات والفنون. كما ان وجود مراكز عُليا (كالبلاطات واجهزة تشجيع الثقافة التي تدعم جهود العلماء والباحثين) ضاعفت من سرعة هذا الازدهار.

كانت شيراز في أيام الملاصدرا محافظة مستقلة يحكمها أخو الملك، وكان والد الملاصدرا ـ الخواجة ابراهيم قوامي ـ وزيراً له وربما الشخص الثاني من بعده، ورجلاً محترماً محباً للعلم ومؤمناً ونزيهاً. النعمة الوحيدة التي لم يمن الله بها عليه هي الذرية، بيد أنه استطاع اخيراً وبعد الدعاء والتوسل بمقدسات الدين أن يحظى بهذه النعمة على أتم وجوهها، فحباه الله ولداً جعل اسمه محمداً، ولقبه صدرالدين، عسى أن تشمله بركات هذا الاسم فيغدو أحد كبار علماء الدين، وكانوا ينادونه (صدرا) اختصاراً للقبه صدرالدين.[١]

وكما كتب بعض الرحالة الاوربيين في ذلك العصر[٢]، لم يكن أشراف ايران وعوائل الكبراء يبعثون ابناءهم الى المدارس، بل يستقدمون لهم استاذاً أو اساتذة الى المنزل، وقد تعرف صدرا ـ محمد صدرالدين الشيرازي ابن الخواجه ابراهيم الوزير ـ بفضل جهود هؤلاء الأساتذة على جميع علوم عصره وحتى على فن الخط والادب والاشعار الفارسية والعربية.

---

١) الملا أو المولى كان لقباً مؤدباً وعظيماً يطلق على العلماء والعرفاء.

٢) رحلة تاورنيه الفرنسي (ص ٥٩٢ و٥٩٣) بالفارسية.

كان صدرا حدثاً جمع بين الذكاء والزكاء، والفطنة والطهارة. وقد وردت حول ذكائه في كتب التاريخ قصة معينة، ولهذا استطاع في غضون فترة قصيرة اتمام دورة كاملة من العلوم العقلية والادبية والشرعية (يمكن مقارنتها بشهادة الليسانس حالياً) وصار بحاجة الى استاذ أو اساتذة مميزين افذاذ يرتقون به الى القمم التي ينشدها. في تلك الآونة كان الملاصدرا قد قضى عقدين من عمره وبات على اعتاب العقد الثالث.

ولد عام ٩٧٩ هـ (١٥٧١ م). وقد ظل هذا التاريخ مجهولاً في عصرنا الى أن استخرجه الفيلسوف المعاصر الكبير العلامة الطباطبائي ـ كما يقول هنري كوربان في مقدمة «المشاعر» ـ من خلال حساب تواريخ بعض مؤلفات الملاصدرا.[١] بناء على أحد الاحتمالات، اتبع الملاصدرا في مطلع العقد الثالث من عمره، تقليداً دارجاً بين العلماء والطلبة آنذاك هو أن يتنقلوا من مدينة الى مدينة ومن بلد الى بلد بحثاً عن استاذ متخصص، فترك مدينته شيراز قاصداً اصفهان والري وقزوين. ومن الاحتمالات القوية أن يكون قد توجه عام ٩٨٥ هـ الى مدينة قزوين بصحبة والده، حينما اصبح حاكم شيراز (محمد خدابنده الصفوي) ملكاً وسار الى تلك المدينة التي كانت يومها عاصمة الصفويين.

تدل بعض الوثائق، ومنها مجموعة خطية كتبها عام ١٠٠٤ هـ في قزوين، ونسخة بخطه من كتاب «الهلالية» للشيخ البهائي دوّنها عام ١٠٠٥ هـ على أنه كان بين سنوات ١٠٠٣ و ١٠٠٧ هـ تلميذاً لدى الشيخ البهائي والميرداماد في عاصمة الصفويين قزوين. ويصادف هذا العام سنة ولادة رينيه ديكارت في لاهاي (١٥٩٦م) ويمكن اعتبار هذا التاريخ منطلقاً لمقارنة مسار الفلسفة في ايران واوربا (أو الفلسفتين الشرقية والغربية) ورصداً لذروة الفلسفة والعلوم في ايران والشرق خلال القرن السادس عشر الميلادي،

---

١) مقدمه هنري كوربان لكتاب المشاعر من تأليف الملاصدرا.

قياساً بحضيضها في اوربا.

من خلال الكتابات الخطية للملاصدرا ـ وفيها ألوان منوعة من المفاهيم المهمة في الفلسفة والعرفان والشعر وتفسير القرآن واحاديث كبار العلم والفلسفة والعرفان ـ يمكن معرفة انه كان في سني شبابه ومستهل العقد الثالث من عمره مطلعاً على كل علوم عصره، خصوصاً وأن ثروة أبيه وفرت له مكتبة جامعة تضم مجموعة من أندر الكتب الخطية.[١]

مع انتقال عاصمة الصفويين في زمن الشاه عباس الاول من قزوين الى اصفهان سنة ١٠٠٦ هـ(١٥٩٨ م) تحول اليها العلماء والفنانون، ومنهم الشيخ البهائي (الذي كان تقريباً يتولى منصب وزارة الشؤون الحقوقية الرسمي والميرداماد (امام صلاة الجمعة في العاصمة وهو منصب شبه رسمي) وانتقلت الحوزة العلمية في قزوين الى اصفهان.

وقد انخرط الملاصدرا في تيار هذه النقلة التي افضت الى تأسيس مدرسة اصفهان، فدرس هناك آخر مراحله العلمية في الفلسفة المشائية والاشراقية والعرفان الاسلامي والمنطق والكلام الى جانب دراسته الفقه والتفسير والحديث وعلوماً اخرى كالنجوم والاسطرلاب والرياضيات والطب.

ثمة شطر من حياته خلال هذه الفترة يغلّفه الغموض وعدم الوضوح. نعتقد انه عاد في العقد الثاني من القرن الحادي عشر الهجري الى موطنه شيراز وتزوج هناك وزاول التدريس وتخريج الطلبة، وبسبب عدم استعداد الاوساط العلمية آنذاك ـ التي لم تستوعب انجازاته العلمية وابتكاراته وآرائه الجديدة ـ امتعض بشدة من التعامل غير الصائب الذي لقيه من علماء زمانه ومدينته، فهاجر باختياره الى مدينة قم واعتزل في

---

١) في اللائحة التي بقيت عنه وطبعت مؤخراً ويبدو أنها تعود لفترة صباه في شيراز، كانت كتبه قليلة نسبياً، وربما وسّع مكتبته في وقت لاحق.

احدى قراها لردح من الزمن.

تسمى القرية التي اعتزل فيها «كهك» وقد ذكرها وتحدث عنها هنري كوربان في مقدمة ترجمة «المشاعر» الى الفرنسية[١]. كانت للملاصدرا تجارب مكثفة في العبادات والرياضات البدنية على الطريقة القديمة الايرانية والفيثاغورية، وقد تلقى على ايدي اساتذته الشيخ البهائي والميرداماد دورات متعددة، فأعاد في عزلته تلك الرياضات، فأصاب فضلاً عن الطمأنينة الروحية والتيام جراح قلبه وكآبته بسبب الاوساط العلمية المعادية للعلم، إلهامات ومشاهدات غيبية واشراقات إلهية وسماوية، واخيراً تلقى من هاتف الغيب أوامر بوضع كتبه الفلسفية.

وهذه مسألة أعرب عنها هو نفسه في مقدمة كتابه المعروف «الحكمة المتعالية» في الأسفار الأربعة وغيره من الكتب، وبمقدور قارئ كتبه بعد هذا المقطع الزمني، الشعور بما أحرزه هذا الفيلسوف من دورة الرياضات تلك.

استطاع خلال مدة اقامته في قم أو كهك، تدريس وتنشئة تلاميذ باسلوب المدرسة الفيثاغورية ـ ولكن بمعنى ومضامين اسلامية ـ فخرّج الى جانب تأليفه كتبه العملاقة كالاسفار وغيرها، تلامذة معروفين وعظماء من قبيل الملامحسن الفيض الكاشاني، والملاعبدالرزاق اللاهيجي، وقد صاهره كلاهما بعد ذلك.

في خاتمة العقد الرابع من القرن الحادي عشر، وبناء على ماكتبه الملامحسن الفيض، طُلِبَ الى صدرالمتألهين العودة الى شيراز فوافق وعاد اليها مع كل طلابه والمرتبطين به. كتب بعض المؤرخين ان «إمام قلي خان» الحاكم المستقل في اقليم فارس ومنطقة الخليج الفارسي هو الذي دعاه، إذ كان قد انهى بناء مدرسة كبرى ـ شرع والده ببنائها ولم يكملها بسبب وفاته ـ ودعا الملاصدرا لادارتها والتدريس فيها.

---

١) ص ٧ من ترجمة هنري كوربان لكتاب «المشاعر» الى الفرنسية.

بدأ صدرالمتألهين في شيراز طوراً جديداً من حياته، فكعف على تدريس الفلسفة والتفسير والحديث، وتمكن الى جانب ذلك وبفضل كل تجاربه التي اكتنزها أن ينبري لوضع تفسير جد عظيم وقيم ونادر لم يمهله الأجل ليتمّه. وطفق في تلك الدورة ايضاً يؤلف شرحاً لكتاب «اصول الكافي» للمحدث الشيعي المعروف الكليني، وهو من أقدم وأهم المصادر الحديثية للشيعة الامامية حول اصول الفلسفة والعقيدة الاسلامية، الّا ان هذا المشروع ايضاً لم يكتب له التمام.

وقد وضع كتباً اخرى في الفلسفة والحكمة المتعالية خلال هذا الطور الختامي من حياته يمكن فيها تتبع مسيرته الفكرية وتطوراته الروحية.

وكان من رياضاته الشرعية أسفاره الصعبة الى الحج (مكة) وارض الحجاز وزيارة المقابر المطهرة للإمام علي(ع) والامام الحسين(ع) وسائر شهداء كربلاء في العراق. لقد سافر بهذا الشكل سبع مرات الى الحج، الى أن وافاه الأجل في سفره الاخير بسبب المرض وهو في العراق فدفن هناك. سجلوا تاريخ وفاته عام ١٠٥٠ هـ(١٦٤٠ م)، بيد أن مدوّنةً لأحد أحفاده (علم الهدى) تفيد أنه توفي سنة ١٠٤٥ هـ ، وهو عندي أصح.

تَلاميذُهُ

مع أن القرائن تشير الى انه كان يتولى دوماً مواقع التدريس وتربية الطلبة، وينبغي أن يذكر له التاريخ الكثير من التلاميذ، الّا اننا لا نلفي غير اسماء عدد قليل من تلاميذه في كتب التاريخ، أما سائر الطلاب فلم يبق لهم من ذكر.

١. أشهر تلاميذه هو الفيض الكاشاني محمد بن المرتضى الملقب بالملامحسن. ومع انه لم يترك مبان وآراءً مشهورة عن نفسه في الفلسفة، لكنه كان صاحب ذوق

عرفاني وميول للحديث والاخلاق، وله كتاب معروف في الحديث اسمه «الوافي»، وفي التفسير «الصافي»، وفي الاخلاق كتاب «المحجة البيضاء» الذي وضعه في ضوء كتاب «احياء علوم الدين» للغزالي، وفي المعارف الاسلامية له كتاب «اصول المعارف وعين اليقين» والعديد من الكتب الاخرى.[١] ولد سنة ١٠٠٧ هـ (ونعتقد أن سنة ولادته ١٠٠٤ أو ١٠٠٥ هـ) وسجلوا وفاته عام ١٠٩١ هـ.

سعة علوم الفيض الكاشاني وغزارة مؤلفاته (في حدود ٨٠ كتاباً بعضها في عدة مجلدات) وروحه الحكمية المتسامية وذوقه العرفاني وموهبته الشعرية، جعلت منه شخصية نادرة وسامقة المرتبة ليس لها نظير في التاريخ الّا ما ندر. والحق أن استاذاً كالملاصدرا لابد أن يخرج تلميذاً كالفيض. تشبيهه بالغزالي مستساغ من بعض الوجوه، بيد أن الحقيقة هي أن شخصيته وعمقه وشموليته كانت أرقى من الغزالي بكثير، فباستثناء علم اصول الفقه والفقه الاستدلالي الدراج (وهو ما لا يعتقد به الفيض، بل كان يعمل بمنهج الاخبار) أحرز في سائر العلوم مرتبة من الصعب حتى أن نتصورها للغزالي، إذ بالامكان اعتبار الفيض فيلسوفاً عملاقاً وعارفاً واصلاً وعالماً مبرزاً بالحديث، والاهم من كل ذلك أنه كان صاحب أنفة جعلته لا يأبه لعظمة السلاطين وهيبة القصور ونزّالها، ولايكترث لخدمة الملوك، وعلى الضد من الغزالي الذي قضى الشطر الاكبر من عمره مرتزقاً على فتات موائد السلاجقة وبلاط الخلافة في بغداد، وكاتباً أجيراً، تجنب الفيض التنفذ في البلاط والتقرب الى الملوك، وعكف بعيداً عن فخفخة المناصب والجاه على البحث والتأليف والتدريس في احدى القرى، ولم يستجب لدعوة الملك الصفوي الشاه صفي لإمامة الجمعة في اصفهان، رغم أنه اضطر

---

١) كتبت بخط الملا محمد علم الهدى نجل الفيض الكاشاني.

لقبولها اخيراً في زمن الملك التالي (عباس الثاني) وبفعل إلحاحه.[١]

درس الفيض على يد الملاصدرا لمدة ثماني سنوات، تزوج بعدها ابنته، وعاش عدة سنوات معه في شيراز، ثم عاد الى كاشان وأخذ ينشر مباني استاذه في الفلسفة والحديث.

٢. التلميذ الشهير الآخر لصدرالمتألهين هو الملاعبدالرزاق اللاهيجي الحكيم والمتكلم والشاعر القدير. أصله من لاهيجان مدينة في اقليم كيلان شمال ايران. لم نعثر على معلومات بشأن حياته وتاريخ ولادته. وسجلوا سنة وفاته ١٠٧٢ (١٦٦٢ م) أو١٠٧١ هـ بينما قال البعض انه توفي عام ١٠٥١ هـ .

كان اللاهيجي من الطلاب المعروفين والمبرزين للملاصدرا، وينبغي أن يكون قد تعرف عليه في قم، فتتلمذ عليه لسنوات طويلة (وربما طوال فترة اقامة الملاصدرا في قم) في الفلسفة والكلام والعرفان والمنطق، واستلهم منه ايضاً البعد التربوي وتهذيب النفس. وقد تزوج هو الآخر من ابنة استاذه، الا انه خلافاً للفيض لم يشتهر بالتفسير والحديث، ولم يصحب استاذه الى شيراز.

واللاهيجي شاعر مشهور له ديوان، وقد استحسن الادباء قصائده. مؤلفاته المشهورة التي بقيت هي في علم الكلام، والواقع أنها في الفلسفة (والحكمة المتعالية)، ومنها كتاب «مشارق الالهام» و«الشوارق» و«حاشية على شرح الطوسي لكتاب «الاشارات» لابن سينا، وهي حول حدوث العالم وأصالة الوجود أو الماهية. وله أثر مشهور آخر بالفارسية هو «گوهر مراد» [جوهر المراد] له خلاصة بعنوان «سرماية ايمان» [رصيد الايمان]. من كتبه الاخرى شرح رسالة «هياكل النور» للسهروردي النامّ عن تمكنه من الحكمة الاشراقية أولاً، وعن شياع التدريس والبحث والتأليف

---

١) راجع رسالة «شرح الصدر» السيرة الذاتية للفيض الكاشاني.

حول حكمة الاشراق في مدرسة الملاصدرا، وأن تلامذته اقتبسوا هذا المعنى عن استاذهم، ثانياً.

٣. تلميذه الآخر الذي لم ينل كالتلميذين السابقين شهرة واسعة هو الملاحسين التنكابني (تنكابن من مدن شمال ايران). اعتبروه فيلسوفاً ذا منحى عرفاني تتمتع آثاره بالدقة والتحقيق، وقد ظل وفياً لافكار استاذه ومبانيه. ذكر البعض سنة وفاته ١١٠١ هـ أو١١٠٥ هـ بينما ذكرها البعض ١٠٥٠ (سنة وفاة استاذه الملاصدرا). وقد توفي على أثر هجوم مجموعة من العوام في المسجد الحرام.

وضع شرحاً (حاشية) لشفاء ابن سينا، وله كتاب حول حدوث العالم ووحدة الوجود، كما كتب حواشياً لحواشي الخفري على «تجريد الكلام».[١]

٤. الحكيم الآخر الذي ورد أسمه في بعض كتب الفلسفة بوصفه تلميذاً لصدرالمتألهين، هو آقاجاني (أو محمد بن عليرضا بن آغاجاني). ترك شرحاً لكتاب «القبسات» تأليف الميرداماد، ربما كان حصيلة تدريس الملاصدرا وشروحه لذلك الكتاب. وثمة شرح مشهور آخر للقبسات وضعه تلميذ الميرداماد وصهره السيد احمد العلوي العاملي.

على أن القرائن تدل انه كان كالملاصدرا والسيد احمد العاملي من طلاب الميرداماد، وربما من تلامذته المتأخرين، أو أنه درس لدى الميرداماد والملاصدرا كليهما.[٢] ليس من المعلوم تاريخ ولادته ووفاته، الا ان تاريخ تأليفه شرح القبسات كان في عام ١٠٧١ هـ(١٦٦١م) .

---

١) راجع: الفلسفة الايرانية، هنري كوربان، ص ٦٨ (بالفارسية).

٢) تاريخ الفلسفة الاسلامية، هنرى كوربان، ج ٢، ص ١٥٠ (بالفارسية) وايضاً: الفلسفة الايرانية، كوربان، ص ٦٤ (بالفارسية).

أبناؤهُ

طبقاً للوثيقة التي تركها حفيد الملاصدرا، كان له ولدان وثلاث بنات. ولده الكبير اسمه ابراهيم وعرف بميرزا ابراهيم (أو الملاابراهيم)، وكان حكيماً ومحدثاً ومتكلماً وفقيهاً وعارفاً وذا موهبة شعرية وباعٍ في الرياضيات وعلوم اخرى، وعموماً كان عالماً جامعاً لمعارف زمانه.

وقد وضع بعض المؤلفات منها تفسير بعنوان «العروة الوثقى» وشرح للقسم الاول من كتاب «اللمعة» في الفقه. سجلوا أن ولادته كانت عام ۱۰۲۱ هـ ووفاته في العقد السابع من القرن ذاته بشيراز.

ولده الثاني هو نظام الدين احمد الذي عرف بأبي تراب وميرزا نظام الدين. قيل أن ولادته كانت في كاشان سنة ۱۰۳۱ هـ ووفاته عام ۱۰۷٤ هـ بشيراز، وقد وصفوه بأنه كان حكيماً وعارفاً واديباً وشاعراً.

أما بنات الملاصدرا فهن أم كلثوم (۱۰۱۹ - ۱۰۹۷ هـ) وزبيدة (۱۰۲٤ - ۱۰۹۷ هـ) ومعصومة (۱۰۳۳ ـ ۱۰۹۳ هـ) وأغلب الظن أن أمكلثوم هي زوجة عبدالرزاق اللاهيجي، وزبيدة زوجة الملامحسن الفيض الكاشاني. بينما كانت معصومة زوجة قوام الدين الشيرازي، وذكر البعض أن أم كلثوم هي زوجة الفيض وزبيدة زوجة اللاهيجي.

كتبه وآثاره

ترك الملاصدرا ما يربو على أربعين كتاباً وكتيباً (رسالة أو بحثاً) منها كتابان في المنطق هما «التنقيح» و«في التصور والتصديق» واكثر من ۱۲ كتاباً في تفسير القرآن (طبعت منها سبعة مجلدات) وثلاثة كتب في الحديث وفي شرح «الكافي» للمحدث الشيعي الكبير الكليني، وهو كتفسيره للقرآن من نتاجات العقد الاخير من عمره وغير

كامل. وذهب فريق الى أنه وضع شرحاً لكتاب «الرواشح» من تأليف استاذه الميرداماد. وله كتابان يمكن تصنيفهما على كتب الاخلاق، أحدهما في ذم الصوفية عنوانه «كسر أصنام الجاهلية» والثاني في نصيحة العلماء المرائين المتسافلين والمرضى وردعهم، تحت عنوان «الاصول الثلاثة» وقد وضعه بالفارسية (سه أصل).

وبقيت عنه عدة كتب في الفلسفة المحضة، منها شرحه لكتاب «الهداية الاثيرية» عن الفلسفة المشائية، وشرح على شكل حاشية للالهيات من كتاب ابن سينا «الشفاء» يمتاز بدقة ومتانة مميزة، وكذلك رسالة في حدوث العالم.

على أن أشهر وأعظم كتبه الفلسفية هو «الحكمة المتعالية» الذي اشتهر باسم «الاسفار الاربعة» وهو موسوعة في الحكمة والعرفان، ودورة فلسفية تتناول مباحث الوجود العامة (انطولوجيا) والالهيات وعلم النفس وعلم المعاد، وقد استفيد فيها من جميع المدارس الكلامية والفلسفية (المشائية والاشراقية) والعرفانية لبناء مدرسة مستقلة حديثة في الفلسفة تنهض على اساس الايمان بالوحي والقرآن المقدس واحاديث الرسول الاكرم(ص) وأهل بيته(ع).

ليس للملاصدرا كتاب مستقل في الفلسفة الاشراقية، الا انه وضع شرحاً لكتاب «حكمة الاشراق» للسهروردي المشروح من قبل قطب الدين الشيرازي، يدل على اهتمامه بحكمة الاشراق وتمكنه منها.

وكتبه الاخرى مثل: المشاعر، اتصاف الماهية بالوجود، في التشخّص، سريان الوجود، في القضاء والقدر، حشر العوالم، خلق الاعمال، اتحاد العاقل والمعقول، الحركة الجوهرية، المزاج و... الخ، لها مواضيع مستقلة عولجت ايضاً في مواضعها من كتاب الاسفار الكبير.

وله كتب اخرى يستشف انها تعود للهزيع الاخير من عمره (العقدين الاخيرين) منها: الحكمة العرشية، المظاهر الالهية، اسرار الآيات، الشواهد الربوبية (ورسالة أخرى

بعنوان شواهد الربوبية)، اكسير العارفين، إيقاظ النائمين، مفاتيح الغيب، المسائل القدسية والواردات القلبية.

اكتست فلسفته في هذه الكتب صبغة اخرى، وكأنها كانت حصاد تعمقه في القرآن ومشاهداته الروحية، فهو لا يكثر فيها التقيد بالبراهين المنطقية والعقلية.

وللملاصدرا رسالة صغيرة باسم «لمية اختصاص المنطقة» تعرف بـ «حل المشكلات الفلكية» تمثل بحثاً فلسفياً حول منطقة البروج والميل الكلي.

كما ترك عدة مقالات هي أجوبة عن استفهامات معاصريه من الفلاسفة، وكتب صغيرة اخرى تنسب اليه. وقد نظم الملاصدرا قصائد اخلاقية وعرفانية جمعت في ديوانه.

المدرسة الصدرائيّة

لا مراء أن الملاصدرا أسس مدرسة حديثة أطلق عليها هو تسمية «الحكمة المتعالية»، فهي تكتنف كل اركان ومقومات المدرسة المستقلة. وبالتالي فإن الذين قالوا عنه انه كان تابعاً لابن سينا ومحيياً لفكره أو مكملاً له، وقعوا في ضرب من اللبس، ولم يكونوا واعين لفلسفته.[1]

---

۱) غوبينو، مخبر الكنيسة وكاتب المذكرات الفرنسي الذي وفد على ايران في القرن الثالث عشر الهجري (۱۹ م)، يقول في كتابه «الاديان والفلسفات في آسيا الوسطى»: «الواقع ان الملاصدرا لم يكن مبدعاً ومخترعاً، انما هو محيي الحكمة الشرقية المعظمة، ويكمن نبوغه في انه استطاع عرضها بصورة متناسقة مع عصره» والخطأ الذي وقع فيه هو ان الملاصدرا كان بالفعل مبدعاً ومجدداً. وخلافاً لمقولته ظل صدرالمتألهين زهاء قرن من الزمان مغضوباً عليه من قبل الاوساط الفلسفية، وقد بدأت شهرته وانتشار مدرسته منذ زمن الملا علي النوري.

الباحث المعروف ابوعبدالله الزنجاني[١] اعتبر هو ايضاً صدرالمتألهين محيياً للمدرسة السينائية، بيد أنه في الوقت ذاته لم ينكر استقلاله وخصوصياته المميزة لمدرسته عن المدارس السابقة، فقد قال:

> بث صدرالمتألهين في رماد مدرسة ابن سينا الميتة ـ التي قتلتها الهجمات الظالمة للغزالي واتباعه الاشاعرة والحنابلة، وكذلك هجمات الاتراك والمغول على العلوم والفكر ـ روحاً جديداً وأعاد اليها شبابها. محبو الفلسفة مدينون لهذا الفيلسوف الكبير، والحق أنه يُعدُّ بعد ابن سينا والى اليوم معلماً كبيراً ومؤسساً لمدرسة فلسفية خاصة.

رغم صحة هذا القول، ولكن يبدو مع ذلك ان هذا التعبير لايوفِّ حق الحكيم الكبير وربما المنقطع النظير، فمع أن الملاصدرا بث روحاً جديداً بآرائه الجديدة في رفات الفلسفات القديمة ومنها فلسفة ابن سينا، بيد أن المهم هو أن فلسفته لم تكن امتداداً وتفسيراً للفلسفات السابقة والمدارس المشائية والاشراقية.

انما استطاع هذا الفيلسوف بنظرته النقدية الثاقبة تغيير بنية ما شيدوه، واستبعاد بعض مبانيهم، والانتفاع من المواد الانشائية الصالحة لتلك المدارس، وبناء صرح جديد شيده بنفسه.

وعليه، مع أن معظم مسائل فلسفته هي نفسها مسائل الفلسفة القديمة أو علم الكلام، حتى أن بعض البراهين قريبة من البراهين الماضية، بيد أن المتعمقين في تقييم النتاجات الفلسفية يعلمون أن ثمة بون شاسع بين الفلسفة الصدرائية والفلسفة السينائية والارسطية وغيرها من الفلسفات، بل هي مستقلة حتى عن المدارس الاشراقية أو تصوف ابن عربي، رغم التقارب في بعض المصطلحات والمبادئ والتعريفات والاصول

---

١) نقلاً عن كتاب «الفيلسوف الفارسي الكبير».

الظاهرية.

على الرغم من أن الملاصدرا أورد بعض الأشياء والعناصر من كل المدارس الفلسفية والعرفانية والكلامية، ولكن خلافاً لما يخاله بعض الظاهريين والسطحيين ـ من أنه مَزَجَ بين المدارس المختلفة وشيّد من تركيبها مدرسته الموسومة بالحكمة المتعالية ـ[1] ليست مدرسته مزيجاً من المدارس الاخرى، انما هي مدرسة بسيطة ومستقلة استخدمت فيها العناصر النافعة في المناهج السينائية والاشراقية والعرفانية. وهو نفسه يقول: «قد اندمجت فيه العلوم التألهية في الحكمة البحثية وتدرّعت فيه الحقائق الكشفية بالبيانات التعليمية...»[2] وهذا الشبه في القوالب جعل الأمر ملتبساً على البعض.

ومن مميزات الملاصدرا أنه عمد الى اصول الفلسفة الاشراقية القديمة (مثل أصالة الوجود أو النور، وتراتبيته، والحركة في جوهر الطبيعة التي كانت عند الحكماء الايرانيين القدامى وماقبل سقراط، أو تجرد المثال واتحاد العاقل والمعقول وبسيط الحقيقة كل الاشياء كما في عرفان افلوطين والصوفية) فدرسها بنبوغه دراسة فلسفية وبرهن عليها بطريقة منطقية متماسكة، وقرر مكانتها في الفلسفة الاستدلالية.

فالمسائل التي لم يتسن ادراكها لابن سينا والفلاسفة الكبار الذين أعجزتهم، لم ينهض بها وبمعالجتها الّا نابغة كصدرالمتألهين.

يمكن اعتبار الملاصدرا عبقرياً، وابرز خصوصيات مدرسته هو أسلوبه الحديث الذي اعتمده في الفكر الفلسفي. الاسلوب الذي غيّر مسار الفلسفة وأصلح الفلسفات الماضية وأعاد تشكيلها، وحرّرها من الأعاصير والشراك التي ابتليت بها.

---

١) مقدمة دانش پژوه لـ«كسر أصنام الجاهلية» ص ١٥.

٢) مقدمة الأسفار.

الاصول الجديدة التي أرساها الملاصدرا في ضوء معطيات المدارس والفلاسفة الآخرين، اسبغت على الفلسفة قيمة اضافية وغيرت صورتها، ونبذت الزوائد والاصول غير النافعة والخاطئة في المناهج المعرفية الاخرى، وطهرت الفكر البشري والمعرفة العقلانية من الطلسمات عديمة الفائدة ومشكلات الاصول والموضوعات والبراهين والمسائل عديمة الجدوى في المذاهب الفلسفية الاخرى.

ان مدرسة صدرالمتألهين تأخذ مجمل الفكر الفلسفي بنظر الاعتبار، فهي ليست مختصة بمخاطبين معينين كما هي المدارس الاخرى. فالفلسفة المشائية مثلاً لا تروي غليل انصار الشهود والاشراق القادرين على كشف الحقائق، انما تقتصر على المؤمنين بالقياسات المنطقية، ومن يعتبرون حكمة الاشراق، في المقابل، أخيلةً مجنحةً، ولا يعيرون قيمة للشهود والكشف.

من جهة ثانية لا يقيم التصوف والحكمة الاشراقية وزناً للبراهين المنطقية، انما يخاطب أهل الشهود ومن اجتازوا دورات تربوية وروحية خاصة، ويرى أن عيب الفلسفة المشائية يكمن في اعتمادها المفرط على العقل واعطاء قيمة مطلقة للاستدلالات العقلية والبراهين. والمتكلمون المعتزلة والاشاعرة ركزوا على اقناع المسلمين فقط، بينما توجهت الحكمة المتعالية بخطابها لكل هؤلاء، لهذا تضمّن كتابه المشهور (الاسفار) كافة المباحث التي يتحراها الفيلسوف المشائي والاشراقي والعارف والمتكلم، فعالجها بالبحث والتحقيق، وصاغ لها البراهين التي تثبتها.

يرى صدرالمتألهين أن للعقل اهميته واعتباره، وكذلك للشهود، فهما العينان البصيرتان للعقل والأداتان اللازمتان للفلسفة. انه يعتقد أن الاشراق غير نافع من دون البرهان، والعقل والبرهان لايفضيان الى شئ من دون الاشراق.

هذا المنهج الذي اتبعته الحكمة المتعالية، رفع الاختلاف بين أهل الكشف واهل الاستدلال الذين قيل عنهم «أرجلُ أهلِ الاستدلال خشبية». أهل الكشف كانوا واعين

للضعف والقصور الذي يقعد العقل عن ادراك الحقائق، لهذا دعوا طلاب المعرفة والعلوم الحقة الى الكشف والشهود. ولكن من جانب آخر لم يخل منهج الشهود من فجوات، إذ لم يكن بالامكان ادراكه والافادة منه من دون استاذ أو شيخ، والاستاذ غير متوفر دائماً. كما انه يستلزم رياضات بدنية صعبة، وهذا ما لا يتاح للجميع، مضافاً الى أن طريق الشهود محفوف بالمخاطر والمنعطفات ووساوس الشيطان والنفس فهو لا ينتهي بالسالك الى الحقيقة دوماً.

من جهة اخرى، لا يتوفر طريق آخر سوى العقل لتحصيل المعرفة مع غياب الكشف والمعرفة الباطنية، والعقل نافع الى حد ما شأنه شأن الأرجل الخشبية، وسراجه يبث بعض الضياء للوصول الى المعرفة. اضف الى ذلك ان الصياغة العلمية للمعرفة الشهودية تستدعي بدورها نمطاً من البيان العلمي لارشاد العوام وتعليم المبتدئين في طريق الحكمة، وهذا هو المشروع الذي انجزه صدرالمتألهين، وقد تعذر حتى على شيخ الاشراق والميرداماد.

واذن، لم تكن الصياغة العلمية للمعارف في الحكمة المتعالية، وتوظيف الاستدلال والبرهان فيها من مصاديق البيت الشعري «أرجلُ أهلِ الاستدلال خشبية» انما كان هذا المنهج في حقيقته تسليحاً لأرجلِ العرفاء السالكين بسلاح العقل والبرهنة، حتى يتمكنوا من وعي الحقائق بطاقاتهم الروحية ويصلوا الى الحقيقة، ويغدو بمستطاعهم التدليل عليها للآخرين وحتى للمنكرين بواسطة ما يبدعونه من صياغات برهانية. فكان هذا النهج العميق والمدهش والجميل مُصالِحاً وموحِّداً بين السبل المتباينة للمعرفة.

ان هذا المنهج الجامع والمُصالِح (المسمى بالحكمة المتعالية) حدا بالبعض الى اعتبار صاحبه فيلسوفاً سينائياً مشائياً، وحكيماً اشراقياً وحتى افلاطونياً محدثاً اسلامياً في الوقت ذاته. يقول أحد الباحثين الفرنسيين المتحررين حول الملاصدرا:

اذا عددناه محققاً سينائياً، وجب أن نضيف أنه كان اشراقياً ايضاً من الناحية العملية، وهو الى ذلك مشبع بأفكار ابن عربي. ان الملاصدرا أحد أهم الافلاطونيين الجدد الايرانيين المسلمين، وهو مفكر شيعي ايضاً.[١]

الواقع أنه لم يغض من اعتبار أي من العقل أو الوحي أو الاشراق في مشروعه، ولم يستضف كل هذه المناحي الثلاثة في مدرسته وحسب، بل وأكد انها تنبع من مصدر واحد، وتعبر عن حقيقة واحدة.

كان يرى العقل والاشراق، أو البرهان والكشف وجهين لعملة واحدة، ويعتقد أن الذوق والكشف لا يعد تحقيقاً (وصولاً الى الحق) ولا يدرج ضمن الفلسفة وطلب المعرفة، الا اذا لم يرفضه العقل والبرهان. كان يقول ان المشاهدة عن طريق الكشف والحضور إذا كانت الهية وحقيقية، فهي برهانية ايضاً، وبمقدور العقل اثباتها.

رغم كل ما يبديه صدرالمتألهين من احترام للعرفاء ـ امثال ابن عربى ـ لكنه لايستسيغ اهمالهم البرهان. يقول في هذا الصدد:

لأن من عادة الصوفية الاقتصار على مجرد الذوق والوجدان فيما حكموا عليه، وأما نحن فلا نعتمد على ما لا برهان عليه قطعياً ولانذكره في كتبنا الحكمية....[٢]

وفي موضع آخر يصف آراء بعض العرفاء بأنها «تخيّل» ويقول إن مذهبي ليس بالمذهب المشائي (البحثي) ولا هو بالتصوف: «وهي ليست من المجادلات الكلامية ولا من الفلسفة البحثية المذمومة ولا من التخيلات الصوفية...»[٣].

كما انه ينبذ عن نفسه علم الكلام، ويقول أنه هو (وليس الفلسفة) سلسلة

---

١) البروفيسور هنري كوربان، مقدمة المشاعر، ص ٣٣، بالفارسية.

٢) الاسفار الاربعة، ج ٩، ص ٢٣٤. ٣) المشاعر، ص ٣.

مجادلات فارغة خاوية. لقد كان على معرفة تامة بآراء المتكلمين، وعلى حد تعبيره فقد أنفق الكثير من عمره العزيز في شبابه على هذه الأمور[١]، وتبيّن له أن متكلمي المعتزلة والاشاعرة نماذج متكاملة للافراط والتفريط. فالمعتزلة انبهروا بالفلسفة المشائية حين اطلعوا عليها، ولهثوا خلف سرابها، والاشاعرة ابتعدوا عن العقل والحكمة بحجة حفظ الشريعة وصيانتها، ثم انهم لم يدركوا حتى الشريعة.

وإذن، فهو يعتقد أن علم الكلام سلسلة من المجادلات[٢] لا تفضي الى الحقيقة، ولهذا صاغ مدرسته بحيث تجيب بكفاءة على كل مسائل علم الكلام من دون أن تكون مدرسة في علم الكلام. فهو كنصيرالدين الطوسي غيّر علم الكلام باسلوبه الخاص، ومحاه تقريباً، واستعاض عن ذلك بأن سلّح الفلسفة بما يؤهلها للمنافحة عن الاسلام والحلول محل علم الكلام. اذا كان الطوسي قد بدل بذكائه علم الكلام الى فلسفة، فإن صدرالمتألهين أظهر الفلسفة على شكل علم كلام لكنه علم كلام جديد، بمعنى أن كل مضامين مدرسته واشكالها ومفاهيمها هي فلسفة اشراقية ومشائية، الا انها في الوقت ذاته تبرهن على مسائل علم الكلام، أو بعبارة اخرى؛ ليست فلسفته علم كلام، لكنها تنطوي على منافع علم الكلام وآثاره.

لقد اعتبرَ علمُ الكلامِ الاسلامي ـ شأنه شأن الكلام اليهودي والمسيحي ـ نفسَهُ مدافعاً عن الدين، وتوكأ على القرآن والسنة، ولكن كما لاحظنا فإنه قلما بلغ هذه الغاية، ثم انه استدل غالباً بالجدل المنطقي وعلى اساس المشهورات أو المقبولات والمسلمات، وكان النص وثيقته الأساسية وكثيراً ما لا يتحقق الاجماع في فهم النص.

أما صدرالمتألهين فقد أرسىٰ للعقل والوحي قاعدة حصينة، الأمر الذي تعذر على المعتزلة والاشاعرة، ثم وظف الشرع والبرهان لصالح بعضهما. فطرح الوحي

---

١) الاسفار الاربعة، ج ١، ص ١١. ٢) المشاعر، ص ٣.

والشرع برؤية عقلية وفلسفية، وأثبت جدواه وبرهانيته في الاستدلال الفلسفي.

وأثبت عدم وجود أي تعارض أو تضارب بين الوحي وتعاليم الانبياء، وبين الحقائق العقلية التي يتوصل اليها الحكماء بالعقل والاستدلال، بل إن الانبياء هم الذين اتحفوا البشرية في فجر التاريخ بالحكمة والعلوم العقلية والطبيعية، وبالحضارة على وجه الاجمال. وما كان الحكماء العظام سابقاً سوى تلاميذ مباشرين أو غير مباشرين للانبياء، والحكمة الحقيقية تنبع دائماً من الوحي والنبوة، وهذان يرضعان من ثدي الوحي على السواء.

ان الاديان والانبياء هم أول من تحدثوا عن خلق العالم وطبيعة الانسان، والخالق، وطريق السعادة البشرية، وعرفوا الناس على خالق العالم وهو أحق الحقائق.

ونعلم أن وحدة (أو قرب) الوحي والعقل، أو الشريعة والفلسفة كانت دوماً من مبادئ الشيعة الباطنية والحكمة الجعفرية، وقد دافع عنها كل الحكماء الاسماعيليين والباطنيين واخوان الصفا وحتى ابن سينا (في نهاية كتاب الشفاء) والطوسي وابن تركه وامثالهم، وبلغ هذا المنهج ذروته وكماله في مدرسة الميرداماد.

كما ان حجر الزاوية في التصوف أو العرفان الاسلامي هو الوحي (القرآن والحديث) ولكن لا كما يفهمه العوام وأهل الظاهر، بل بعد تأويله والغوص في اعماق النصوص الالهية، ولهذا تبدّت بعض مؤلفات الصوفية أشبه بتفسير للقرآن منها بحكمة اشراقية أو عرفان.

ومع أن الملاصدرا تلميذ مدرسة التأويل، الّا انه مثلما استساغ الحكمة الاشراقية والكشف بمعية العقل والبرهان المنطقي وليس بمعزل عنهما، فقد وافق تأويل القرآن بمعية التفسير والتنبّه الى ظاهر الالفاظ.

من هنا ترجح مدرسته (الحكمة المتعالية) على علم المعرفة والالهيات الصوفية. فهو لم يذهب مذهبهم في القول: «لقد أخذنا من القرآن لبابه ـ وتركنا القشور لمن

شاءها» انما شرع للوصول الى حقائق القرآن من القشور والالفاظ اولاً، وتناول ظاهره كما يفعل المفسرون المهتمون بالالفاظ، ثم سبر اغواره انطلاقاً من مبدأ التأويل وراح يقلب طبقاته ويزيح استاره ستاراً بعد ستار الى أن بلغ لبابه وجوهره.

لقد أولى الملاصدرا العقل بالغ الاهمية من منظارين: الاول ان اساس حقية الوحي والرسول والدين نابعة من العقل، والعقل طريق لبلوغ الشرع. والثاني هو رغم ان العقل البشري اضعف من الوحي والدين، من حيث القيمة ودرجة الصراحة وإرشاد الانسان الى حقائق العالم، ومن حيث وضوحه وجلائه ايضاً، بيد أنه لايمكن ان يعارض الوحي، فالعقل السليم يجاري الوحي الصحيح دائماً.

يُبيّن في أحد كتبه انه: لايمكن للعقل أن يخالف الوحي (والحديث والنقل)، واينما ظننا أن هذين متضاربان، فالواقع ان العقل لم يصل بعد الى تلك الحقيقة، فثمة فارق بين ان يكون الشئ محالاً عقلاً، وبين أن تكون مديات الخبرة العقلية غير واصلة بعد الى ذلك الموضوع لتتأكد منه وتختبره، ومن لا يعرف هذا الفارق فهو غير جدير بالمخاطبة والمناقشة والاستدلال.[١]

ربما كان السبب من وجهة نظره هو أن العقل لا يمتلك قدرات الوحي على تبيان الحقائق واجلائها، فأحكامه كلية مبهمة، أما المسؤول عن الافصاح الواضح عن الحقائق الضرورية للبشر وادارة حياتهم فهو الوحي. من هنا ينبغي عدم التضحية بالوحي من أجل العقل ابداً، وكذلك عدم اهمال العقل نهائياً عند اتباع الشرع والوحي، انما يجب استعمالهما مع بعضهما، وعلى حد تعبير الملاصدرا نفسه فإن الشرع المصاحب للعقل «نورٌ على نور».

ويقول في موضع آخر: مستحيل أن يتعارض دين حقيقي مع العقل وأحكامه

---

١) رسالة (سريان الوجود)، ص ١٣٨.

اليقينية والضرورية، على انه ليس كل برهان حقاً وحقيقةً، واذا بدا البرهان والعقل معارضاً للوحي والشرع الحقيقي لم يكن جديراً بالقبول والاحترام. أي أن الوحي أوثق وأهم مصدر للمعرفة والحكمة، وكل نظرية فلسفية وعلمية لا تتطابق معه فهي متهافتة ولا تتطابق مع الواقع أو مع جزء منه على الاقل.

تشدد الرؤية والمدرسة الصدرائية على أن العقل والوحي ينبعان من مصدر واحد، وهو روح القدس أو العقل الفعال. العقل الحقيقي (وليس العقل الساذج الضال المتقلب في وساوس الشيطان) يستمد المعرفة عبر الاتصال بالعقل الكلي أو العقل الفعال، والوحي ايضاً يتنزل على الانبياء من ذات المصدر. وبالتالي يجب ان يتطابق هذان دائماً ويؤيد أحدهما الآخر، ولا يجوز أن يصدر عن مصدر واحد شيئان متضادان أو متناقضان لا يلائم احدهما الآخر.

ربما أمكن الشك في هذه الفكرة أو مناقشتها، بيد أن ما لاجدال فيه هو أن الوحي والنبوة حينما يثبتان بالبرهان العقلي والمنطقي، فلن يبقىٰ مائز بين العقل والشرع، فهما يفضيان الى بعضهما ويتحدان.

* * *

يعتقد الملاصدرا أن المعرفة الفلسفية بحاجة الى التكامل والنضج، وهو ما يعبر عنه بـ«الفطرة الثانوية». وهو يرى أن المعرفة الفلسفية لا تتأتى عبر الفطرة الاولية، لذا ينبغي على الفيلسوف والحكيم أن يصل اولاً الى الفطرة الثانوية وحتى الفطرة الثالثة، لكي يستطيع التوفر على المعرفة الحقيقية.

ربما كان مراده أن بنية ذهن الفيلسوف تختلف عن ذهن العوام والعقول الساذجة، فهو اكثر نضجاً وتكاملاً. وهو يروي عن ارسطو (بل عن افلوطين في

الحقيقة) قوله: «من أراد الخوض في علومنا عليه أن يصوغ لنفسه فطرة اخرى»[١]، وقد شاهدنا عملياً ان الفلسفة اذا تناولت المسائل الصعبة برؤية بدائية، تعود بخفّي حنين.

يرى الملاصدرا أن العقل والاستدلال يدعم ويؤيد حتى الكشف والشهود. ومع أن اهمية الكشف لا تقل عن اهمية الحس أو العقل والاستدلال، انما تفوقها بدرجات عدة، الا أن الكشف والشهود يجب أن يُسلّحا بالبرهان العقلي في كل الاحوال.

الشهود والاشراق كما هو العقل والوحي، طريق موثوق لبلوغ الحقائق، واذن، يجب ان تكون مكاشفات أهل الاشراق غير متعارضة مع العقل والبرهان ـ فضلاً عن الوحي والشرع ـ واذا بدا التعارض بينهما فإما ان في احدهما خللاً، أو أن المسألة ليست عن اختصاص العقل ومدياته.

يتضح مما مر المسوّغ الذي جعل الملاصدرا يقيم مدرسته على اساس هذه المصادر الثلاثة كلها، ولماذا يمكن للفيلسوف المشائي والحكيم الاشراقي والمتكلم المسلم أن يجتمعوا رغم انفصالهم.

منهجية الملاصدرا هذه، وسعة أفقه في دراسة الفلسفة وقضاياها المعقدة، افضت الى سعة مديات نظرته الفلسفية، وسهلت عليه حل المشكلات، فقد تمكن عن هذا الطريق من ادخال مسائل كثيرة الى الفلسفة وبعمق اكبر، واخراج الفلسفة عن قيودها المشائية، الأمر الذي بث روحاً جديداً في جسد الفلسفة وانقذها من الجمود والتهرّؤ، وأعاد لها الحركة والتوثب.

* * *

لم تكن مدرسة الحكمة المتعالية متوقفة وراكدة في زمن حياة الملاصدرا، انما اجتازت مراحل ومدارج معينة. كانت الحكمة المتعالية في الكتابات الاولى

---

١) مقدمة «المظاهر الالهية».

لصدرالمتألهين أقرب الى الفلسفة القديمة، غير انه بمرور الوقت وبحكم تحولاته الروحية وتعمقه في القرآن، وجد نفسه غنياً عن البرهان المنطقي، وحاول كمفسر للقرآن أن يعالج المسائل الفلسفية من زاوية الآيات القرآنية. ونماذج ذلك كتبه التي ألفها في العقد الأخير من عمره (الحكمة العرشية، المظاهر الالهية، شواهد الربوبية، مفاتيح الغيب و...الخ).

لقد حاولت الفلسفة الالهية من قبله دراسة مسائل «الموجود بما أنه موجود»، لذلك كانت تصل الى مبدأ الخلقة وذات الله وصفاته، وبكلمة واحدة كانت «معرفة المبدأ» و«معرفة الوجود» هي مدار الفلسفة، ولم تتموضع «معرفة الغاية» الّا في الحكمة النظرية وبشكل غامض وملتبس.

وكانت حكمة الاشراق والتصوف اكثر تكاملاً من الحكمة المشائية على هذا المستوى، لأنها جمعت بين الحكمة العملية والنظرية. فالغاية من الحكمة النظرية الوصول الى مرحلة العمل والحكمة العملية، ومن جانب آخر فإن الحكمة العملية ضرورية للدخول في الحكمة النظرية، فثمة بينهما دور جائز (يعرف بالدور اللبني). أما «معرفة الغاية» أو«علم الغاية» بمعنى البحث في المعاد والقيامة والجنة والجحيم والثواب والعقاب، كما كان دارجاً بين المتكلمين، فلم يدرس في المدارس الحكمية الاخرى.[1]

لكن صدرالمتألهين توسع في مذهبه بـ «الغاية» من الفلسفة، وبلغ بها مبلغ الكمال، بمعنى انه تخطى السياسة وتدبير المدن (وهو ما كان يعد في الفلسفات السابقة غاية الفلسفة ونهاية الحكمة العملية، إذ قيل ان الهدف المتوخى من الفلسفة هو حسن

---

١) وردت مواضيع المعاد والجنة والجحيم والموت والثواب والعقاب في اقوال سقراط وكتابات افلاطون بشكل رمزي، وثمة اشارات لها عند الحكماء الزرادشتيين القدماء، كما نوقشت في كتب ابن سينا والفلسفة الاسلامية باختصار.

ادارة المجتمع المدني وسعادة الانسان) معتبراً ان الغاية من الحكمة العملية هو احراز السعادة الاخروية والدنيوية، وقد عرّف السعادة بنحو آخر يختلف عن التعريف الذي قدمه ابن سينا[١].

الخطوة التي قطعها كانت اكبر وأوسع مما انجزه الاسلاف، فقد ارتقىٰ بغاية الفلسفة ومعرفة المبدأ الى «معرفة المعاد» وقرر أن الهدف من الحكمة العملية هو «السعادة النهائية والحقيقية للبشر» بمعناها الصحيح. ولهذا نلفي تشديداً كبيراً في مدرسته وفكره على محورين اصليين ومتجانسين هما «المبدأ» و«المعاد». المبدأ ضروريٌ للوصول الى المعاد، والمعاد هو في الواقع عودة، ومنتهى الحركة التكاملية الانسانية للوصول الى «مبدأ الفيض» والوجود.[٢]

يفهم من كلمة «المبدأ» في هذا النظام الفلسفي، الحكمة النظرية. ويمكن ادراج كل الفلسفة النظرية ضمن نطاقه. وفحوى كلمة «المعاد» هو الحكمة العملية وتأثيرات الاخلاق وتربية النفس وتدبير المعاش والمجتمع ضمن انساق الطبيعة.

واذن، فالفصل بين المبدأ والمعاد في هذا المنهج الفكري، فصل اعتباري وغير منظم (غير سيستماتيكي) فهما في الحقيقة كاللحمة والسدى في النسيج، وأشبه بجهاز واحد.

تحاول مدرسة الحكمة المتعالية أن تطرح المعاد بوصفه هدفاً للفلسفة والعلوم الاخرى، ومع كل الفوارق بين ابن سينا والملاصدرا، وكذلك بين الفلسفة السينائية والصدرائية، ينبغي الاعتراف أن هذه الفكرة مستلهمة من ابن‌سينا (وكتابه: المبدأ

---

١) قال ابن سينا أن السعادة الاخروية هي الشعور التام بالوجود، والالتذاذ الاكبر به والانتفاع الاكمل منه.

٢) في العرفان الاسلامي وماقبله اطلقوا على الحركة من المبدأ الى نقطة حضيض المادة اسم القوس النزولي، وعلى حركة البشر التكاملية نحو المبدأ اسم القوس الصعودي.

والمعاد) وقد تكون تقليداً فكرياً قديماً لحكماء ايران واليونان في الازمنة الغابرة.

كذلك خلافاً لاغلب كتب الفلسفة المعروفة (كالشفاء لابن سينا والكتب التي تلته) التي أدرجت مباحث الانسان (النفس والحركة الجوهرية للانسان) في قسم الطبيعيات، وناقشتها في قسم الطبيعيات، وفصلت بين الانسان وعلم المبدأ (الذي جعلت مكانه في مابعدالطبيعة)، عمد صدرالمتألهين الى ادراج الانسان ومباحثه (كالنفس وقواها والموت ومابعده) بوصفها من علم المعاد أو السفر الروحي الرابع للانسان، ضمن الالهيات ومابعدالطبيعة، واستعاض عن ترتيب مباحث الالهيات (التي تبدأ بمباحث الوجود العامة وتصل الى الالهيات الاخص ومعرفة الله) بمنهجية «الاسفار الروحية الاربعة» للعرفاء والسير والسلوك عند المتصوفة.

ولهذا السبب عنون أعظم وأهم كتبه الفلسفية بـ «الحكمة المتعالية في الاسفار الاربعة» وجعل فصوله الخطوات الاربع أو الاسفار الرئيسية الاربعة في المسيرة الروحية للانسان.

في الخطوة الاولى أو السفر الاول من هذه الاسفار الاربعة، يدرس الموجود وما يتعلق به من مباحث (أي الوجود، الماهية، الحركة المادية والجوهرية، والعقل)، فالكون والعدم والطبيعة وماوراءها تقطع مراحلها من قبل السالك بشكل معنوي الى أن يصل الى الحق فيتعرف عليه (السير والسفر من الخلق الى الحق).

الخطوة الثانية أو السفر الثاني للحكيم والعارف، هو الغوص والذوبان في الوجود الحقيقي الذي يعتبر المانح الحقيقي للوجود في العالم، والسير في صفاته وتجلياته التي تتراءى امام انظار السالك في كل الآفاق. في هذه المرحلة التي تعد مصداقاً كاملاً للثيولوجيا ومعرفة الله الفلسفية بالمعنى الحقيقي والدقيق للكلمة، ينبغي على السالك والعارف والفيلسوف أن لايرى شيئاً سوى الله (السير والسفر في الحق بالحق).

أما الخطوة الثالثة أو السفر الثالث، فهو عودة الى العالم ومخلوقاته، ولكن لا

برؤية طبيعية، انما ينظر السالك لكل شيء من منظار الحق، وهذا في الواقع سير في الحق وافعاله وهو على عكس الخطوة الاولى ـ حيث سار في الطبيعة برؤية انسانية ونظرة طبيعية ليكتشف الله ـ سفرٌ يستغرق صاحبَهُ السيرُ في الصفات الالهية، الا انه يصل في النهاية الى مخلوق الحق ومصنوعه، ولهذا يسمى «السير من الحق الى الخلق بالحق».

الخطوة أو الرحلة الرابعة، سير بين المخلوقات وعالم الطبيعة، حيث تتجلى للسالك حقيقة المخلوقات والعالم، وتتضح له جميع قوانينه، وتشخص امامه منهجية الحياة السعيدة للبشر وافضل السبل الى الله وعالم الآخرة ومدارج مابعدالموت، كصفحةٍ بينةٍ جلية، فيجد السالك في نفسه خلال هذه المرحلة مسؤولية الأمر والنهي وبيان الاحكام الالهية ـ العالمية.

بناء على هذا المنطق وهذا النهج، تغدو الفلسفة الحقيقية هي تلك التي تنمو وتتكون بموازاة تكامل روح الفيلسوف، لا أن تجتمع حفنة من المعلومات والمصطلحات والاستدلالات في الذهن.

الخطوة الاولى للفيلسوف هي معرفة «الموجود» بما انه موجود واعراضه الذاتية (التى تبحث في الأمور العامة) والتقسيمات الظاهرية واقسام الوجود والجواهر والاعراض والوحدة والكثرة والعلية وما الى ذلك. واذا استطاع الفيلسوف في نهاية هذا السفر الوصول الى مبدأ الوجود والخلق والوجود الحقيقي، سيكون من حقه أن يضع خطوة الى الامام، فيبدأ سفره الثاني بمعونة الحق وهدايته، ليلمس الكمال الحقيقي.

يستطيع الفيلسوف عن طريق معرفة الله المتعال والكمال الحقيقي والوجود المطلق الابدي، أن يلقي نظرة ثانية الى عالم الطبيعة، ويرى بعينيه ارتباط كافة الموجودات بالله المتعال وفقرها اليه وتبعيتها له، ويدرك كل ذلك بعقله واستدلاله، ويلمسه بقلبه وروحه. هنا، تمنح بهجة السفر الاول والثاني مكانها لطمأنينة تشبه الهدوء

بعد الطوفان، وفي نهاية هذه المرحلة وبعد مطالعة النفس الانسانية والهوية الحقيقة للانسان، يتعرف السالك على احكام وقوانين الحياة والموت وعالم مابعدالموت.

إن مَثَلَ هذه الاسفار الاربعة كمثل حلقة تعيد الفيلسوف الحكيم الى نقطة انطلاق حركته الفكرية والروحية، مع فارق أن روحه وشخصيته وافكاره قد دارت دورة كاملة، وامضت دورة تربوية وتكاملية كاملة، فرأى الحقائق بعيون القلوب ولمسها بحاسّة الروح، وشعر أنه في وسط قلب العالم النابض.

وعلى حد تعبير الملاصدرا نفسه، يستطيع الانسان بسفره هذا الانسلاخ عن الجنس الحيواني والدخول في عداد الملائكة[1].

من هذا المنظار، حينما يُرصَد علمُ الطبيعة وعلمُ الانسان بمجهر الهي، ويُدرسان من زاوية العلوم والحكمة الملكوتية، فلن تعود الطبيعة ماديةً، بل ستُمسي جزءاً من الملكوت.

رغم المعرفة التامة التي حازها الملاصدرا بالعلوم الاخرى ـ التي سماها العلوم الجزئية ـ الا انه لم يبد نحوها أية رغبة، بل ضم صوته الى صوت سقراط في انها ليست من شأن الحكيم. ولهذا كانت معظم كتبه في الفلسفة أو«العلم الكلي» كما يسميه.

* * *

ليس الملاصدرا فيلسوفاً يمكن تقييمه من خلال كتاب واحد من كتبه. فآراؤه في الفترة الوسيطة من حياته ـ التي قضاها في ضواحي مدينة قم ـ تتفاوت عن أساليبه وأفكاره في الطور الاخير من حياته ـ حيث كان مقيماً في شيراز ـ فقد كان هذا الفيلسوف نموذجاً كاملاً لفكرة تتطور وتنضج باستمرار.

وبسبب هذا التكامل والتطور المتواصل في افكاره ومدرسته، نجد أنه بعد ما

---

١) مقدمة أسرار الآيات.

وضع موسوعته الفلسفية الكبرى ـ الاسفار الاربعة ـ وأسماها «الحكمة المتعالية» وصل في بحثه ومكابدته الى حكمة أرقىٰ من «المتعالية». انه يتحدث في كتاب «الحكمة العرشية»[١] عن حكمة اسمى من الحكمة المتعالية. وكأن حدود «تعالي» كل شيء يتطابق مع جدران هذا العالم، على أن هناك عالماً آخر في الجهة الاخرى للحكمة المتعالية هو «عرش» أو حيز الهي محض لا يطيقه العقل أو الادراك السامي للانسان، انما يمكن الوصول الى هناك بفضل الوحي والارشادات النبوية وحسب، فهناك يستقر العرش أو المركز الفرضي والمعنوي للحكومة الالهية.

وضع الملاصدرا كتاب «الحكمة العرشية» بعد تأليفه كتاب «الاسفار الاربعة»، وفي كتاب آخر يلوح أنه كتبه بعد ذلكم الكتابين وجعل عنوانه «ايقاظ النائمين» نراه يتجاوز حتى تلك المرحلة المتقدمة، فيقول: كنا في كتبنا السابقة نستخدم المنهج البحثي (الفلسفة البحثية والاستدلالية) في بيان التوحيد، لكننا نستخدم الآن منهجاً آخر. ويسمي هذا المنهج بالمنهج القدسي، وهو المنهج الذي قلما يدرك حكيمٌ قيمته وفائدته.

في تسمية كتابه بـ«ايقاظ النائمين» اشارة ظريفة الى أن الفلاسفة كلهم نيام، وهو ومن سار معه يقظون، لذا نراه يهوِّن من المنهجية الفلسفية الدارجة بين الفلاسفة الآخرين ويعتبرها ضعيفة.

* * *

كما لاحظنا في هذه الاطلالة القصيرة والعاجلة على مدرسة صدرالمتألهين، فقد كانت شخصيته مختلفة عن معظم الفلاسفة الذين اعقبوا افلاطون، كما كانت له مدرسته

---

١) ترجم هذا الكتاب الى الانجليزية ترجمة ممتازة من قبل البروفيسور وينستون موريس الذي كتب له مقدمة بعنوان (The wisdom of the throne).

ومنهجيته المبتكرة الخاصة به.

وإذن لا يتسع ما لدينا من مجال ضئيل للمقارنة بينه وبين شخصيات مثل ابن‌سينا أو الغزالي أو السهروردي، أو الفلاسفة الغربيين كتوما الاكويني، وبرغسون، أو آخرين، انما نكتفي بالقول أن الملاصدرا لم يكن أياً من ابن سينا، أو الطوسي، أو الفارابي، أو السهروردي، أو توما الاكويني، أو بوهمه، أو برغسون، أو كانط، أو ديكارت،أو سويدنبورغ، فالملاصدرا هو الملاصدرا ليس إلّا، ولم نعثر لحد الآن على شخصية ممكنة التشبيه بهذا الحكيم الفذ.

من حيث السمات الشخصية، كان الملاصدرا عالماً مثابراً مكباً على القراءة وغزير الانتاج وينبغى اعتبار كثرة مطالعاته أحد عدة عوامل ساهمت في تطوير افكاره، ومن العوامل الاخرى يمكن الاشارة الى تأملاته وعباداته ورياضاته الجسمية واستمداده من القوى القدسية، وقوى الالهام والشهود، وكذلك توفره على منهجية (ميتدولوجيا) متكاملة في البحث، مضافاً الى اهتمامه بتاريخ الفلسفة والحكمة الالهية.

ومن العوامل المهمة الاخرى التي ساهمت في تطوير افكاره واكسبت مذهبه اهمية وكمالاً مميزاً، تمكنه من القرآن والحديث، وتركيزه العميق على الهامات الظاهر والباطن. والعامل المهم الآخر هو تشديده وتركيزه الحصري على الفلسفة الالهية ومقدماتها العلمية، وإعراضه عن العلوم الاخرى حتى المنطق والطبيعيات، رغم أنه كان منطقياً ضالعاً له كتبه في علم المنطق.

لقد خالف طريقة الفارابي وابن سينا ونصيرالدين الطوسي وسائر الفلاسفة الذين اهتموا وخاضوا حتى في علوم الطب والنجوم والرياضيات النظرية والعملية، وركز كل طاقاته وجهوده العلمية على الفلسفة والوحي. يقول عن هذا الجانب في حاشيته على الشفاء: «نحن لما كرهنا رجوع الرجل الالهي في شيء من المسائل العلمية الى

صاحب العلم الجزئي ـ طبيعياً كان أو غيره ...».[۱] ويقول كذلك في الاسفار، ايضاحاً لنقله مبحث النفس من الطبيعيات الى الالهيات: «العادة جرت بذكر هذه المسألة في فن الطبيعيات، لكنا أوردناها ههنا للعلة المذكورة ولعلة اخرى وهي أن البحث عن ماهية الشيء ونحو وجوده مناسب لأن يذكر في العلوم الالهية ...».[۲]

* * *

۱) تعليقات على الهيات الشفاء، ص ۲٥٦.
۲) الاسفار الاربعة، ج ٥، ص ۳۲۰.